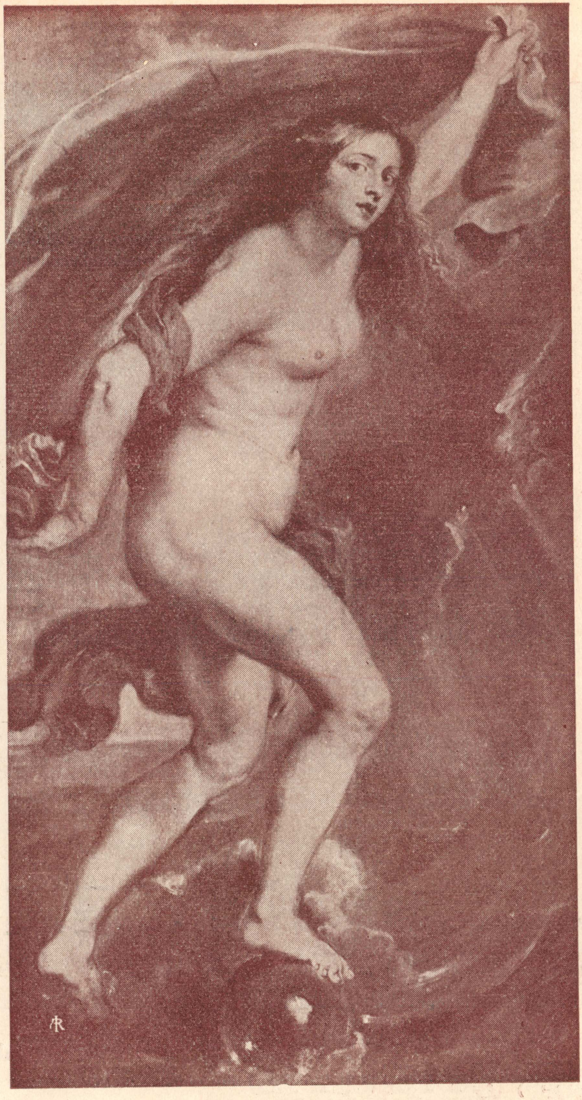


١٠ قروش
كتابي
حلمي مراد
المنافق
وكتب أخرى
(طرطوف) .. لموليير



ابتسامة صبية .. ودموع السماء !

تصوير مسز ميلدريد هاثرى (نيويورك)



حورية البحـــر

من مجموعة المهندس المعمارى « هنرى فريسكو »

كتابى

كتاب شهرى لتلخيص الكتب العالمية
يصدر أول كل شهر
صاحبه ورئيس تحريره : حلمى مراد

شعار « كتابى »

مصباح الفكر عند الاغريق

الكتاب الثلاثون (السنة الثالثة) : سبتمبر ١٩٥٤
الاشتراكات ومجموعة الاعداد السابقة : اقرأ التفصيلات بالداخل
الادارة : عمارة الجندول ، ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة
تليفون ٥٩٥٥٦ و ٦٥٦٠٨

مشكلة الشباب !

عزيزى القارىء ..

◆ **كانت** الظاهرة الاجتماعية التى أثارت اهتمام الرأى العـام - بل انزعاجه - خلال الاسابيع الاخيرة ، حتى لقد شغلت حيزا كبيرا من أعمدة الصحف وجانبا كبيرا من تعليقات الباحثين .. هى هذه « الموجة » من الجرائم المروعة التى ارتكبها شبان وطلبة ينتمون الى بيئات ومعاهد علمية شتى ، كانت البلاد تعلق عليها آمالا فى ان تخرج لها رجالا يعملون لرفعة شأنها ، لا مجرمين يهددون أمنها ، ويهدرون - فى استهتار عجيب - كافة قيم الانسـانية ، وجميع اعتبارات منفعتهم الخاصة ذاتها .. بل يهدرون آدميتهم ، وكرامة بيئاتهم ، ومعاهدهم ، وعائلاتهم المفجوعة اليائسة ..

ولقد تشعبت الآراء فى تعليل هذه الظاهرة المزعجة وتشخيص اسبابها الحقيقية، تمهيدا لتجنيد القوى وحشد أنجع الوسائل لعلاجها ووقف تيارها..

لكن اصابع الاتهام من جانب اكثر الباحثين تكاد مع ذلك تلتقى فى اتجـاه واحد : هو ان كل ما يعانيه شباب اليوم فى مصر من قلق ، وحيرة ، وتخبط ، وفشل ، ويأس ، واندفاع أحمق الى العنف والجريمة .. انما يتسرب الى اعصابهم وعقولهم من داء واحد : الكبت الجنسى .. والجهل الجنسى .. والحرمان الجنسى ! .. الأمر الذى دفع بعض المشفقين على مصائر الشباب الى المناداة بوجوب اعادة البغاء الرسمى .. ولست ألومهم !

لست ألومهم لاننى لا أفهم ان تغلق الدولة مثلا جميع المطاعم والمشارب العامة قبل ان تستوثق من ان حالة البلاد الاقتصادية والاجتماعية تسمح لكل مواطن بأن يكون له بيته الخاص الذى يتوفر فيه الطعام والشراب .. وبغير هذا يكون شأن الدولة شأن من يدعو كل من لا بيت له الى ان « يسرق » طعامه من الغير .. أو يخطفه !

تدعوه الى هذا .. ثم تعاقبه ان أطاع منطقها ففعل !

ولست أدرى الى متى سنظل نحن أهل الشرق نخفى رؤوسنا فى الرمال كالنعام ، ونجبن عن مواجهة الأمر الواقع كما ينبغى ان يواجـه .. وكما واجهته دول الغرب ، فسبقتنا فى مضمار التقدم ، والانتاج ، وسلامة الاجسام والاعصاب والعقول !

٠٠هذا الأمر الواقع الذى ينادينا كل يوم ، بل يصرخ فى أسماعنا ، بألف صوت ، وألف مثال ، كى نتنبه الى مدلول هذه الحوادث والجرائم والفواجع التى تقع كل حين ، ونرفع أبصارنا الى التقويم ٠٠ لنرى فى أى عصر نعيش !

والتقويم يقول لنا اننا نعيش متأخرين عن عصرنا نصف قرن أو يزيد ! ٠٠ فنحن ما نزال نجهل أو نكابر فى تطبيق نظريات « فرويد » وأتباعه من أقطاب علم النفس ، التى أخذ بها العالم المتمدين منذ أوائل هذا القرن !

وعلم النفس ، الذى نلقنه لشبابنا فى المدارس كما تلقن الببغاوات ـ وننكره عليهم فى الحياة والواقع خارج جدران المدرسة ! ـ علم النفس هذا يقول : ان الجنس غريزة ، وحقيقة ٠٠ غريزة ، أى « حاجة فطرية ، ثابتة ، لا يمكن استئصالها ، تسعى الى تحقيق هدف هو المحافظة على الحياة ! »

نعم ٠٠ الجنس « غريزة » ، من صنع الخالق ، مثل سائر غرائز البشر : مثل الخوف ، والأمومة ، والبحث عن الطعام ، والتملك ، والمقاتلة ٠٠

والجنس « حقيقة » ، لا يجدى فى مقاومتها تجاهل ، أو انكار ، أو استنكار ! ٠٠ وهذه الحقيقة التى نغمض عنها اعيننا مكابرين ، ومعاندين ، هى السبب فى اكثر ما يعانيه شبابنا منا ، وما نعانيه نحن منهم :

هى السبب فى سقوط نسبة كبيرة من طلبتنا فى الامتحان (وهى نسبة فاحشة لا مثيل لها فى اى بلد آخر !)

٠٠ وهى السبب فى اصابة نسبة كبيرة اخرى منهم بحالات الانهيار العصبى ، والامراض العقلية ، والصدرية ٠٠

٠٠ وهى السبب فى اندفاع ضعاف الاخلاق منهم فى طريق الاجرام والخروج على القانون

٠٠ وهى السبب فى حالات القلق ، والبلبلة ، والحيرة ، والتخبط ، والخجل الزائد الذى يعوق نمو الشخصية ٠٠ بل هى السبب فى الفشل الذى يمنى به الكثيرون من شبابنا فى مستهل حياتهم العملية ٠٠

ومع ذلك ، فنحن فى مصر ـ حكومة وشعبا ـ ما نزال نتجاهل هذه الحقيقة الكبرى ، بل هذه المشكلة الرئيسية التى تتفرع عنها جميع مشكلات الشباب الأخرى ، والتى يجب ان تواجه وتعالج بروح العصر ٠٠ ولكن اى عصر ؟ عصر الذرة ، لا عصر الجاهلية !

اننى أدعو قادة ثورتنا الابطال ، الذين حطموا اعداء مصر واحدا بعد الآخر ، فخلصونا من : الطغيان ، والفساد ، والاقطاع ، ثم الاحتلال ٠٠ أن يوجهوا ضربتهم التالية الى قلب مجتمعنا الذى ينخره سوس النفاق ، والجهل ،

والرجعية ٠٠ فيحرروه منها جميعا ، وينقذوا معنوية هذه الاجيال المتعاقبة من الشباب ، الذين هم عدة الثورة فى الانتاج ، والاصلاح ، والعمل ٠٠ من أجل مصر

ولكى ينتج الشباب ، ويصلحوا ، ويعملوا ٠٠ ينبغى ان نوفر لهم أولا : المعنوية العالية ، والذهن الصافى ، والاعصاب الهادئة ، والجسم السليم ٠٠ وهى كلها لا يمكن ان تتوفر فى ظل مجتمع يفرض عليهم ان تظل مشكلة الجنس شغلهم الشاغل ، وبالتالى هدف تفكيرهم ، وتدبيرهم ، فى يقظتهم وأحلامهم ، وموضع تندرهم ، ونكاتهم ، وحملقتهم ، وحركاتهم المبتذلة ، والفاظهم السوقية ٠٠ بل موضع تحايلهم على القانون ، وتآمرهم على خرقه ! ٠٠ وكأنى بهم يمارسون تجاربهم الاولى فى ارتكاب الجنح والمخالفات والاحتيال على القوانين والسلطات ، حين يتحايلون للافلات من سطوة بوليس الآداب !

انها مشكلة ٠٠ بل مشكلة المشكلات ! ٠٠ وقد تسألنى : وما هو حلها ؟ أهو فى اعادة البغاء ؟ ٠٠ وانا لم أقل بهذا ٠٠ **فالمشكلة أوسع وأضخم وأعم من ذلك بكثير ، وهى لا تحل فى يوم وليلة ٠٠ وانما هى تتطلب تطورا فى عقليتنا يناسب تطور الزمن ٠٠ تطورا يحمى اعصابنا من ان تصدمها كل صباح انباء الصحف عن جرائم الشبان المراهقين ٠٠ والتعرض للسيدات فى الطرقات والمركبات ٠٠ والشذوذ الجنسى ٠٠ واقتياد الشبان والفتيات الى أقسام البوليس بتهمة الفعل العلنى الفاضح٠٠ الخ٠٠ ويكفينا فى هذا المجال ان تزخر الصحف بأنباء جرائم « هتك العرض » ، و « غسل العار » والوفيات بالاجهاض ٠٠ فان محصولها للصحف وعشاق الفضائح من القراء ليس بالقليل !**

ومرة اخرى اكرر : انها مشكلة ، وحلها ليس باليسير ٠٠ ولكن لا أقل من ان نحاول السعى الى حلها على هدى ما فعلته الدول الأخرى فى هذا الشأن : وكيف يعيش شبابها ٠٠ ومدى الحرية التى تكفلها لهم الدولة ، والمجتمع ٠٠ ونظرة الشعوب الى مشكلة الجنس ٠٠ ومعاملة الوالدين لابنائهم المراهقين ٠٠ الخ

فالى هذه النواحى كلها نوجه انظار حكومتنا الرشيدة ، لمناسبة ما قيل عن قرب تأليف « مجلس اعلى لشئون الشباب » ٠٠ على ان (كتابى) لن يغفل – مع ذلك – الدور الذى يستطيع أن يساهم به فى هذا المجال ، سواء من ابحاثه الخاصة ، أو من آراء قرائه الاعزاء ٠٠

والى الاعداد القادمة باذن الله

حلمى مراد

كتابى

اعداد نفدت

كتابى الاول : ((**خطـايا الحب**)) وكتب أخرى ، وكتابى الثانى : ((**قلب عذراء**)) وكتابى الثالث : ((**الهـاربة من الجنـة**)) وكتابى الـرابع : ((**حـواء الجـديدة**)) وكتابى الخامس : ((**أحدب نوتردام**)) وكتـابى السادس : « **جريمة حب** » .

اعداد توجد نسخ منها بالادارة

كتابى السـابع ((**عشيقة نابليـون**)) ، والثـامن ((**مـذكرات كيوبيد**)) ، والتاسع ((**صنم تحطـم**)) ، والعاشر ((**حديقة الله**)) ، والحادى عشر ((**عندما تحقد المرأة**)) ، والثانى عشر ((**لعبة الحب والموت**)) ، والثالث عشر ((**توبة خاطئة**)) ، والرابع عشر ((**ايها الربيع ترفق**)) ، والخامس عشر ((**الشيطان على الارض**)) ، والسادس عشر ((**الليدى هاملتون**)) ،والسابع عشر ((**الارملة المرحة**)) والثامن عشر ((**حياة جورج صاند**)) ، والتاسع عشر ((**حياة سارة برنـار**)) ، والعشرون ((**رباعيات عمر الخيام**)) ، والحادى والعشرون ((**حياة بيتهوفن**)) ، والثانى والعشرون ((**حياة موسولينى**)) ، والثالثوالعشرون ((**كوخ العم توم**)) والرابع والعشرون ((**الزوج والعشيق**)) والخامس والعشرون ((**البوهيميـة**)) ، والسادس والعشرون ((**فتاة لها ماض**)) **والسابع والعشرون** ((**ترويض النمرة !**)) والثامن والعشرون ((**فن الحب**)) ، والتاسع والعشرون ((**الجريمة والعقاب**))

◆ **وتطلب من صاحب كتابى ١٤ شارع فؤاد الاول بالقاهرة (عمارة الجندول)، وثمن كل عدد ١٠ قروش خالص اجر البريد (المسجل) ما عدا الاعداد ١٣ ،** ١٦ ، ثم من ٢٥ الى ٢٩ ، وثمن كل منها بالبريد المسجل ١٢ قرشا ، والعدد العشرون وثمنه عشرون قرشا

◆ **ملحوظة : ترسل القيمة فى مصر والسودان باذن بريد عادى ، وفى الخارج بحوالة بريدية نقدية عن طريق مكاتب البريد MONEY ORDER** أو بشـيك على أحد بنوك القاهرة ، ولا تقبـل العملة الاجنبيـة أو أذونات البريد الخارجية . وتحرر الاذونات والشيكات باسم صاحب المجلة شخصيا .

الاشتراكات

◆ ترسل جميع الاعداد الى المشتركين : فى مصر والسـودان بالبريد المسجل ، وفى الخارج بالطائرة .. وقيمة الاشتراك فى مصر والسودان : عن سنة (١٢ عددا) : ١٢٠ قرشا ، وعن نصف سنة (٦ أعداد) ٦٥قرشا۔ فى الخارج (العراق وسوريا ولبنان والحجاز والاردن .. الخ) ترسلالقيمة بشيك أو بحوالة بريدية نقدية عن طـريق مكاتب البريد **MONEY ORDER** وتحتسب القيمة بما يوازى ١٣٠ قرشا (عن سنة) و٧٠ قرشا (عن نصف سنة) ـ أو تدفع قيمة الاشتراك الى مكاتب **شركة فرج الله للمطبوعات فى بيروت وفى بغداد (بشارع السنك ، بغداد)**



قصة مصرية بقلم
سعد مكاوى

◆ **يقول** مثل ايطالى : « حيث يوجد النور ، توجد المسرة » وأنا أنوى الليلة يا أصدقائى أن أحدثكم عن قصة زينب ، وما أدرى لم ذكرت هذا المثل حين انتـويت أن أقص علكيم هذا الحادث المشجى !؟

لقد دارت حياة زينب على الظلمات ٠٠ ظلمات حياة قصيرة مبتذلة ، وظلمات نفس عامية بريئة ، ذهبت وما يعلم سرها الا خالقها ٠٠ ولكن فى هذه الظلمات شمعتين أوقدتهما يد رجل واحد : شمعة أضيئت ليلة دب الى زينب سيدها دبيب اللص الخسيس ، فعلمها الهوى ، ونعم بحسنها وشبابها ٠٠ وشمعة أوقدت ليلة ودعت زينب الحياة والشباب ٠٠ كلتا الشمعتين أوقدتهما يد رجل واحد ، كان سلطان الحياة والموت فى عمر زينب ٠٠ وقد شغل فيما بعد منصبا خطيرا من مناصب الدولة، ولندعه الليلة « احمد عبد البارى » ٠٠٠

وفى تلك الايام البعيدة التى أحدثكم عنها ، وحتى الآن والى ما شاء الله ، **يمكن أن نعتبر احمد عبـد البارى نموذجا للرجل الذى تكون المرأة أساس حركاته وسكناته ، وهدف حيـاته وشغل ليله ونهاره ٠ وقد قضى فى المدارس ما يزيد على خمسة عشر عاما ، فانزلق كل ما تلقاه من علم وتهذيب وثقافة على طبيعته الحيوانية ، كما ينزلق الزئبق على صفحة من الورق، فخرج من هذا العمر الطويل ولم يبق منه فى تكوينه العقلى والخلقى الا التافه القليل ٠ وقد عرفتـــه فى أسيوط ، منذ أكثر من عشرين عاما ، فعرفت فيه ذلك « الحيوان الكامل » المتمتع بخصائص الانانية والبلادة والخمول الذهنى ، والمبادرة الى اللذة العاجلة فى اندفاع السمكة الحمقاء الى الطعم !**

وقد شكا الى ، لاول عهدى بمعرفته ، عمله المضنى وسأمه المرهق ونومه المضطرب ، وكان حديث العهد بالوظيفة وبأسيوط ، وكان أحب شىء أليه أن تخوض بمسمع منه فى سيرة النساء . وكثيرا ما سمعناه يسأل :

ـ عجبا لهذه المدينة ، هل خلت من النساء ؟!

كانت المرأة غذاء يقظته وقوت أحلامه ، يتمثلها فى حمى الحرمان طيفا من العطر والنور والدفء ، يزور الناس ولا يزوره ، وربما سمع ضحكة ناعمة من وراء نافذته فأرقته فى مضجعه حتى مطلع الفجر ، وربما مرت على طريقه ملاءة سوداء ملفوفة على بدن ضامر مشدود ، فشدت وراءها أعصابه شدا يكاد يدفع به الى الجنون ..

ومضت أشهر كان احمد عبد البارى خلالها موضع تندرنا .. ثم فوجئنا بانقلاب غريب طرأ على شخصيته، فقد شهدناه مرحا مشرقا لا يتحدث متى لقينا عن النساء ، وبدا عليه أنه قد أوتى سكينة النفس من حيث لا ندرى ، فأردت أن أقع على سره ، فوقعت على مأساة زينب .

وكان قد حدثنى ذات مرة عن الايام التى سبقت سفره الينا من قريته البعيدة ، وذكر لى عرضا أنه جاء من هناك بخادم صغيرة ، وأنه يحس الكثير من الضيق والحرج لوجود هذه « الجاسوسة » معه ، فهى لن تتردد فى الوشاية به عند أهله اذا ما اطلعت على غرامياته المقبلة .. وكانت تتمثل له عقبة سخيفة فى سبيل تمتعه بالنساء الجميلات اللاتى كان يدبر فى خياله الخصب المهتاج قصص غرامهن المنتظر به ، وفى كل غرام جديد منتظر كان خياله يرسم له خطة بديعة لخداع خادمه زينب ..

وقد علمت فيما بعد أن زينب كانت تمت اليه فى الحقيقة بقرابة بعيدة غامضة .. ابنة فلاح فقير من ذوى قرابته ، جاءت

لتخدم قريبها ٠٠ وأحسبها كانت فى ربيعها السادس عشر ، المسكين ، على حين كان هو يكبرها على الاقل بعشرة أعوام ٠٠

والذين خبروا النفس البشرية منكم يعرفون تلك الطرق الملتوية التى تلجأ اليها النفس للانحراف من هدف الى هدف ، بقصد التكميل أو التعويض ، أو العزاء عما فات أو ما لا سبيل اليه ٠ وقد كان احمد عبد البارى يحيا فى حرمان طاغ مستبد، وعمل ممل رتيب ٠ كان رجلا هدفه المرأة ، وكانت هى فتاة صغيرة ساذجة من أعماق الريف الشهيد ، كأنها رسالة لم تفض !

نفس بدائية باطشة أعياها انتظار الاحلام ولم تفدها الحيلة واستبد بها طبعها الحيوانى ، **فاذا السيد يكف من تلقاء نفسه عن اضطهاد خادمه الصغيرة ، ولم تعد تثيره بلادتها وبدانتها وجهلها وقذارتها ، ولم يعد يؤذى سمعه حديثها ٠٠ فوجد نفسه يلتفت اليها على غير وعى منه ، وعلى مدى شهور لا أيام ٠٠ وجد نفسه يشترى لها ثيابا جديدة ، وحليا رخيصة براقة، ويعلمها النظافة والتجمل ، ويدللها ويلاطفها ، وبعد أن كانت تنام فى المطبخ على حصير ، رق لها قلبه فصارت تنام فوق فرو جديد على أرض مخدعه أمام سريره ٠٠٠ ثم أقبلت الليلة التى عاد فيها من المقهى فوجد مسكنه غارقا فى الظلمات ، وعلم من زينب وهى تفتح له الباب أن التيار الكهربائى قد قطع عن الحى كله منذ قليل ، فأعطاها قرشا لتشترى شمعة ، وعندما عادت بها وأوقدها وسقط نورها على محيا زينب وصدرها رقصت دماء احمد فى عروقه ، فقد بدت له خادمه الصغيرة فى ذلك النور الخافت كأنها امرأة جديدة تولد من نور شمعة ٠٠ وتألقت بشرتها السمراء تحت ومضات النور كأنها النبيذ وراء البلور ٠٠ فتناولها بين يديه فجأة وقبلها ، وطمأنها لما بكت ومناها !٠٠** ومن ذلك اليوم صارت زينب



تنام مع احمد عبد البارى فى فراشه وتأكل من طعامه وتشرب من شرابه ، وتشغل منه ليله ونهاره ... كان كأنما صنعها بيديه وبث فيها من روحه .. وكشفت له زينب هذه الجاهلة النكرة فى كل يوم عن حسن جديد ، كأنما كانت ، وحدها ، امرأة لكل يوم ... وشهدتها عينه التى لم تشهد امرأة بالمعنى الكامل مليحة ملفوفة خـلابة ، وعندما ألبسها الحرير وضمخها وعطرها بفنه الشهوانى الاصيل ، تبدت له تحفة يهيم بهـا القلب ويعلق بها الخاطر . ونسى نساء الاحلام ، فلم تعـد أطيافهن تراوده فى يقظة أو فى منام ، ولم يعد يحدثنا عنهن متى لقينا ، وطالعنا منه فى مجالسنا رجل سعيد يتفجر من أعطافه المرح والرضا عن نفسه وعن الناس .

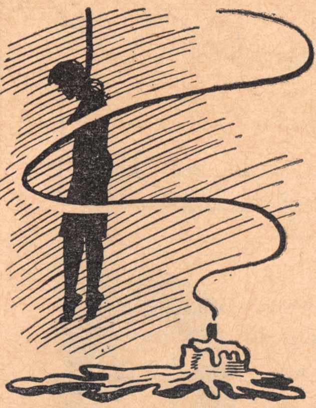
ويعلم الله وحده كيف كان عيشهما ، أما أنا فأعلم أنه لم يذق ـ خلال عامين ـ غير هذا الطعام .. زينب صـارت كل النساء ، وكفته خيرهن وشرهن .. صارت تحرم عليه النوافذ فلا يقربها ، وتسأله عن وقته فى الخارج كيف يقضيه .. وكانت عيشتهما ، مثل علاقتهما ، يخيم عليهما الصمت والهدوء .. حتى سمعت أن احمد عبد البارى قد خطب لنفسه ابنـة رئيسه !

انى لا أروى لكم قصة ذات حبكة يا أصـدقائى .. انى أتحدث عن زينب .. حياتها القصيرة العامية المفجعة ، لانى أجد فيها صورة لشىء ضخم .. ضخم جدا .. بل انى أحس

وأنا أرويها الخجل من انسانيتى .. .. أتلفها سيدها ثم راح يخطب بنت الباشكاتب ، ويحلم بالدرجة الخامسة !.. وكانت بلا دفاع .. وكانت تحبه ، وهـــذا وحده كان كل حياتها . وتساءلت عما هو صانع بها وقد جعل منها امرأة ذات قلب ورغبات .. ولو لقيته فى ذلك العهد لنصحته أن يجعل منها زوجته .. ولكنه لم يفعل ، بل أقبل عليها يوما فحدثها عن « عبد الستار افندى الباشكاتب » وأبلغها أنه دعاه الى تناول العشاء على مائدته فى احدى الليالى ، وقال لها انه ينتظر منها أن تعد للضيف الكريم خير ما جادت به مواهبها فى فن الطهى من ألوان الطعام ... وفى اليوم التالى قال لها ان الباشكاتب لن يحضر وحده ، اذ أن السيدة حرمه تعطفت وقبلت الدعوة... وبعد يوم آخر حدثها عن تواضع الباشكاتب ودماثة خلق حرمه وكيف قررا أن يحضرا معهما بناتهما الثلاث ليحضرن وليمة العشاء ...

وفى تلك الليلة كان الحديث حول مائدة احمد عبد البارى يدور فى مرح تقليدى متحفظ حول كبرى بنات الباشكاتب « فتكات » .. وكانت فى ثوبها الاخضر جالســة عن يمين احمد ، مطرقة فى خجل مصنوع ، ووالدتها وشقيقتاهـــا يحادثنها بنكاتهن وعبثهن .. ولكن احمـــد كان بادى القلق مستوفز الاعصاب .. وكان يحاول ، كلما أوشك الحديث أن يخرج من التلميح الى التصريح ، أن يغير مجراه .. وربمـــا صرف زينب المشرفة على الخدمة وقلبه يدق بين ضلوعه ، فقد كان الحيوان الامثل يحس أنه جالس على قمة بركان لا يدرى متى ينفث حممه !..

وقد قيل ان التيار الكهربائى انقطع فجأة كما ألف أن ينقطع عن مسكن احمد عبد البارى قبل أن يفرغ ضيوفه من تناول



الفاكهة ، فأسرع الى المطبـــخ ليجلب الشـــموع التى كانت هناك على الرف ..

وأشعل واحـــدة من تلك الشموع ونادى زينب فلم تجب نداءه .. ومرت بخاطره، كلمحة البرق ، ذكرى تلك الليلــة القديمة التى اكتشف فيهـــا أنوثة زينب وفتك بها فى ضوء شمعته ..

ونظر عرضا ليرى مكان زينب، فصدمه منظر لم يفهمه عنــدما وقع عليه بصره ، ثم أطلق صرخة مروعة رهيبة فاندفع اليه ضيوفه ، ليشهدوا زينب بنت سعفان المزارع معلقة من عنقها فى حبل متدل من سلم خشبى، وقد برزت عيناها وتدلى لسانها وفقدت حياتها التى عاشتها وغادرتها فى الظلمات ...

قصة تافهة .. ولكنى أحب أن أذكر زينب ، عندما تكون بى حاجة الى النور ...

حوافز الحياة



النفس والجنس .. والمجتمع ..

عزيزى القارىء ...

فى هذا الباب قدمت لك فى الاعداد الماضية من كتابى ، الكتب الاتية على التوالى : « كيف تصارح اولادك وبناتك بالحقائق الجنسية » ثم « طريق السعادة الزوجية » و « مركب النقص » و « حواء الجديدة » ثم « كيف تقهر الخجل » و«كيف تقهر القلق وتستمتع بالحياة » ..

ثم قدمت لك بعد ذلك من « فنون الحياة » التى شرحها المفكر العالمى «اندريه موروا » : فن الحب ، فن الزواج ، فن الحياة العائلية ، فن الصداقة ، فن العمل ، فن الزعامة ، فن السعادة ، فن التفكير ، واخيرا فن الاستمتاع بالشيخوخة ..

ثم قدمت لك عقب ذلك سلسلة فصول كتاب ((غزو السعادة)) لبرتراند رسل .. فكتاب فرويد المشهور ((التحليل النفسى)) ، يليه ((كيف تضاعف من نجاحك فى الحياة)) ، ثم ((الجنس الاخر)) ، و((عش حياة ايجابية)) ، و((ابواب الحب المغلقة)) ، و((فن الحب))، للشاعر الرومانى أوفيد .. ثم ((الانتصار على الخوف)) ، للاخصائى المعروف ((جيمس بندر))

واليوم اقدم لك فيما يلى هذا الكتاب العالمى فى ((العلاج الطبيعى)) للاخصائى الالمانى الدكتور ((برنارد ديتمار))


LIVE WISELY
LIVE WELL!
By
BERNHARD
DETMAR
(M.D PHD, Berlin)
دكتور
برنارد ديتمار
عِش بحكمة
تعِش سليما!

الطبيعة خير علاج

◆ رغم تقدم الطب ، والعلم ، والمدنية - على مر السنين - فما تزال الطبيعة ، وستظل ، العامل الاول فى شفاء الانسان من علله وأسقامه ، وحفظ صحته فى مواجهة كل عوامل الفناء ٠٠ ومن هنا رأيت ان أقدم لك أحدث كتاب فى ايضاح اساليب العلاج الطبيعى ، معززا فى الوقت نفسه نصيحة مؤلفه بوجوب استئناسك برأى طبيبك الخاص قبل اتباع ما جاء فيه ، لا سيما اذا كنت ضعيف البنية ٠٠

تقدمة

◆ **ظل** الانسان آلاف السنين يكافح فى شدة ودأب ضد قوى الطبيعة ، فى سبيل وجوده ٠٠ فلقد كانت الريح والعاصفة ، والحرارة والبرودة ، والماء والجفاف ، والثلج والجليد ، بل حتى الارض نفسها بما يكمن فيها من زلازل ونار ، مصادر خطر مستمر للحياة والصحة ٠٠ وكزملائه من الحيوان ، مضى الانسان يهيم على سطح الارض سعيا وراء قوته اليومى ، متسلحا بالدهاء والقوة الغاشمة ٠٠ كان بيته كهفا ، من صنع الطبيعة أو من حفر يديه ٠٠ وغذاؤه فجا نيئا - فما عرف اعداد الطعام الا بعد كشف النار ، وكان مضطرا الى أن يقنع بما تهبه الطبيعة

وقد كان أجدادنا يعيشون على الصيد ، ويعانون فى الوقت نفسه الخوف من أن يصادوا !٠٠ وكانوا فى فرارهم من مطارديهم يسعدون بأن يقتاتوا بالفواكه البرية والاعشاب ٠٠ ثم أخذت الوفرة والنقص فى الاغذية يتتابعان ٠٠ الوفرة فى فترات متناقصة ، والنقص فى فترات متزايدة ٠٠ حتى أصبحت فترات المجاعات مألوفة ٠٠ وحتى فى تلك الايام كانت الاوبئة تستشرى فتقضى على الناس ٠٠

وكان أجدادنا الاولون ، أولئك البدائيون الوحشيون ، معرضين لقوى الطبيعة دون ما حماية .. فكانت حياة الفرد منهم مكرسة لتوفير الحماية لأسرته ولنفسه . وكانت حواسه ومداركه مرهفة ، وعظامه وعضلاته قوية دائمة التدريب ، وذهنه يقظا ، فراح يسعى بالذكاء والدهاء لتوفير ما يحل محل ما أمسكته الطبيعة عنه .. وهكذا مضى يكافح فى سبيل سموه على ما عداه ، حتى غدا سيد المخلوقات . وظل الانسان الذى لم يذهب ضحية للاوبئة ، أو الجراح ، أو النكبات ، سليما لا عيب فيه .. فكانت الصحة هى الشرط الاساسى للحياة نفسها

ولا ندرى الى متى دامت هذه الحياة البرية ، غير المستقرة ، التى عاشها أجدادنا .. فان الجنس البشرى لم يدخل التاريخ الا يوم كف عن حياة التنقل والترحال .. وكانت الزراعة هى بداية الحضارة ، وقد ارتبط بها بناء الدور للسكنى، وللعمل، ولما هو أسمى من ذلك ، كالمعابد للآلهة .. ونمت الحضارة فاتخذت أشكالا مختلفة ، كالحرف اليدوية والتجارة . ثم ظهرت الفنون والعلوم ، وبدأت التربية تحتل مركزا رئيسيا فى الحضارة .. ثم غدت الحضارة والتربية والدين عناصر لا تنفصل ، تغلغلت جذورها فى الارض ، وراحت تكافح كى تشرئب وتسمو نحو السماء .. نحو الله .. وكان الناس أصحاء ، سعداء ..

نشأة الاسرة والبيت والمجتمع

◆ **وازداد** رقى الطباع، وتوفر أسباب الراحة ، فازداد الوقت الذى يمارس الانسان فيه حياة غير مضطربة ، بين أسرته ومجتمعه .. ومن ثم بسطت الحضارة أجنحتها .. **وما لبثت المدنية أن تسللت رويدا ، ولم تعد ثمة حاجة للقلق والتوجس من الطبيعة التى غدت ـ بوجه عام ـ غير ضارة : فقد توفر**

البيت الدافىء الذى يقى من الريح والبرد والعاصفة ، والذى يضم الغذاء الوفير ، والذى تحمى جدرانه من الحيوانات المفترسة أو العصابات السارقة .. أما العناصر التى كانت مبعث خوف ، والتى كان التحوط منها يضطر الانسان للبقاء قويا سليم الصحة ، فقد غدت موضوع بحوث علمية لتجريدها من أخطارها وأسرارها ، ودفعها لخدمة غايات الانسان الخاصة والمادية .. فتلاشى التواضع والاحترام اللذان كان الانسان يبديهما أمام أسرار الطبيعة وسموها ، وحلت محلهما رغبة فى الكشف عن هذه الاسرار جميعا ، ومعرفة كل شىء ، ومن ثم السيطرة على كل شىء .. فأمكن تحقيق اكتشافات ومخترعات مدهشة ، وذللت موارد الطاقة التى قلب استعمالها أسلوب معيشة الانسان من أساسه ، فأصبح لدينا الضوء والدفء .. وأصبحنا نسيطر على البخار والكهرباء .. وجعلنا المياه تخدمنا .. وصارت عندنا اليوم آلات تنتج لنا ما نرغب فيه كما لو كانت عبيدا لنا !

المدنية تضعف الصحة !

◆ **ولكنا** نسينا شيئا واحدا ، هو أن الطبيعة لم تمنح شيئا بدون مقابل .. فعلينا أن ندفع الثمن من دمنا ، وعرقنا ، وصحتنا ، وقوتنا . لقد تحدينا الطبيعة واستخدمنا العنف معها ، فردت علينا ردا واضحا : جعلتنا ننحط ونصاب بالامراض .. وسيطرت علينا المدنية المغالى فيها ، فدمرت الجزء الطفيف الذى بقى لنا من الصحة .. فهل لا يزال فى الامكان أن ننقذ أنفسنا ؟.. بلى ، اذا رغبنا مخلصين فى ذلك .. ولن يكون انقاذنا بترديد عبارة « العودة الى الطبيعة » — فلا يتصور سوى الحمقى اننا نستطيع أن نعود الى وحشية العصور البدائية ، فلقد سدت الطريق الى ذلك الى الابد ! — وانما نحن نعيش اليوم فى العالم الآلى الذى لا روح له ، وعلينا أن نرى كيف نتلاءم معه دون ما ضرر دائم يحيق بنا ..

أجل ، لا يزال ثمة سبيل الى حل المشكلة ، فبما تبقى لدينا من قوة ومن صحة مدخرة ، يجب أن نعالج الامور بحكمة ودراية ، وأن ننمى ونزيد مواردنا ، كى نستطيع أن نواجه أخطار الحياة ٠٠ ولنستمد من الحضارة الوسائل لذلك ، ولنتقبل ما نوهب من مؤهلات طيبة ، ونتفادى الانحدار والانحطاط ٠٠ ومن الطبيعة ـ أيضا ـ يجب أن نستمد تلك القوى التى تساعدنا على حفظ صحتنا ، وأن نكون على حذر من القوى المدمرة ٠٠ لنتخذ خطانا بحكمة وتعقل وادراك ٠ وعلينا أن نتفادى التطرف ، ونؤدى كل يوم ما تدعو الحاجة الى أدائه ٠ ان كل شيء تأتينا به الحياة ينطوى على خير كما ينطوى على شر ، وعلينا وحدنا يتوقف اختيار أى الجانبين !

المرض نتيجة لاسلوب المعيشة الخاطىء !

◆ **وكل** شيء مما يصون الصحة، يستطيع أيضا أن يرد الصحة لاولئك المرضى فعلا ، فما المرض سوى تعبير عن اختلال التوازن فى نظامنا العضوى ووظائف أعضائنا ٠٠ وكل اختلال ينبعث من تغلب القوى السلبية والمدمرة على القوى الايجابية والانشائية ٠٠٠ والواقع اننا نملك فى أعماقنا كنزا حقيقيا من القوى الايجابية ـ التى نسميها طاقة أو نشاطا أو حيوية ـ وطالما حرصنا على أن لا نفعل ما يضعف هذا « الطبيب الداخلى » بعادات المعيشة الخاطئة ، فلن يقوى أى عدو خارجى على أن يمسنا بأذى !٠٠ فالمرض اذن نتيجة لنهج زائف ، غير طبيعى ، فى معيشتنا ٠٠ كذلك علينا أن نمحو الاخطاء التى كان آباؤنا يمارسونها فى عيشهم ، وهذا أعمق ما فى نظرية الوراثة : فالمرض لا يورث ، ولكننا نرث قوة مقاومة للمرض تكون قد أوهنت ٠٠ فاذا واصلنا أسلوب المعيشة الخاطىء الذى ورثناه ، فان القدر لا يلبث أن يقهرنا بالمرض ، طال الزمن أو قصر ٠٠ واذن فلا سبيل لمغالبة الداء ـ اذا عرفنا هذه الحقيقة ـ الا بالتخلى عن أسلوبنا الخاطىء فى

المعيشة ، وبانتهاج أسلوب جديد .. الاسلوب الصائب .. فكل داء هو مظهر لأزمة فى حيـــاة المرء ، وواجبنا ـ بمعونة الطبيب ـ أن نستبدل بالعادات التى تبنى الداء ، عادات تغالب الداء ، وتحفظ علينا دائما صحتنا الطيبة ..

العناصر الرئيسية للصحة الطبيعية

◆ اننا أبناء الارض، ونحن مرتبطون بها.. فالارض تغذينا، وخليق بنا أن نفحص بدقة ما اذا كنا قد أحسنا اســتخدام العطايا التى وهبتنا اياها ، أو التى اضطررنا لانتزاعها بجهدنا وعرقنا ؟.. ان الارض تتألف من التربة ، والماء ، والهواء .. وكل حياة على الارض أو فيها تدين بأصلها ووجودها للشمس، مبعث الضوء والدفء .. صحيح اننا أبناء الارض ، ولكنا أيضا من صنع الهواء والنور ، فكل منهما ضرورى لنــــا كالقوت اليومي .. وعلينا يتوقف ما اذا شئنا أن نفيد من هذه القوى بحكمة ، أو ما اذا كنا نمتهنها ونسىء استعمالها .. فمهمتنا هى أن ننمى هذه الكنوز الكامنة ، وأن نستخدمها فى سبيل صحتنا ..

والعلاج بالطبيعة قديم قدم عمر التلال .. ومع ذلك فان حقائقه تهوى مرارا وتكرارا فى طيات نســيان البشر .. فالناس ما فتئوا يعتقدون ـ ولا يزالون يعتقدون ـ انهم أمهر من الطبيعة، أمهم ، وهم لذلك قد أقصوا ـ ولايزالون يقصون ـ عن جنة السعادة ، والصحة السليمة .. لان الصحة المطلقـة هى وحدها التى تمثل السعادة .. ولم يتأت عن مسلك أكثرية الناس حتى اليوم ، سوى التعاسة والمرض .. فالى متى نظل ندور هائمين حول الهوة الخطرة ، متخبطين فى الظلام ؟.. فلنعد ، أخيرا ، الى المنابع الخالدة لصحتنا وقوانا !.. ولنذكر انه الى جانب الهواء والنور والشمس والماء ، فان ضبط التوازن والتناسب بين الراحة والحركة ، يعد عنصرا رئيسيا فى حالتنا الصحية ..

الفصـــل الاول

الهواء، والضوء، والشمس

« لا مجال للطبيب ، حيثما يدخل الهواء وضوء الشمس »

◆ **كتب** بنجامين فرانكلين ـ الذى كان فى مقدمة طلائع المجاهدين فى سبيل استقلال أمريكا ـ الى صديقه الدكتور دوبورج فى سنة ١٧٥٠ يقول : « **وجـــدت الأنسب لجسمى ان استحم بعناصر اخرى غير الماء البارد ، واعنى بذلك : الهواء الطلق ٠٠ لذلك أستيقظ فى كل صباح فأجلس فى غرفتى أقرأ أو أكتب وأنا عار تماما ، لنصف ساعة أو ساعة ـ تبعا للفصل ـ اذ لا بأس بحمام الهواء اطلاقا ٠٠ وما وجدت آثارا سيئة لهذه العادة ، بل صدقنى اذا قلت انها ليست فقـــط غير ضارة بصحتى ، بل انها على العكس تساهم فى صونها !** »

ولقد كانت حمامات الهواء والشـــمس معروفة لدى قدماء الاغريق والرومان ، ثم قل ذكرها فى العصور الوسطى ، لكن بعض الالمان والفرنسيين عادوا فيما بين سنتى ١٧٥٠ و١٨٥٠ ينصحون بها كعلاج لقرحة الســـاق ، ولين العظام ، وداء المفاصل ، وسل العظام والمفاصل ٠٠ وما لبث ضوء الشمس والهواء أن أصبحا منذ سنة ١٩٠٠ علاجا هاما للسل الرئوى فى بعض مراكز الاستشفاء مثل « انجادين » ٠٠ كمـــا بدأ الدكتور « روليبه » وقتئذ ذلك النظام الموفق الذى وضـــعه لاستغلال الهواء ـ والشمس بوجه خاص ـ فى علاج سل الغدد والعظام والمفاصل فى « ليبسن » ، بالقرب من « مونترو »٠٠ وسرعان ما أصبحت سويسرا بلدا مثاليا رائعا للمصحات التى تتبع وسائل العلاج الطبيعى

الحمامات الهوائية

◆ **ولا يعنينى** أن أصف النظام المتبع فى المصحات ، فأهم من ذلك أن اطلع أولئك الراغبين فى حفظ صحتهم وعافيتهم ، على كيفية القيام بحمام الهواء فى البيت ، دون تبديد لا مبرر له فى الوقت أو المال ..

يبدأ الانسان حمام الهواء بتهوية غرفة النوم ، فلا بد من أن تبقى نوافذها مفتوحة ـ على مصراعيها أو جزئيا ـ حتى فى الليل ، اللهم الا فى فترات اشتداد البرد .. وعندما يستيقظ المرء ، عليه أن يتمطى بضع مرات فى فراشه ، حتى يشعر بأن كل عضو فى جسمه قد أخذ حظه من الحركة .. ثم يطرح عنه الغطاء ويقف فيخلع عنه ثوب النوم ، ويخطو الى النافذة عاريا ، حيث يستنشق الهواء مرارا فى عمق ، ويرسله أيضا فى زفير عميق .. ويعود الى داخل الحجرة فيمضى يتحرك فى أرجائها ويدلك ساقيه وذراعيه وصدره وبطنه وظهره بيديه أو بمنشفة ، فى حركات متعاقبة ، أو فى صفعات خفيفة .. وهو ماض فى الشهيق والزفير لأنهما رياضة الرئتين .. وخير طريقة هى أن يقرن المرء حمام الهواء ببرنامج للتدريبات الرياضية يختاره كما يحلو له ويلائمه ، بحيث يكون فيه تمرين كاف للعضلات والمجموعات العضلية على التوالى ..

وليس معنى ذلك أن يجهد نفسه فى تدريبات لكل الاعضاء والعضلات فى صباح واحد ، بل يمكن تقسيم ذلك على أيام الاسبوع ، ان لم نقل على أسابيع . ولا بد من فترات للراحة ، فان الراحة ذات أهمية كبرى . كذلك ينبغى للانسان أن لا يدع نفسه فريسة لرعشة البرد ، بل يجب أن يظل دافئا ، فاذا أحس بقشعريرة وجب عليه أن يكف عن التدريبات وأن يندس فى فراشه ..

ويجب أن لا يستغرق الحمام الهوائى الاول أكثر من دقائق،

على أن يطول الزمن شيئا فشيئا ، حتى يمتد الى خمس عشرة دقيقة ، وفى هذا الكفاية ٠٠ فاذا شعر فيما بعد أنه لا يقوى على الاحتمال طيلة هذه الفترة ، فلينقصها ٠٠ اذ أن المهم هو تعريض الجسم وهو عار للهواء ، بعد الفراش الدافىء ٠٠ وعندما ينتهى الحمام الهوائى ، فللمرء أن يعود الى فراشه ، أو يرتدى ملابسه ويقوم بنزهة قصيرة على القدمين ، أو ببعض الاعمال البدنية ٠٠ ويستطيع اذا ما اعتاد حمام الهواء أن يجلس الى مكتبه عاريا ، أو فى غلالة رقيقة ، ليؤدى بعض أعماله ، على أن يكيف الوقت الذى يقضيه هكذا وفقا لحرارة الجو أو برودته ٠٠ واذا كانت لداره حديقة ، فيجمل به فى الصيف أن يقوم ببعض أعمال الفلاحة عاريا ـ أقصد بالسروال « البنطلون » فقط ـ ومن الطبيعى أن حمام الهواء خارج الجدران أفضل منه فى غرفة النوم ، لمن استطاع اليه سبيلا ٠٠

استشر طبيبا ان كنت ضعيف البنية

◆ **واذا** كان الحمام الهوائى الكامل متعذرا، ففى وسع المرء أن يقنع بحمام جزئى ، كأن يسير وساقاه عاريتان ، منتعلا نعلين خفيفين ـ صندلا ـ أو حافيا ٠٠ فالمشى على هذه الصورة علاج رائع ، يقضى على برودة القدمين وعرقهما وكل ما يخل بالدورة الدموية ٠ والشخص الذى يسير فى اليوم الحار وهو مرتد جوربيه ونعليه ، لا يلبث أن يتعرض للاصابة بالبرد ، من جراء تفصد العرق من قدميه ٠٠ كذلك يجب أن تترك الذراعان عاريتين معرضتين للهواء ٠ ويحسن فى الصيف التريض مشيا ، فى سروال قصير « شورت » ٠٠ كما يخلق بالمرء فى داره أن يعرض ما استطاع من أعضاء جسمه للهواء

على أنه ينبغى للمبتدىء الذى لا عهد له بحمامات الهواء ، والذى لا يطمئن الى حال صحته ، أن يستشير طبيبا فى

البداية ـ اذ لا بد من أن يتمشى الحمام الهـوائى مع الحالة الصحية ـ ولقد كان بنجامين فرانكلين ضعيف البنية ، كما يفهم من اشارته الى عدم احتماله الماء البارد ، ومن ثم فالامر يتوقف على وجهة نظر الانسان الى قدرته ومدى احتماله ٠٠ وما يصلح لامرىء ، لا يتحتم أن يصلح لآخر ٠٠

ولا تقتصر أهمية الحمام الهوائى على قضـائه على المرض وحده ، بل انه يقوى الجسم الى درجة كبيرة ، أو بمعنى آخر، يهيىء المرء ليتلاءم مع المحيط الذى يعيش فيه ، فيقل ميله الى المرض ٠٠ فهو والحال هذه ذو أثر وقائى ٠٠ ومن ثم كان من الضرورى للمرء أن يتخير ثيابه بحيث تسمح للهواء بأن يتخللها ويصل الى الجسم ، اذ يجب أن تتاح للهواء منافذ الى الجسم ، وأن تتاح للعرق منافذ الى الخارج ٠ لذلك يحسن أن تكون السراويل الداخلية قصيرة وفضفاضة ، وأن تتخذ من التيل أو الصوف أو القطن ٠٠ وأن تكون الجوارب قصيرة وبدون حمالات تحيط بالعضلات ٠٠ وأن يبقى الجزء العلوى من الساق ـ أى ما حول الركبة ـ والجزء السفلى من الفخذ عاريين ٠٠ وخير وقاية من البرد أن تكون الثياب العليا سميكة بعض الشىء ـ ومن الطبيعى أن تكون الثياب ثقيلة فى الشتاء عنها فى الصيف ـ وكذلك الحال بالنسبة للقـــدمين ، فان البرد الذى يصيبهما قد يضر بالجسم ـ لا سيما منطقـــة البطن ـ ضررا ربما استمر طول العمر ٠٠ على أن ذلك ينبغى أن لا يمنع التخفف من النعال الثقيلة ـ كالشباشب الصوف ـ فى داخل المنزل فى الشتاء ، ليتاح للقدمين أن تحصلا على تهوية كافية ٠٠

الجسم ينبغى أن يألف تقلب الطقس

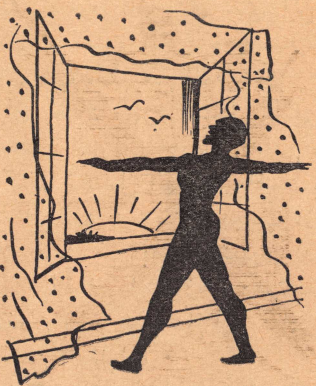
◆ **وخير** وقت للمبتدئين فى الحمامات الهوائية، هو الشهور التى تمتاز باعتدال الجو ، على أن تكون فترات الحمام قصيرة،

ثم تمتد تدريجيا ٠٠ فلا يلبث الشعور الغريزى لدى المرء بالصحة أن يعود اليه ، وذلك لان استعادة الغريزة الصحية - فى حد ذاتها - مهمة وهدف للاسلوب الطبيعى للمعيشة ٠٠ وحمامات الهواء تساعد المرء على أن يعتاد الهواء الطلق النقى ٠٠ والواقع أننا يجب أن نتعود احتمال الهواء الحار، والدافىء، والبارد على السواء ٠٠ وأن نتعلم كيف نحتمل الهواء العاصف، احتمالنا للهواء الجاف ، أو الهواء الرطب ٠ ومن العجيب أن الجسد يكيف نفسه بسرعة ، فلا يلبث فى بضعة شهور أن يألف تحمل تقلبات الجو ويستشعر لذة فى اجتيازها ٠ ولابد للانسان فى سبيل الغاية من أن يتذرع بالعزيمة، على أن يتفادى المغالاة ، ويتجنب الحالات المتطرفة من التقلبات ٠٠

نعم ، يجب أن نتعلم كيف نعود الى مواجهة الريح والزوابع ٠٠ وان المشى على القدمين ساعة على الاقل - فى كل يوم ، وفى أى الاحوال الجوية - رياضة تقوى فى الوقت ذاته أعضاءنا وعضلاتنا ٠ ومثل هذا المشى لا ينبغى أن يكون متراخيا ، ولا سريعا فى عصبية ، وانما يجب أن نراعى فى سيرنا بغرض الرياضة أن نتيح لكل عضلة فى جسمنا أن تتحرك وتعمل ، فيبعث المشى فينا دفئا وراحة ٠٠ ولنحرص خلال ذلك على التنفس فى عمق ، شهيقا وزفيرا ٠٠ وأن نمضى فى رياضتنا صيفا وشتاء ، فما ينبغى أن يصدنا الشتاء ، وغاية ما فى الامر أن نكتفى اذا ما اشتدت وطأة الجو بأن نمارس حمام الهواء فى غرفة النوم ، بدلا من الخارج ٠٠

حمامات الهواء تقوى مقاومة الجسم

◆ **وأذكر** أنه جاءنى مرة مريض، فى الاربعين من عمره، يشكو من أنه يصاب بالبرد فى كافة فصول السنة ، وان أتفه تيار هوائى يورثه زكاما ، وانه عند تقلبات الفصول يكون فى أسوأ الحالات ٠٠ ووجدته ضئيل الجسم ، نحيلا ، ضعيفا ٠٠ وكان



يكره الاستحمام بالماء الساخن أو البارد، ويكتفى بالماء الدافىء ٠٠ فحرمت عليه الاستحمام بالماء الدافىء، وأمرته بأن يكتفى بأن يحك جسده ـ مرتين فى الاسبوع ـ بفرشاة أو ليفة أو اسفنجة جافة ، حتى تحمر البشرة ويسرى الدفء فى الجسم ٠٠ كما نصحته بممارسة حمامات الهواء فى غرفة النوم ، مكتفيا فى البداية بتعرية الجزء العلوى من جسمه ، على أن يصل الى العرى التام تدريجيا ، وأن يقرن ذلك بتنفس عميق ، وتمرينات رياضية خفيفة ٠٠

وبدأ فى تنفيذ هذا البرنامج فى شهر يونيو، فلم يصب بالزكام حتى الخريف ، وعندما أصيب به بعد ذلك تغلب عليه بسهولة ، ولم يكف عن حمامات الهواء ، فشعر بتحسن فى صحته ٠٠ ثم واصل الحمامات فى الشتاء ، فلم يواته الزكام الا مرة أخرى فى الربيع ، انقضت بسرعة ٠٠ ولم يعد يصاب بصداع ، وأصبح يحظى بنوم مريح ، عميق ٠٠ ويحسن أن نذكر أنه ابتداء من شهر يوليو أصبح يمارس حماما هوائيا فى الليل أيضا ، قبل النوم ٠٠ وانه التزم الخضر فى غذائه ، وحرم البيض والدقيق الابيض

تشفى من الارق والصداع

◆ وتدل تجاربى على أن حمامات الهواء هى خير وسيلة لاعادة الصلة بين المريض والطبيعة فى حالات الضعف ٠ وهى عامل مقو فى حالات الاضطرابات العصبية بوجه خاص ، وفى حالات



الارق ، والصـداع العصبى ، واختـلال الدورة الدموية ، اذ تقوى القلب وتنشط دورة الدم وتجدد الخلايا ..

ولا يجب أن ننسى أن الجلد عضو كبير للتنفس وتجـدد الخلايا..كما أن أعضاء التنفس الاصلية تنشط بدورها نشاطا رائعا بحمامات الهـواء .. والمعروف أن التنفس فى الهواء البارد النقى يزداد عمقا وغزارة، ويبعث شعورا بالانشراح والنشاط ، ومن ثم فان أى زكام يصيب المجارى الهوائية ـ بما فى ذلك الانف ـ يجب أن يقـابل بالتعرض للهواء النقى بأسرع ما يمكن ، نهارا وليلا .. ولا ينبغى الاكتفاء بفتح نوافذ غرفة النوم ، ان أمكن .. بل ان الطبيب الالمانى الدكتور « أوجست هيبزلر » ـ فى كتـابه « طبيب ريفى وعلاج طبيعى » ـ يذكر انه أحرز نتائج طيبـة بالنوم فى العراء ، على شريطة توفير الدفء للجسم فى رقاده، وتغطيته بما يكفل هـذا الدفء ، اذ يجب أن لا يشعر بالبرد لحظة واحدة .. وفى هذه الحال يشفى المريض بفضـل المجارى التنفسـية التى تطهر باستمرار بالهـواء النقى ، الطلق ..

الحمامات الشمسية

◆ **لحمامات** الشمس مفعول مقو فذ ، اذ أنها تزيد الى حد كبير من المنشطات التى تبعثها حمامات الهواء . والواقع أننا

لا ندرى حتى الآن تفصيلات ما يجرى بالدقة داخل الجسم اذا ما تعرض لاشعة الشمس ، ولكننا نعرف بالتأكيد أن الشمس المشرقة تحدث ثورة حقيقية فى الانسجة ، اذ توقظ قوى نائمة ، فتثير اجراءات دفاعية ووقائية داخل الجسم ، وتعزز قوة المقاومة فى الجلد ، فتساعده على التنفس وعلى تجديد الانسجة ، ومن ثم توقظ قوى جديدة فينا ··

فالشمس عامل من عوامل الشفاء ، ولكنه عامل ذو خطر مع ذلك ، ومن ثم فهو يتطلب الاحتراس الشديد ، لانه الى جانب الضرر الذى يحدثه من جراء احتراق البشرة، فانه يؤدى الى كثير من الاضطرابات الاخرى مثل الغثيان ، ولغط القلب ، والارتعاش ، والحمى ، والصداع ·· ولهذا يجب تغطية الرأس والقفا ـ مهما كبدنا ذلك ـ اذا شئنا أن نمارس الحمام الشمسى ··

تعاقب حمامات الشمس والهواء

◆ **والعلاج بالشمس قديم قدم الانسانية ذاتها، ولكنه توارى فى ثنايا النسيان خلال العصور الوسطى ·· وكان « أرنولد ريكلى » السويسرى أول من دعا الى العلاج بالهواء والشمس فى العصر الحديث ، اذ أقام أول مصحة لذلك فى سنة ١٨٥٥، وكان يسكن مرضاه فى « أكواخ للهواء » ذات تكييف خاص ، ويجبرهم على أن يعيشوا حفاة الاقدام ، ويعلق أهمية كبرى على ما للدفء من قوة شفائية ، حتى لقد كان يعمد الى احداث الحمى ـ اصطناعيا ـ بوساطة الحرارة ·· كما كان يؤكد أهمية تعاقب الحرارة والبرودة كمنشط للجسد ، ويقيس ذلك على ما لتنوع الجو من آثار فى قانون الطبيعة ·· ومن ثم كان يستعمل حمامات الهواء البارد وحمامات الشمس على التعاقب** ·· فكان يحمل المريض على ممارسة حمام الهواء ، على أن يدفىء نفسه خلال ذلك ببعض التدريبات الرياضية ، ثم

يمارس الحمام الشمسى ، حتى اذا فرغ منه ، استحم بماء ساخن حتى يتفصد العرق من جسمه ، وعندئذ كان يلفه فى « بطانية » ثم ينقله الى الشـــمس ، ويحمله على أداء بعض التدريبات الرياضية تحت أشعتها ..

« جدول » الحمامات الشمسية

◆ **ولقد** أصبحت الحمامات الشمسية شائعة فى أيامنا هذه، وأصبح كل امرىء يسعى الى أن تلوح الشمس بشرته باللون الاسمر .. وهو لجهله يعرض نفسه للشمس ســاعات طوالا .. وهذا خطأ لا يسكت عنه الطبيب ، اذ أن حمامات الشمس تتطلب من الحذر ضعف ما تتطلبه حمامات الهواء فى بدايتها .. فلا يجب الاقبال عليها دون استشارة طبيب . وأولئـك الذين لم يألفوا الحياة فى الشمس يجب أن يكتسبوا فى البداية استعدادا لها ، عن طريق حمامات الهواء .. فاذا استكمــل الشخص هذا الاستعداد ، وجب أن يبدأ بحمامات شـــمسية جزئية ، بأن يعرض قدميه وساقيه وركبتيه لاشعة الشمس، مع مراعاة أن تكون جميعا متساوية فى تعرضها للاشعة ، وذلك بتعريض سطحها الخارجى لخمس دقائق ، ثم يعرض السطح الداخلى خمس دقائق أخرى ، ثم يعرض كل من الجانبين الايمن والايسر لخمس دقائق أيضا .. مع العنـــاية بتعريض باطن القدمين تعريضا كاملا للشمس .. وهكذا يســـتغرق الحمام الاول عشرين دقيقة ، يمكن تخفيضها فى بعض الحالات ، كما يمكن زيادتها عند توفر الاحتمال ..

وتزداد الدقائق الخمس ـ التى يستغرقهـــا تعريض كل سطح للشمس ـ بمعدل دقيقة فى كل يوم ، حتى تصل الى عشر دقائق ، أى أربعين دقيقة للحمام كله ، واذ ذاك ، تمتد التعرية الى الفخذين والبطن ، على أن يبدأ بتعريضهـا لخمس دقائق تزاد يوميا دقيقة واحدة ، كما جرى فى العملية السابقة

٠٠ ثم يترك الجزء السفلى ليستريح ، ويشرع فى تعريض الجزء العلوى للشمس ، على أن تغطى الرأس ومؤخر العنق ، ويبدأ بتعريض الذراعين والكتفين ، ثم تمتد التعرية بعد خمسة أيام لتشمل كل الجزء العلوى حتى الردفين ، بالتدريج ٠٠

وبهذه الطريقة يعتاد الجسم كله حمامات الشمس فى ثلاثة أسابيع ٠٠ ثم يستريح المريض خمسة أيام ، على أن يواصل حمامات الهواء فى الظل والشمس على التعاقب ٠٠ ويعقب ذلك تعريض الجسم كله للشمس ، مبتدئا بالظهر ، ثم البطن ، فالجانب الايمن ، ثم الجانب الايسر ، بحيث يستغرق تعريض كل منها خمس دقائق فقط ، تزاد يوميا بمعدل دقيقة ، بحيث يبلغ أمد الحمام بعد عشرة أيام ستين دقيقة كاملة للجسم بأسره ٠٠ ولا يجب أن تتجاوز مدة الحمام ستين دقيقة ، ولكن يمكن للمريض أن يمارس حمامات الشمس ـ لمدة ساعة ـ عشرة أيام متوالية ، ثم ينقطع عنها بعد ذلك ٠٠ أما حمامات الشمس والعرق ـ التى كان يمارسها « ريكلى » ـ فلا أنصح بها ، على ضوء تجاربى ٠٠ وان كنت أحبذ أن يعرق الانسان ـ مرة فى اليوم ـ لا نتيجة الشمس ، وانما نتيجة التدريبات البدنية ، وبعض الاعمال العضلية فى الهواء الطلق : كقطع الاخشاب ، وفلاحة البساتين ، والعمل فى الحقول ٠٠ أما المرضى الضعفاء ، فيمكنهم اجتلاب العرق بالحمامات الساخنة

لا بد من استشارة الطبيب ٠٠

◆ **والواقع** انه كلما كانت حال المريض سيئة ، كان ذلك أدعى الى تنشيط قواه الدفاعية بعنف أكثر ٠٠ والشمس من المحفزات القوية ، وتركيب جسد المريض هو الذى يحدد مدى وكمية العلاج ٠ ففي حالة ذى البنية القوية ، يمكن التقدم بخطي أسرع وآماد أطول مما في حالة ذي البنية الضعيفة ٠٠

ولا يتجلى النجاح الرائع للعلاج بالشمس الا اذا كان يمارس بدقة تحت اشراف طبيب ، خبير ٠٠ والطريقة التى شرحناها ليست سوى طريقة وسطى يمكن لاى امرىء أن يمارسها دون ضرر ٠٠ بيد أن هناك أمراضا تتطلب علاجا أشـد ، فما أن يتعود الجسد التعـرض بأكمله لاشعة الشمس ، حتى يؤخذ فى اطالة أمد هذا التعرض ، ببطء ، الى أن يبلغ عدة ساعات فى اليوم ٠٠ ويجب أن يكون العلاج فى الصيف أقصر أمدا منه فى الشتاء ٠٠

ومن المعروف أن طيف الشمس يتألف من ألوان منها مالا يتضح لعين البشر ، وأهم ما يعنينا من هذه الالوان اللون فوق البنفسجى ، واللون تحت الاحمـر ٠٠ **وقد أصبحت أشعـة هذين اللونين تصطنع اصطناعا ، للعـلاج ، ولكن الاشعـة المصطنعة لا يمكن أن تعادل الطبيعية ٠٠ على أننا نحذر القارىء من الحمام الشمسى فى حجرة مغلقة ، لان النـوافذ تمتص الاغلبية العظمى للاشعة ذات المفعول الشافى ٠٠ ومن ثم يجب أن لا تمارس الحمامات الشمسية الا فى الهواء الطلق ، وبمعنى آخر يجب أن تقترن الحمـامات الشمسية بالهوائية ، فان أشعة الشمس كالهواء الطلق ذات مفعول كبير للسليم والمريض على السواء ٠٠**

الشمس قد تكون أقوى مفعولا من العقاقير

◆ **ولنذكر** دائما أن القول بأن الامراض المعينة تحتاج الى علاج معين ليس سوى مجرد زعم ، فكل العوامل العلاجية الحقيقية تهدف الى التأثير على الجسم لتعزيز طاقته الدفاعية بطريقة تمكنه من مغالبة ما نسميه المرض ٠٠ وهذا ينطبق على الشمس التى تتخذ من البشرة مجالا لعملها ٠ فالمعروف أن ثمة أوعية دموية دقيقة تنتشر فى الجلد ، كما ينتشر فيه ما لا حصر له من أطراف الاعصاب ٠ وعن طريق هذه وتلك ، ينتقل الاثر

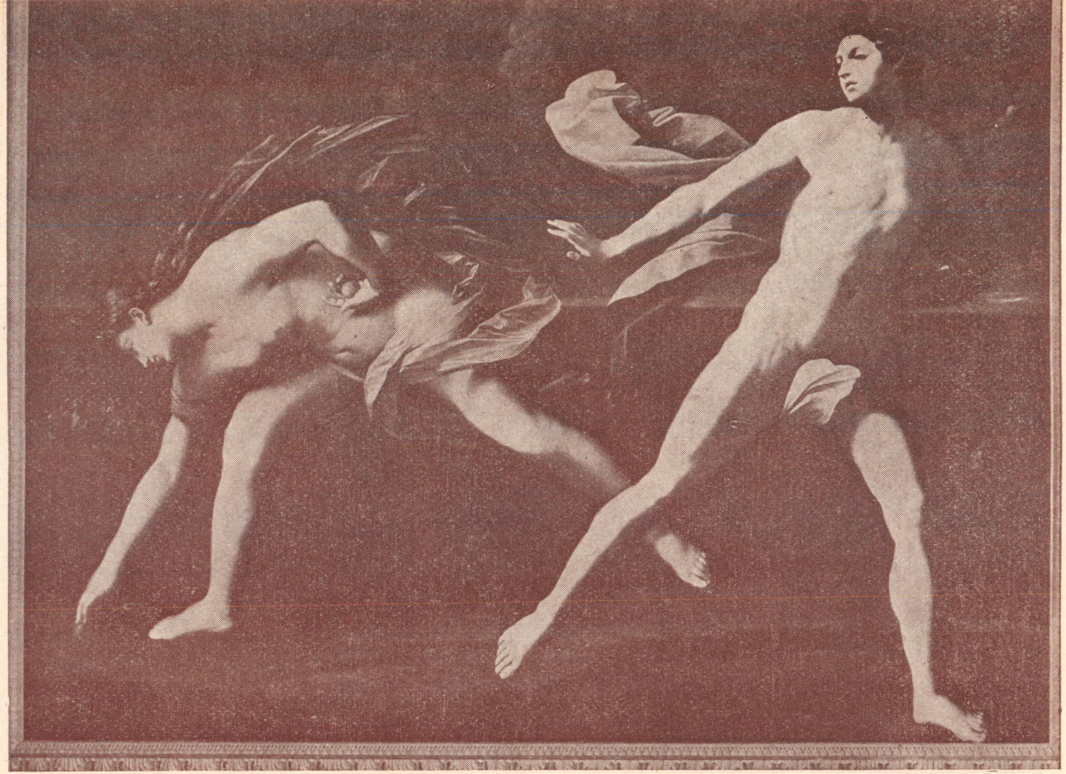
المنشط لاشعة الشمس الى مركز الجهاز العصبى ، ثم يرسل منه الى كل عضو فى الجسد ، أى أن كل عضو يحظى بتحسن فى انتظام الدورة الدموية ، وبازدياد فى نشاط تجدد خلاياه .. ومن ثم تتجدد قوى الانسان ونشاطه ويزداد نقاء دمه ، فتعظم طاقته الدفاعية ..

على أن هذا لا يمنع من الاعتراف بأن ثمة أمراضا يكفى فيها أن يقتصر الحمام الشمسى على العضو المريض ، اذ أن الاثارة ـ أو الحفز والتنشيط المحلى للجزء المريض ـ تكفى فى هذه الحالة لتحريك قوى الشفاء الكامنة فى النفس بدرجة كافية لابراء هذه الحالات ..

وفى الوقت ذاته ، هناك أمراض دلت التجارب على أن حمامات الشمس ناجعة فى علاجها بوجه خاص ، كالامراض الجلدية ، وخاصة الاكزيما بكافة أنواعها .. اذ أن أشعة الشمس أقدر على علاجها من الادهنة والمعاجين والبلاسم التى لا جدوى منها .. وكذلك الحال بالنسبة للجروح التى تأبى أن تندمل ، كالقرحة الخبيثة ، والالتهاب الصديدى الناشىء عن جروح أو حروق ، والتهابات الانسجة الجلدية ، وسل الجلد بوجه خاص .. وقد أصبحت حمامات الشمس من وسائل العلاج ـ التى تلقى رواجا متزايدا ـ فى حالات السل ولين العظام ..

تعريض الجروح للشمس والهواء

◆ **وأذكر** أن جنديا فى العشرين من عمره جاءنى يوما يشكو من جرح فظيع نجم عن شظية قنبلة أصابت أعلا الردف الايمن .. وتبينت أن أنسجة خلايا الطبقة السفلى من الجلد، وأجزاء من الانسجة العصبية قد تلفت .. وأن الجرح كان يتسع وقد تقرحت أطرافه والتهبت الانسجة المحيطة بها .. وقد أخفقت أنواع العلاج التى جربها من قبل باستعمال



سباق على جائزة السباق بين « اتلانتا » و « ايبومين »

لوحة للفنان جيدو رينى بمتحف (نابولى) الاهلى



« الليل » للفنان (جيورجيو فاسارى)

عن لوحة بمتحف كولونا ، بروما

المعاجين والبلاسم - « المرهم » - والاربطة والضمادات ٠٠ فكان أول ما فعلت أن أمرت بنزع كل هذه الاربطة ، فيما عدا ضمادة توضع بالليل لتحـــول دون تلطخ الفراش بافرازات الجرح ٠٠ أما فى النهار ، فأصبح الجرح يترك معرضا للشمس والهواء ، على أن يوضع بجوار فراش المريض أو مقعده وعاء يتلقى افرازات الجرح ٠٠ وان هى الا بضعة أسابيع حتى اندمل الجرح ، تاركا ندبة بسيطة ٠٠

والواقع اننى لا أفهم مبررا للاستمرار فى أساليب العلاج بالضمادت على اختلاف أنواعها ، اذ لا يجب اللجوء اليها الا فى حالات الضرورة القصوى ٠٠ وكذلك أعجب لان النـــاس لا يزالون يؤمنون حتى اليـــوم بأن البلاسم - « المرهم » - تستطيع أن تشفى الجراح !٠٠ أفلم يخطر لهم أن عزل الجرح عن الهواء والضوء يمهد لتكوين بيئة صالحة لنمو البكتريا ؟٠٠ ان الضمادات بأنواعها تعمل ضد الطبيعـــة ٠٠ وهى كثيرا ما تؤخر الشفاء ، ان لم تفض الى أضرار جسيمة لا داعى لها

الشمس ضارة فى حالات الاضطرابات العصبية

◆ **ان** الهواء والضوء عنصران نعيش فيهما، وبهما، وليس من غنى لنا عنهما ، ومن ثم يجب أن لا نمنع الاتصال المباشر بينهما وبيننا ٠٠. بل ان من واجبنا أن نخرق ثغرات فى الحجب التى تفرضها المدنية الراقية بيننا وبينهما ٠٠ ويجمل بنـــا أن لا ننتظر حتى نقع صرعى الامراض ، بل خليق بنا أن نمنـــع الامراض بأن نتقيها مقدما ونعيش أصحاء ٠٠ فالضوء وأشعة الشمس يساعدان على نمو العظام والعضلات ، ويعملان على أن يتلقى الجسم حاجته من الكلسيوم والزلال ، ويقويان الانسجة، ويؤثران أثرا طيبا على القلب ودورة الدم وتجدد الخلايا ٠٠ ومن ثم فلا يجب أن يهمل الوالدان فى تعريض أبنائهما للشمس والهواء منذ أيامهم الاولى فى الحياة ٠

والمرضى العصبيون هم وحـدهم الذين يجب أن يلتزموا أقصى الحذر عند ممارسة العلاج بالشمس ، فيقنعوا فى البداية بحمامات الهواء ، حتى اذا ما تغلبوا على الاضطرابات العصبية بدرجة محسوسة ، كان لهم أن يمارسوا حمامات الشمس ٠٠ وحتى فى هذه الحالة يجب أن يحترسوا كل الاحتـراس فى المراحل الاولى ، وأن لا يزيدوا مدد التعرض لاشعة الشمس الا ببطء ٠٠

ولا ينبغى أن يكتفى المرء بتعريض نفسه للشمس والهواء ، بل أن الشىء ذاته ينطبق على بيتـه ، فالبيت الذى تدخله الشمس والهواء لا يدخله الطبيب ٠٠ كذلك يجب أن تعرض الابسطة والاقمشة والبياضات للهواء والشمس من آن لآخر ٠٠ واذا كانت الشمس لا تصل الى قطع الاثاث في أماكنها ، فيجب زحزحة الاثاث ليغمره ضوء النهار بين وقت وآخر ٠٠ كما يجب أن تترك الابواب والادراج مفتوحة فى أوقات متفاوتة ٠٠

الفصل الثانى

الحركة والاستجمام

◆ **من** الملاحظ اننا اذا قمنا بنزهـة عادية على الاقدام ، شعرنا بأن الجسم يتحرر ويخف ، ويدب فى أوصاله شعور لذيذ بالدفء ، ويزداد شهيقنا وزفيرنا عمقا وسرعة ٠٠ وكلما كان الهواء باردا ، كان شعورنا بالنشاط والانشراح أكبر ٠٠ ذلك لان الانسان من الحيوانات الثديية ذات الدم الدافىء ، فهو لا يعيش الا اذا توفرت داخل كيانه باستمرار درجة حرارة معينة ، تظل دائمة مهما كانت درجة حرارة الهواء ٠٠ ولـكى نحتفظ بدرجة الحـرارة هذه ، لابد للجسـد من أن يولد باستمرار الحرارة اللازمة ، وذلك بتحويل الغذاء الذى يصل الى المعدة ، وباستمداد الحرارة من خارج الجسد ، وهـذا

الاستمداد لا يتسنى الا بطريقة غير مباشرة ، عن طريق ادخار الحرارة اذا كان الجو باردا بارتداء الثياب المدفئة ، أو بتدفئة الحجرة التى نجلس بها ٠٠ اذ أن القسط الاكبر من الحرارة التى يولدها الجسد لا يلبث أن يتسرب الى خارجه عن طريق مسام الجلد ٠٠ **وكلما ازداد البرد حولنا ، كان اشعاع الحرارة من أجسادنا أكثر ، والعكس صحيــح ٠٠ فاذا كانت حرارة الجو المحيط بنا أعلى من حرارتنا ـ كما يحدث بعد حمــام شمسى كامل ، أو حمام مائى ساخن ـ لم يتسرب من حرارة أجسامنا شىء ، ومن ثم نتصبب عرقا ، اذ تعمد الحرارة المدخرة الفائضة فى أجسامنا الى تبخير العرق حتى لا يبقى ســوى المعدل اللازم من الحرارة فى داخل الجسم ٠٠**

دور الغذاء فى توليد الحرارة للجسم

◆ **وفى** الحقيقة ان الجسد يحاول توليد حرارته الخاصــة بتحويل الغذاء الى طاقة حرارية ، معتمدا فى عملية الاحتراق على الاوكسيجين الذى يمتصه من الهواء ٠٠ ومن الضرورى ـ والحال هذه ـ أن تظل عملية الاحتراق متوالية حتى تضمن للجسم الحرارة الكافية فى جميع الاوقات ٠٠ ومن الطــرق النافعة لهذا ، ممارسة التدريبات الرياضــية ، التى تحرك العضلات ٠٠ فنشاط العضلات ـ بمعنى آخر ـ يولد الحرارة، ولهذا تكون الرياضة بالمشى نوعا من توليد الحرارة للجسم ٠ وتنشط عملية تكييف الحرارة عن طريق الجلد ، فكلما كان الجو المحيط بنا حارا ، اشــتدت الدورة الدموية فى الجلد ، فازدادت بذلك الحرارة المتسربة من داخل الجسم الى الجلد ، ومن هذا الى الخارج ٠٠ وكلما كان الجو باردا ، ازداد انكماش الاوعية الدموية فى الجلد ، فقلت كمية الدم فى البشرة ، وقل اشعاع الحرارة الى الخارج ٠٠ ويكتمل انتظام عملية التوازن هذه اذا كان الجسد عاريا ، وفى ظروف طبيعية فطرية ٠٠

أما فى المجتمعات الراقية الحاضرة فيستعان على ذلك بالثياب ، نخففها اذا كان الجو حارا ، ونضاعفها اذا كان باردا .. وكذلك ندفىء البيت فى الشتاء ، ونستعين بالمراوح على تبريد جوه فى الصيف ..

المشى رياضة لازمة

◆ **وبجانب** ذلك ، نجد أن الرياضة تنشط الدورة الدموية بأسرها ، وتنشط بالتالى عملية تجديد الخلايا ..

ولا شك فى أن كثيرا من الامراض يرجع الى عدم التريض ، فان أى عضل سليم اذا ما أوقف عن العمل أسـابيع قلائل ، لا يلبث أن يذوى الى نصف حجمه الاصلى ، فتقل كفاءته بنفس النسبة ، على الاقل .. ومن ثم لو تصورنا انسانا اضطر الى أن يرقد بلا حراك عدة أشهر ، نجد أنه لا يلبث أن ينتهى الى هلاك لا مفر منه ..

ولا جدال فى أن الحياة التى يحياها الانسـان فى العصر الحديث تجعله قليلا ما يتريض ، ومن ثم نجد الانسان الحديث أكثر تعرضا للامراض ، بغض النظر عن المؤثرات الضـارة الاخرى .. لذلك ، فليس لنا من غنى عن أن نتمشى فى الهواء الطلق ـ متريضين ـ لفترة تتراوح بين ساعة واثنتين ، اذا لم يكن فى وسعنا أن نمارس الالعاب الرياضـية .. ويجب أن نحرص على هذه العادة فى جميع الاحوال الجوية ، حتى فى الجو المطير .. فالسير للرياضة ، يتيح حماما هوائيا للبشرة وللرئتين .. كما يمكننا من الافادة من الشمس ـ فى فصول صحوها ـ على أن نحرص على تغطية الرأس والقفا .. ولنذكر أن رياضة المشى تحت المطر تزيد من قوة مقاومتنا الطبيعية ، بشرط أن نبادر الى التدفئة بعدها مبـاشرة .. وبشرط أن نضاعف من سرعتنا فى المشى تحت المطر ، وأن نجفف جسمنا جيدا بمجرد العودة الى البيت ..

الرياضة والعمل ..

◆ **على** أن خير أنواع الرياضة هو العمل البدنى النافع ، ففلاحة الحديقة مثلا تبعث الدفء فى الجسم ، وتهدىء من توتر الجهاز العصبى .. وخليق بكل من يستطيع ، أن يعمل فى حديقة داره ساعتين فى اليوم على الاقل ، فيجمع بهذا بين الرياضة والحمام الهوائى والحمام الشمسى ، على ما أوردنا فى الفصل الاول .. أى أنه يستحسن أن يؤدى العمل وهو عار ليس عليه من الثياب سوى سروال قصير ، وقبعة ذات حافة عريضة لتقى رأسه وقفاه من الشمس .. فلا يلبث بعد قليل ، أن يشعر بنشاط وابتهاج ، دليـــل انتظام الدورة الدموية ، وتحرك عضلات الجسد .. فاذا انتهى المرء من العمل ، كان عليه أن يبادر الى الاستحمام سريعا بالماء البارد ، أو أن يمارس ـ بعد قليل ـ حماما متوسط الحرارة ، عـلى أن لا يمكث فيه سوى عشر ثوان ـ لا أكثر ولا أقل ـ وأن يغسل صدره وظهره بالماء البارد ..

ومما يؤسف له أن كثيرين من أبناء عصرنا لا تتاح لهـم فرصة الجهد البدنى ، فيضطرون الى ممارسة بعض الالعاب الرياضية .. وفى هذه الحالة ، يكفى أداء بعض تمرينـــات « الجمباز » الحرة ، أى التى لا تستخدم فيها أدوات رياضية، على أن يكون ذلك فى الهواء الطلق ، أو أمام نافذة مفتوحة .. وأن تكون الحركات بسيطة ، وغير عنيفة ، ومنتظمـــة ، وأن تهدف الى تحريك كل العضلات ـ تدريجيا ـ فى خلال أسابيع .. **ولا أرانى فى حاجة الى أن أقول ان هذه التمرينات يجب أن تؤدى والجسم عار ، أو فى زى السباحة .. وخير الاوقات لذلك هو الصباح الباكر .. ولا ينبغى أن يقل الـــوقت الذى يخصص للتمرينـــات عن خمس دقائق ، ولا يزيد على خمس عشرة دقيقة .. مع مراعاة أن يلعب التنفس دورا رئيسيا فيها،**

اذ يجب أن يتنفس المرء فى عمق ، وأن يزفر فى عمق - من الانف ، لا الفم ، فى الحالين - ليطرد الكربون ويحل محله أكبر قدر ممكن من الاوكسيجين .. وينبغى أن يتسق التنفس مع حركة الجسم ، وهو ما يمكن اكتسابه بالمران .. بل اننى أنصح من أوتى صوتا حسنا ، بأن يغنى فى أثناء ذلك ، لان فى الغناء مرانا آخر لاعضاء التنفس ، لا سيما الرئتين ..

واليك بعض التمرينات المفيدة :

١ - **ارفع ذراعيك الى أعلا** ، وقف على أطراف أصابع قدميك واشدد جميع جسمك ، ثم استنشق الهواء بعمق .. واخفض ذراعيك ببطء شديد ، مطلقا جسمك من توتره وأنت تزفر فى بطء تام .. وكرر هذا التمرين ما بين عشر وعشرين مرة ..

٢ - **ارفع الساق اليمنى** ، ثم ابسطها الى الامام مع شد الركبة ، ومع أخذ شهيق عميق .. ثم اثن الساق وأعدها الى وضعها الاول ببطء مع الزفير .. وكرر الحركة للساق اليسرى ، ثم افعل الشىء نفسه باسطا كلا من الساقين - على التوالى - الى الجانب والى الخلف - وكرر التمرين كله ما بين عشر وعشرين مرة .. وكذلك الحال مع الذراعين بعد ذلك

٣ - **ارفع الذراعين مع الشهيق** ، ثم احن الجذع الى الامام ثم الى أسفل مع الزفير ، ومع ابقاء الركبتين مشدودتين ، واجتهد أن تلمس أصابع قدميك بأصابع يديك.. كرر التمرين ما بين عشر وعشرين مرة

٤ - **استلق على ظهرك** ، وابسط ذراعيك الى الخلف بحيث يوازيان جانبى رأسك ، وتنفس - شهيقا وزفيرا - بقوة ، ثم انهض ، وارخ عضلاتك قليلا ، وسر فى الغرفة وأنت تمسح وتدلك الجذع والاطراف .. ولا تنس أن تحتفظ بالدفء طيلة الوقت ..

ويستطيع الانسان بعد تمرينات الصباح أن يأوى الى فراشه

ويحظى بالدفء بعض الوقت ، أو أن يرتدى ثيابه وينصرف الى عمله ٠٠

وهناك أمراض يحتاج علاجها الى الرياضة ، على أن هذه ينبغى أن لا تمارس لهذا الغرض الا بمشورة أخصائى ٠٠ ومن هذه الامراض ، تقوس العمود الفقرى ٠٠ كما أن من الامراض التى تقضى عليها الرياضة : ضعف البنية ، واضطراب الهضم وضعف العضلات وأوعية المعدة ، بشرط أن يقرر ذلك طبيب ، **على أنه من الممكن القول دون تثريب بأن الالعـاب الرياضية اذا كانت تؤدى على الوجه الصحيح ، تفيد السليم والعليل على السواء ٠٠ كذلك يجب تجنب الافراط والمغـالاة ، فمن الخطأ أن يقدم الشخص المرهق الاعصاب ، المنهـوك القوى ، على قضاء يوم عطلته الاسبوعية فى رياضة عنيفة كالانزلاق على الجليد أو تسلق الجبـال ٠٠ بل الافضل له أن يقضى يومه مستريحا فى السرير ، على أن يتمشى لمدة ساعة أو اثنتين ٠٠**

وهناك أيضا التدليك ، وان كان فى وسع العاملين عـلى استعادة صحتهم بالطرق التى ذكرتها أن يستغنوا عنه ، فهو قد ابتكر من البداية للضعفاء والمصـابين بأمراض خطيرة ، والذين يعانون اضطراب الاعصاب ، أو توتر العضلات ٠٠ ومع أن أثره يبدو مقتصرا على العضلات، الا أنه لو أدى أداء صحيحا، لكان ذا أهمية كبيرة للهيكل العظمى للجسم ، وللمفاصـل ، وللاعضاء الداخلية ٠٠

ولقد أصبح للتدليك أهمية فى العلاج الطبيعى ، كنوع من التدريبات السلبية للعضلات ٠٠ ولكن له ضرره الذى يتمثل فى القعود بالمريض عن استخدام قواه الخاصة فى اســـتعادة صحته ٠٠

(اقرأ القسم الثانى من الكتاب فى « كتابى » القادم)

الحياة
قصة



روائع
القصص
العالمى

عزيزى القارىء ...

قرأت معى فى الاعداد الماضية قصص :

- اموك : لستيفان زفايج
- مرتفعات وذرنج : اميلى برونتى
- قلب عذراء : جون جالزورثى
- التلميذ : بول بورجيه
- احدب نوتردام : فيكتور هوجو
- جريمة حب : بول بورجيه
- جين اير : شارلوت برونتى
- أيام بومباى الاخيرة : ليتون
- مانون ليسكو : الاب بريفو
- حديقة الله : روبرت هتشنز
- عندما تحقد المرأة : أونيه
- آسيا : ايفان تورجنيف
- كاس تمبرلين : سنكلير لويس
- الشيطان على الارض : رسل
- رسالة من مجهولة : زفايج
- تاييس : اناتول فرانس
- بلاد العميان : ه.ج. ويلز
- نادى الانتحار : ستيفنسون
- كوخ العم توم : ستو
- البوهيمية : هنرى موجيه
- فتاة لها ماض : بورجيه
- شيرى : كوليت
- الجريمة والعقاب : دستويفسكى

واليوم أقدم لك هذه القصة الرائعة للاديب الروسى الخالد « تولستوى »



ليو تولستوى

لحن "كرويتزر"

هذه القصة الشامخة ..

◆ القصة التى اقدمها لك فيما يلى ، تكاد تنفـرد بين قصص تولستوى بظاهرتين : الاولى انها تتوسط بين الرواية الطويلة والقصة القصيرة ، فهى بمثابة « رواية طويلة » قصيرة ، أو « قصة قصيرة » طويلة !

أما الظاهرة الثانية ، والأهم ، فهى ان القصة صرخة جبارة فى وجه الرجعية الاجتماعية والتقاليد البالية التى كان ينوء بها كاهل المجتمع الروسى فى القرن الماضى ، كما ينوء بها المجتمع الشرقى حتى الآن .. بل انها صرخة قوية فى وجه « انانية » الرجل ، التى تملى عليه ان يمنح نفسه من الحقوق ما يبخل به على شريكة حياته ! .. وهى من ثم دعوة عادلة الى مساواة المرأة بالرجل فى حق اختيـار شريك الحياة ، على أساس من الميل والتفاهم المتبادل ، وفى حق هجره والتمرد على معاشرته اذا انعدم هذا الميل أو تعذر التفاهم !

بل ان القصة دعوة صريحة الى زواج الحب ، وحملة موفقة على زواج « الواجب » ، أو المصلحة ، أو مجرد الزواج بغرض تكوين بيت واسرة وانجاب اطفال .. أى الزواج من طاهية ومربية ، لا الزواج من « انسانة » ذات مشاعر وقلب وذهن .

وقد اطلق تولستوى على القصة اسم « لحن كرويتزر » وهو اسم اللحن التاسع من الحان بيتهوفن التى وضعها للبيانو والكمان المنفرد - بخلاف سمفونيته التاسعة الجماعية - وكان بيتهوفن بدوره قد اختار هذا الاسم نسبة الى عازف الكمان البـاريسى ذائع الصيت « رودلف كرويتزر » الذى كان معاصرا له فأهدى هذا اللحن اليه ..

على ان كل الصلة بين لحن بيتهوفن وقصة تولستوى هذه لا تتجاوز فى الواقع ان بطل القصة - الزوج المعذب - كان يحس كلما سمعه يعزف ، كأن « شياطين الحواس تثور وتغلى فى دمائه ! » ..

أما سياق القصة ومغزاها الحقيقى فيدوران كما أسلفنـا حول « ثالوث » هذه المشكلة الازلية المعقدة : مشكلة الحب ، والزواج ، والخيانة !

- ١ -

◆ **كنا** فى بداية الربيع ·· وكان قد مضى على بدء رحلتنا أربع وعشرون ساعة ، صعد فيها الى القطار ركاب وهبط منه ركاب ·· فيما عدا ثلاثة غيرى لم يتغيروا ، منهم سيدة ذات وجه يبدو عليه الاجهاد ، لا هى بالجميلة ولا الشابة ، تدخن السجاير وترتدى قبعة أشبه بقبعات الرجال ·· وبرفقتها رجل ثرثار ـ عرفت فيما بعد أنه محام ـ فى نحو الأربعين ، يحمل معه حقائب كلها جديدة ونظيفة ·· **وثالثنا رجل قصير متحفظ فى أوسط العمر ، وخط الشيب شعره قبل الاوان ، تبدو على حركاته العصبية الشديدة ، وتبرق عيناه ببريق الذكاء ، وتنتقلان فى جميع الاتجاهات فلا تستقران على شيء !·· على أن أغرب ما بدا منه ، شبه سعلة أو لعلها ضحكة مقتضبة ، كانت تصدر منه أحيانا ، بغير معنى أو مناسبة !·· وقد حرص طيلة الرحلة على تجنب كل تعارف أو حديث مع بقية الركاب ، فكان اذا سأله أحدنا سؤالا أجاب فى اقتضاب تام ·· ثم عاد الى سيجارته يدخنها ، أو كتابه يقرأه ، أو الى النافذة يتطلع منها ·· أو أخرج زاده من جرابه القديم ، فتناول قدحا من الشاى أو شيئا من الطعام ··**

ورغم ذلك فقد خيل الى أنه يضيق بوحدته المرهقة ، فحاولت أكثر من مرة أن أجاذبه الحديث ·· ولكن فى كل مرة كانت تلتقى فيها أعيننا ، بحكم جلوسنا متواجهين ، كان هو يشيح عنى ·· ويعود الى الكتاب أو النافذة !

- ٢ -

◆ **وفى** المساء وقف القطار بمحطة كبيرة ، فغادر هذا المسافر العصبى المزاج العربة ليتناول قدحا من الشاى ، كما خرج المحامى بصحبة مرافقته ·· ودخل أثناء غياب هؤلاء

عدة ركاب آخرين ، من بينهم شيخ طاعن فى السن فارع القامة ، حليق اللحية ، يبدو انه تاجر ٠٠ جلس فى مواجهة المحامى واندمج فى الحديث مع شاب دخل العربة فى المحطة ذاتها ٠٠

ولما كنت جالسا فى منتصف الكنبة المقابلة ، وكان القطار قد توقف وانقطعت حركة مرور المسافرين ، فقد استطعت أن استمع الى بعض ما كان يقال ٠٠ دار الحديث فى بادئ الأمر ، كالمعتاد ، حول الحالة التجارية ، والاسعار الحاضرة فى موسكو ٠٠ ثم انتقل الى ذكر السوق التى أقيمت فى معرض مدينة « نيجنى نوفجورود » ، **وعندئذ بدأ الشاب يتحدث عن المغازلات الغرامية التى صدرت من رجل متقدم فى السن فى ذلك المعرض ٠٠ لكن الشيخ قاطعه متحدثا بدوره عن أساليب الغزل فى الماضى ، مفاخرا بما كان له فيها من نصيب ـ وكيف أنه وزميل له شربا مرة حتى ثملا ، ثم أتيا من الحيل والمغامرات مايستحى من ذكره الا هامسا !٠٠ فأغرق الشاب فى الضحك بصوت مرتفع ، وضحك الشيخ بدوره ٠٠**

وخرجت فترة من العربة ، وحين عدت كان المحامى وصديقته قد عادا ، وكانت المناقشات قد حمى وطيسها ٠٠ فسمعت المحامى يقول : « ٠٠ وعلى أثر ذلك أوضحت المرأة لزوجها أنها لا تريد ولا تستطيع أن تعيش معه بعد ذلك ! »

وهنا علت أصوات العابرين فى الممر فحجبت عن سمعى بعض عبارات الحديث ٠٠ فلما خفت الضجيج ، طرق أذنى صوت المحامى يقول : « ان انتشار الطلاق قد بات يشغل الاذهان فى أوربا ، بل ان هذه الظاهرة قد بدأت تتفشى فى بلادنا الروسية أيضا » ٠٠ ثم خفض من صوته موجها الحديث للشيخ ، وعلى فمه ابتسامة : « لم تكن الحال كذلك فى

عهدنا ، أليس كذلك ؟ » .. فأجاب الشيخ : « لقد كان يحدث الشيء نفسه ، ولكن بدرجة أقل .. أما اليوم فقد ازدادت حالات الطلاق بسبب ازدياد المدنية .. »

فقاطعته المرأة : « **ما وجه الخطأ فى مدنية هذه الايام ؟ أتقصد انه من الافضل تزويج الفتاة بالطريقة التى كانت تتبع قديما ، دون أن يسمح للعروسين بأن يتقابلا قط قبل الزواج؟ ان الناس وقتئذ لم يكونوا يدرون شيئا عن مدى قدرة الواحد منهم على أن يحب شريك حياته ، وكان الرجل يتزوج من الفتاة التى تلقيها الاقدار فى طريقه ! فكان ذلك الزواج ينتهى غالبا بالفشل والشقاق ، بل والتعاسة التى تلازم الزوجين مدى الحياة !.. فهل ما زلت تفضل طريقتنا القديمة فى الزواج ؟**

لم يجب التاجر الشيخ على سؤالها هذا ، وانما قال : « لقد بلغنا فى عصرنا الحاضر درجة عظيمة من المدنية .. لكنى أود أن أعرف كيف توضحين الصلة بين تقدم المدنية وازدياد الخلافات الزوجية !؟ »

وهنا كاد الشاب يدلى بتعليق ، لولا أن قاطعت المرأة محدثها: « ان ذلك الزمن الذى تتغنى به قد ولى الى غير رجعة ! »

فقال الشيخ فى اصرار : « هذه سخافات الثقافة الحديثة !

واذ ذاك استطردت المرأة وهى ترمق المحامى بنظرة : « **كثيرا ما يحدث أن يتزوج الشاب من فتاة دون أن يجمع الحب بين قلبيهما ، ثم يدهشان بعد ذلك حين يعجزان عن تحقيق الوفاق فى حياتهما .. ان الطريقة القديمة لهى طريقة الحيوانات التى تأتلف بأمر سيدها ، أما الرجال والنساء فلهم مشاعر ، ورغبات ، وميول ..!** »

فقال الشيخ : « حديثك هذا لا يؤدى الى الغرض المقصود .. ان الحيوانات وحوش تعيش على الفطرة ، أما الانسان فانه يسير فى حياته وفق قوانين معينة .. »

– كيف تستطيع المرأة أن تعيش مع زوج لا تحبه ؟

– لم نسمع بمثل هذا ولم نألف النقاش فيه ٠٠ هذه بدعة من بدع هذا الزمن الذى أصبحت فيه المرأة تهدد الرجل بقولها : « سأهجرك ! » ٠٠ بل لقد سرت العدوى حتى الى الريف ، فصرنا نسمع عن المرأة التى تقول لزوجها : « سأتركك واذهب مع رجل أفضل منك ! » ٠٠ لا جدوى من الجدل : ان كل ما تحتاج اليه المرأة هذه الايام هو ٠٠ الخوف ! »

– الخوف ؟ ممن ؟

– الخوف من الزوج بالطبع !

– لقد مر زمن الخوف وانقضى !

– كلا يا سيدتى ٠٠ ان زمن الخوف لم ولن ينقضى ! وكما خلقت حواء من ضلع آدم ، فسوف تظل المرأة هكذا الى الابد !

– هذا ما تقرورنه أنتم أيها الرجال ، يا من تفرضون علينا طاعتكم ٠٠ انكم تودون أن تحبسوا النساء فى (الحرملك) ، أما بالنسبة لكم فكل شىء محلل مباح ! ألا تتفق معى فى أن المرأة انسان بشرى ، لها مشاعرها كما للرجل تماما ؟٠٠ فماذا تراها فاعلة اذا لم تستطع أن تحب زوجها ؟!

فقال الرجل وهو يكرر كلماتها بلهجة كلها خشونة وانفعال :

– لا تحب زوجها ؟! انها يجب أن تتعلم كيف تحبه !

– قد لا يحدث هذا الذى تتوقعه ، فقد لا تستطيع أن تحبه ٠٠ واذا انعدم الحب فلا يمكن فرضه بالقوة !

– قد يحدث ما تقولين ، ولكن ليس عندنا ٠٠

– بل لقد حدثت مهزلة من هذا النوع فى بيت رجل لطيف منذ عهد قريب : اذ اتفق أن كانت الزوجة مولعة بالمجتمعات ، فبدأت تغازل شابا وسيما ! وقد حاول زوجها أن ينصحها

بالحسنى ، فلم تنتصح ٠٠ بل ازدادت خداعا وعربدة ٠٠ حتى لقد باتت تحتال عليه بأقذر الطرق ، وتسرق من نقوده !٠٠ فضربها وسامها العذاب ، لكنها لم ترتدع ٠٠ وأخيرا فرت مع شاب يهودى ، غير انه لم يلبث أن نبذها وآثر أن يعيش حرا ٠٠ فانتهى بها المطاف الى أن صارت من نساء الهوى !

ـ ذلك لان زوجها كان جاهلا فلم يستعمل الشدة معها منذ البداية ! كان خطأ منه أن يصرح لها بتنفيذ رغباتها ، والمثل يقول : « لا تأتمن حصانك في الحقل ، ولا زوجتك فى البيت ! » ٠٠ نعم ، علينا أن نردع المرأة فى الوقت المناسب ، والا انتهى كل شىء الى دمار محقق !

عندئذ لم أتمالك مشاعرى ، فقلت للشيخ : « ألم تقصوا علينا أنتم المتزوجون كيف استمتعتم فى سوق معرض (كونا فينو) بالمغازلات الغرامية ؟ »

فقال التاجر الشيخ : « هذا موضوع شخصى ٠٠ » ثم لاذ بالصمت !٠٠ وحين انبعث صفير القطار ثانية نهض التاجر فأعد حقيبته ولف شاله حول رقبته ثم رفع قبعته محييا وغادر القطار ٠٠ ولم يكد يختفى حتى ارتفعت عدة أصوات فى وقت واحد ، فقالت المرأة فى سياق الحديث : « **الشىء الرئيسى الذى لا يستطيع هؤلاء الرجال فهمه هو أن الزواج بغير حب ليس بزواج ، وان الحب وحده هو الذى يجعل الزواج مقدسا ٠٠ »**

وفيما كانت تتكلم ، انطلقت زفرة حارة من الرجل القصير المستوحش ، وكان الانفعال قد دفع الدم الى وجهه ، وجعل عضلات خده تختلج ٠٠ ولم يلبث أن قال مساهما فى المناقشة « أى حب هذا الذى ٠٠ يقدس الزواج ؟ »

ولحظت السيدة انفعاله ، فأجابته فى رقة : « الحب الصحيح ، بين الرجل والمرأة ٠٠ فهو وحده الذى يجعل الزواج موفقا »

ـ ولكن ماذا تعنين بالحب الصحيح ؟ عرفيه !

ـ الحب ؟٠٠ انه الافضلية التى يخلعها الرجل أو المرأة على شخص ما ، بحيث يميزه عن سائر البشر !

ـ وكم من الزمن يجب أن تستمر هذه الافضلية أو التمييز حتى تسمى حبا : شهرا ، أم شهرين ٠٠ أم نصف ساعة ؟

فأجابت السيدة وهى تهز كتفيها : « **أحيانا تدوم العمر** كله ! »

ـ هذا يحدث فى القصص فقط ، أما فى الحياة الواقعية فلا يدوم الحب عادة أكثر من سنة واحدة ٠٠ وأحيانا يقاس عمره بالاشهر ، بل بالاسابيع ، والايام ، والساعات !

وكان يتكلم بسرعة متزايدة ، وعصبية شديدة ٠٠ ثم صمت برهة ، استطرد بعدها فى هدوء مصطنع : « والآن ، أحسب أنكم عرفتم من أكون ! »

ـ كلا ، لم نحظ بعد بهذا الشرف ٠٠

ـ لن يكون شرفا عظيمــا على أى حال !٠٠ اســمى بوزدنيشيف » ، وقد كنت أحد الذين امتحنتهم الاقدار بكارثة رهيبة ٠٠ كارثة اضطرار الزوج الى قتل زوجته ! »

قال ذلك وشرع يجيل بصره فينا واحدا واحدا ٠٠ لكن أحدا منا لم ينطق بحرف ٠٠ فأردف الرجل فى أسى : « أحسب الامر لا يهمكم ، فاغفروا لى ثرثرتى ٠٠ وأعدكم بأنى لن أثقل عليكم بأكثر من ذلك »

فغمغم المحامى بكلمة تحية وتشجيع ، لكن بوزدنيشيف لاذ بالصمت ٠٠ ولم يلبث كل منا أن عاد الى ما كان منشغلا به قبل الحديث ٠ وحين بلغ القطار المحطة التالية ، انتقل المحامى ورفيقته الى عربة أخرى ٠٠ واستسلم الشاب لنعاس شهى ، فالتفت بوزدنيشيف الى قائلا : « لعله لا يروقك الجلوس معى ، بعد أن عرفت من أنا ، فاذا كان الامر كذلك فسوف أتركك



وأنتقل الى مكان آخر ..»

ـ كلا .. أرجوك ..

ـ أو لعلك تريد أن تنام ؟

ـ كلا ..

ـ اذا كان الامر كذلك فسوف أقص عليك ـ اذا شئت ـ كيف قادنى ذلك الحب بعينه الى فعل ما فعلت !

ـ يسرنى سماع قصتك، اذا لم تؤلمك الذكرى ..

ـ بل بالعكس ، فان فى ذلك تسرية عنى ..

وفى تلك اللحظة مر بنا التذكرى ، فأمسك محدثى لسانه حتى غادر الرجل العربة ، وهو يتبعه بعينين حذرتين ، وعند ذاك فرك وجهه بيديه ، ثم انطلق يروى مأساته :

- ٣ -

◆ « **كنت** قد تخرجت فى الجامعة ، شابا مترفا يملك ضيعة ، وينتمى الى طبقة الأشراف .. فعشت كما يعيش رجال طبقتى ، حياة طليقة من كل قيد . وأعتقد أنى كنت انسانا جذابا ، على شىء من الخلق القويم ، فما كنت يوما بالمتهالك على الملذات ، المجرد من الضمير ، ولا كان اللهو مع النساء هوايتى الوحيدة فى الحياة ـ كما كان الأمر بالنسبة لكثير من زملائى ـ وانما كان الاعتدال رائدى فى هذا المضمار ، على الأقل محافظة على صحتى . وكنت أحرص دائما على تجنب كل رابطة روحية بينى وبين النساء اللاتى كانت لى معهن صلات من اللون الآخر ! .. ومن هنا نشأت كل متاعبى المروعة التى سممت حياتى فيما بعد ! .. اعذرنى اذا لم استطع الاحتفاظ بهدوئى وأنا اتحدث فى هذا الموضوع ، بسبب الكارثة التى حلت بى فى صدده ، ولكن صدقنى أنه منذ وقعت تلك الكارثة انفتحت عيناى ، فرأيت كل شىء على ضوء مخالف لما كنت أراه عليه ، بل على عكس ما كنت أراه قبلا !! »

وكان يدخن سيجارته ، فاتكأ بمرفقيه على ركبتيه ، واستأنف كلامه ·· وكان الظلام قد شمل العربة تماما ، فلم أعد أرى وجهه ، وانما سمعت فقط صوته الجذاب يمضى فى الحديث :

« **بدأت الكارثة وأنا فى سن السادسة عشرة ·· ولم اكن قد عرفت المرأة بعد ، ولكنى كسائر اخوانى الطلبة لم اكن بالفتى الساذج ·· كان زملائى قد افسدوا من قبل افكارى ، فبدأ بالى ينشغل بالمرأة ، والبحث عنها ، والجرى وراءها ·· لا امرأة بعينها ، وانما المرأة ككائن شهى ، كجنس آخر ·· أى امرأة ! ·· لكنى أخيرا سقطت ! سقطت باغراء زميل مرح من « اخوان السوء » كان قد علمنى من قبل لعب الميسر ، وشرب الخمر ، ثم توج جهوده أخيرا باقتيادى الى ·· هناك !**

« وهكذا ترديت فى الهاوية ·· وساعد على وقوعى فيها اننى لم اكن أسمع أحدا من الكبار « المحترمين » يحذرنى من ذلك ، أو ينبهنى الى خطورة فعلتى ··

« بل لم يقتصر الأمر على عدم سماعى تحذيرا من أحد فى هذا الصدد ، وانما تجاوزه الى سماع الكثير من عبارات التحبيذ والتشجيع ، سواء من جانب الشيوخ والرجال الناضجين الذين أحترمهم ، أو من جانب زملائى « المجربين » الذين يكبروننى ·· أو فى بطون الكتب ·· وكانت حجة الجميع فى هذا التحبيذ تكاد تكون واحدة : الحرص على الصحة والأعصاب ، مع عدم اغفال الوقاية من الأمراض الخبيثة المعدية !

« وهكذا سقطت تلك السقطة الرهيبة ، بغير أن ادرك وقتئذ أنها سقطة ·· وان كنت اذكر جيدا انى قبل ان اغادر ذلك المكان شعرت باحساس من الكآبة الغريبة ، والأسى العميق !

« ومنذ ذلك اليوم أطلقت لنفسى عنان الارتواء من تلك الملذات - الضرورية ! - حتى اعتدتها ، كما اعتدت من قبل كلا من التدخين والخمر ·· ففقدت براءة الذهن التى كانت تتيح لى ان أنشىء صلات صداقة بريئة صريحة مع النساء ، وصار نقاء علاقتى باية امرأة ضربا من المستحيل ! او بعبارة أخرى صرت ما يسمونه بالفتى الداعر ·· أو ذلك الانسان غير الطبيعى الذى فقد ارادته

« وكان ذلك بداية انهيارى !

- ٤ -

« **ومضت** الأعوام ، وأنا ماض فى غيى ·· يا الهى ، اننى حين أذكر كل الموبقات التى ارتكبتها فى هذا المضمار ، أقشعر رعبا ! ·· **وبرغم ذلك ، فاننى وامثالى من « شباب المدينة الذهبى » حين كنا نقبل على صالون زاخر او**

مجتمع فاخر ، مرتدين ثيابنا الفاخرة ، بوجوه مغسولة وذقون حليقة معطرة وشعر مصفف ، كنا نستقبل بأبلغ آيات الاحترام والترحيب والاعجاب !

« هذا ما كان يحدث فعلا ، ولا يزال يحدث٠٠ ولو انصف المجتمع واعتدلت الاوضاع والمقاييس ، لكان فرضا على كل رجل يرى شابا داعرا يقبل على مجلس فيه اخته او ابنته ، ان ينتحى به جانبـا ويهمس له فى غير ضـجة : « اصغ الى يا صاح ٠٠ انا أعرف جيدا كيف تعيش ، وأين ومع من تقضى لياليك ٠٠ وهنا توجد فتيات ونساء طاهرات وبريئات ، فهذا ليس مكانك ٠٠ ورجائى اليك ان تذهب ! »

« هكذا عشت حتى سن الثلاثين ، وطيلة تلك السنوات كنت افكر جديا فى الزواج ، بمجرد عثورى على الفتاة التى تناسبنى ٠ وكان الشرط الاساسى الأول الذى أشترطه فيها هو الطهارة الخالصة ! ٠٠ وأخيرا وجدت ضالتى فى ابنة احد موظفى حكومة (بنزا) ٠ كنت قد قضيت يوما كاملا فى صحبتها ، وفيما نحن عائدان فى قارب شراعى تحت ضوء القمر ، شعرت انها فتـاتى المنشودة ، واننى أتمنى لو لم افارقها ابدا ، وانها خير من تفهم افـكارى ومشاعرى ! ٠٠ يا لسلطان الجمال علينا نحن الرجال : ان المرأة الجميلـة تتفوه بكل الوان الحماقات ، فيخيل اليك ان ما تقوله هو الحكمة المصفاة ! وتنطق بالألفاظ والعبارات المبتذلة ، فيبلغ كلامها مسمعك وقد صار آية من آيات التأدب والاحتشام !

« وفى اليوم التالى تقدمت لخطبة الفتاة من أبيها ٠٠ وذات يوم خطـر لى ان اطلع خطيبتى على مفكرتى التى دونت فيها بعض ادوار ماضى الحافل كى تعرفه على حقيقته منى ـ قبل ان تنقله اليها ، مشوها ، وشايات الوشاة ! ـ فلم تكد تفرغ من قراءة المفكرة حتى ارتسمت على وجهها ابلغ مظاهر الرعب ، واليأس ، والاشمئزاز ، حتى لقد خشيت ان تهجرنى على الأثر ٠٠ وليتهـا فعلت !

« لكنها لم تفعل ٠٠ فقد أفلحت مؤهلاتى ـ مركزى وثروتى وأناقتى ـ فى اتمام الصفقة ! ٠٠ ولم اكن اعلم يومئذ ـ كما اعلم الآن ـ ان المـرأة تنتقم لحرمانها من حق اختيار الزوج الذى يعجبها ، بمحاولة السيطرة بعد الزواج على الزوج الذى اختاره لها ذووها ! والظاهرة الغريبة فى موقف مثل هذه الزوجة انها تجمع بين النقيضين : فهى من ناحية تكون ذليلة للزوج ، خاضعة لنزواته وشهواته ٠٠ ومن الناحية الاخرى تعوض مذلتها باذلاله ، واسترقاق حواسه لفتنة جسدها ، فينتهى بها الأمر الى السيطرة عليه تماما ، من حيث حسب انه هو المسيطر ! ٠٠ وكأن لسان حالها يقول : « أتريدوننا ايها الرجال ان نكون مجرد أدوات متعة ولذة لكم ؟ ٠٠ حسنا ، فاننا بوساطة هذا السلاح نفسه سوف نجعلكم لنا عبيدا ! »

والنساء بطبعهن اسوأ من يستخدم السلاح الذى يوضع فى ايديهن ٠٠ أيا كان !

« هكذا يا سيدى تسيطر النساء على الرجال ٠٠ وهكذا تتحول قوى الانتاج الصناعى ونشاط الهيئات العاملة فى المدن والبلدان المتحضرة الكبرى الى خدمة نزوات النساء ، والتوفر على ارضائهن ٠٠ والا فادخل اى محل تجارى تراه فى طريقك ، تجد ان تسعين فى المائة من البضائع والاموال المستثمرة فيه ، تخص النساء ! ٠٠ وان كل ترف الحياة وأطايبها معد للنساء ٠٠ وان الملايين من الرجال والأجيال المتعاقبة من العبيد يفنون حياتهم فى المصانع ، لا لشىء الا لاشباع نزوات النساء ، ونهمهن الى السيارات الفاخرة ، والثياب الأنيقة ، والمجوهرات الغالية ، وسائر الكماليات وادوات الزينة والترف ! ٠٠ وهكذا تتربع النساء كالقياصرة ، فوق عروشهن ، ناعمات البال ، قريرات العين ٠٠ وكل هذا سببه حرمانهن من حق المساواة بالرجال ، وانتقامهن لأنفسهن بتشغيلنا لانتاج ادوات الجمال والاغراء التى تمكنهن من السيطرة على حواسنا ، واستعبادنا ! ولست ادرى لماذا لا تعاقب المرأة المغالية فى التأنق ، كما يعاقب كل خارج على القانون ؟ أو ليست تهاجم حواس الرجل الى حد يستحيل معه عليه أن يحتفظ بهدوئه فى وجودها ؟ ٠٠ اننى اشعر احيانا ، عند ما يقع بصرى على امرأة متأنقة ، بدافع يغرينى بمناداة رجل **البوليس** كى يتولى حمايتى من ذلك الخطر الداهم ، كما يحمى الناس من أى شىء مخالف للقانون ٠٠ واى فارق بين ان تسمح الدولة بمظاهر تأنق وتزين النساء ، التى تلهب العواطف وتضر بالأمن الاجتماعى ، وبين سماحها باقامة شتى انواع الفخاخ والمصائد للمارة فى الطرقات ؟!

- ٥ -

« **وانقضت** فترة الخطبة ، وأسرتانا فى أخذ ورد ، ومفاوضات ومشاورات ، بشأن المعدات التقليدية لكل زواج : الاثاث ، والمسكن ، وأغطية الفراش ، والثياب ، وعلب الحلوى ٠٠ الى آخر هذه السخافات والمظاهر الجوفاء التى يقصد بها عادة اخفاء معالم « الجريمة » الاصلية ، جريمة « بيع » الفتاة الطاهرة الى الشباب ذى الماضى الدنس ، كأية صفقة تجارية !

« ولكن ، هكذا يتزوج الناس جميعا ٠٠ وهكذا تزوجت انا ، وبدأ شهر العسل البغيض ٠٠

وبالرغم من الجهود التى بذلتها كى ينجح زواجى ، فانه قد فشل ٠٠ **وبدأت أعراض فشله تظهر منذ اليوم الثالث أو الرابع ٠ وجدت عروسى منقبضة ، فبدأت أسألها عن سبب انقباضها ، وأحيطها بذراعى ، بكل ما وسعنى من**

حنان .. لكنها دفعت ذراعى بعيدا وأخذت تبكى بحرقة ! وحين عدت أسألها عن الاسباب ، قالت شيئا فهمت منه انها قد اشتاقت لامها .. وخيل الى انها كاذبة ، وانها تخفى السبب الحقيقى لانقباضها ، فجعلت أسرى عنها وأواسيها .. بغير أن أتعرض لامها ، بخير أو شر .. لكن اغفالى ذكر أمها قد ساءها ، واستنتجت منه اننى لم أصدقها ، فثارت واتهمتنى بأنى لا أحبها ! .. واذ ذاك ثرت بدورى واتهمتها بالحماقة والرعونة ، فتغير وجهها على الفور ، وشرعت تكيل لى تهم الانانية والقسوة ، بأمر الالفاظ .. فجعلت أتأملها صامتا : كان وجهها يعبر عن البرود ، والعداء ، والكراهية ، الامر الذى أزعجنى على الفور وجعلنى أسائل نفسى : « ما معنى ذلك ؟ اذا كان هذا مبلغ «حبها» لى فى شهر العسل ، فكم يكون الامر فيما بعد ؟ وأية حياة مريرة بدأناها !؟

« حاولت أن أهدئها .. لكن محاولاتى اصطدمت بحائط شامخ من البرود ، والعداء المضمر لى ، الى حد انى قبل أن أجد وقتا للتفكير تملكنى حنق شديد ، فتبادلنا كثيرا من العبارات العنيفة ! وكان لذلك الشجار الاول أثره السىء على نفسيتى .. لقد سميته شجارا ، لكنه كان اكتشافا « للهوة » الواسعة التى تفصل بيننا ، والتى ازدادت اتساعا فيما بعد .. وكان أكثر ما أرعبنى فى هذا الشأن حسبانى وقتئذ اننى الزوج الوحيد الذى ابتلى بهذا البلاء . لم أكن قد تبينت أن أكثر الازواج منكوبون بزوجات من هذا الطراز ، وان كل واحد منهم يحسب نفسه التعس الوحيد من بنى جنسه ، فيحاول جاهدا اخفاء حظه السىء عن الآخرين وعدم الاعتراف به .. حتى لنفسه !

« وقد جربت فعلا هذا الميل الى تجاهل الامر الواقع ، رغم ادراكى منذ بدأت تلك المشاحنات أن زواجى لم يكن موفقا، وان فشله لم يقتصر على حرمانى من السعادة التى كنت أنشدها ، بل تعدى ذلك الى اشعارى بأن حياتى قد ابتليت بهم مقيم ! وهذا يعطيك فكرة عن الرابطة الوحيدة التى كانت تربطنا ، والتى كانت أشبه برابطة الشريكين فى جريمة ! وهل أدل على تلك الجريمة من أن التعسة حبلت قبل انقضاء شهر على زواجنا ؟!

« وهكذا عشت أشبه بخنزير ، وكان أبشع ما فى الامر تصورى اننى أحيا حياة عائلية فاضلة ، واننى رجل ذو خلق مثالى ، ما دمت لا أخون زوجتى مع نساءأخريات .. واننى لست الملوم على ما ينشب بيننا من شجار ، وانما هى الملومة ! .. وهذا خطأ فاحش بطبيعة الحال ، فانها فى الحقيقة لم تكن تستحق لوما من أجل ذلك ، بل كانت مثل غالبية النساء المترفات اللواتى من طبقتها .. ورأيتنى أسائل نفسى : ما هى نظرة الرجل الى المرأة فى المجتمع العصرى ؟ .. انه يعلن الآن دائما وفى كل مناسبة انه يحترم المرأة ، ويدين لها بنجاحه ومركزه ، واذا سقط منها منديل انحنى فالتقطه لها ! .. وهو قد يعترف

لها بحقها فى التمتع بحقوقها السياسية وشغل المناصب العامة ٠٠ لكن رأيه فيها فيما عدا ذلك لم يتغير : فهى ما تزال اداة لهوه ومتعته ، التى يجب أن تخضع دائما لاهوائه ونزواته ٠ وهى تعلم هذا كله ، وتعده ــ بحق ــ مرادفا للرق والعبودية ، شأنها فى ذلك الآن شأنها فى قديم الزمان ! »

ثم سكت الرجل لحظة ، وعاد يقول :

« ولنعد الى ما كنا فيه ٠٠ مرت أشهر الحمل فى خصام وشجار متقطعين ٠ وحين وضعت مولودها رأى الاطباء أن صحتها لا تحتمل مشقة ارضاعه بنفسها ٠ وهكذا ، للمرة الاولى ، حرموها ــ بل حرمونى ــ من الوسيلة الوحيدة لحمايتها من الغواية والضلال ٠٠ اذ لم تكد تتحرر من نير الحمل والرضاع حتى استيقظت فيها أنوثتها النائمة ، بصورة عنيفة ، فاستيقظت فى تبعا لذلك غيرتى عليها بصورة اعنف ، وأشد حدة ٠٠ وخاصة بعد أن رأيت كيف قبلت عن طيب خاطر ، وفى سهولة ويسر ، أن تتخلى عن مسئوليتها كأم ، فقدرت احتمال تخليها ، بنفس السهولة ، عن واجبها كزوجة !

« وهكذا ظللت فريسة لغيرتى زمنا ، ولم ينقذنى من هذه الغيرة غير حمل زوجتى مرة أخرى ، ثم مرارا على التعاقب ، وارضاعها وتربيتها لاطفالها الجدد ، الذين انقذونى وأنقذوها ٠٠ فقد أنجبت فى خلال ثمانى سنوات خمسة اطفال ، ارضعتهم وربتهم جميعا بنفسها ، باستثناء الأول ٠٠

« وعلى ذكر الاطفال ، كلنا نعلم انهم بركة الهية، ولكن اسأل أمهات اليوم يقلن لك : ان الاطفال لعنة ! وانهن لا يرغبن فى انجابهم قط ، خوفا من أن يمرضوا يوما أو يموتوا ٠٠ واذا أنجبنهم لا يرغبن فى ارضاعهم لئلا يزداد تعلقهن بهم فلا يحتملن فراقهم أو فقدهم ! ٠٠ فهن يوازن بين مزايا النسل ومساوئه، فيخرجن من الموازنة بأن البهجة التى يدخلها على قلوب الوالدين جمال الطفل ، وذراعاه الصغيرتان ، وساقاه الدقيقتان ، ولغوه الحلو ٠٠٠ لا توازى اللوعة التى يقاسينها ، لا بسبب مرض الطفل أو وفاته فقط ، وانما بسبب احتمال ذلك المرض أو تلك الوفاة !!

« وهكذا كانت زوجتى ٠ كان تعلقها بأطفالها ، ومداعبتها اياهم ، وحرصها على حمايتهم، غريزيا، كتعلق الحيوان بصغاره !٠٠ ولكنها لم تكن كالحيوان فى انعدام التفكير والخيال من رأسه ــ وهما المنغصان لحياة الانسان ، والامهات خاصة ــ فالدجاجة لا تقاسى هما من ناحية الامراض التى قد تصيب صغارها ، ولا تعرف شيئا عن وسائل الوقاية التى تحمى صغارها من كل مكروه ، ومن ثم لا تحس خوفا عليها ولا انزعاجا ، وتنعم بها وتستمتع ببهجتها متعة لا يشوبها منغص ٠٠ فاذا بدت على أحدها أعراض المرض عنيت بتدفئته وتغذيته ، وهذا كل واجبها ٠٠ فاذا مات بعد ذلك لم تسأل نفسها عن سبب موته والى

أين ذهب ، وانما تصيح بضع صيحات ثم تستأنف حياتها المعتادة ، وتنجب نسلا جديدا !

« أما نساؤنا التعسات ، فالاطفال بالنسبة لهن عذاب مقيم ٠٠ فعلاوة على المرض والموت ، يشغلن انفسهن بألف مسألة ومسألة : باطعام الطفل ، والباسه، وكيفية استحمامه ، ومتى يجب أن ينام ، ومتى يتنزه ، ودرجة تهوية غرفته ، ثم تربيته وتعليمه٠٠ ولكل من هذه المشكلات قواعد متناقضة يتدخل فيها الاطباء، والجيران ، والاهل ، والاصدقاء ٠٠ وهى قواعد تتغير وتتبدل كل أسبوع ، كأنما الاطفال لم يكونوا يولدون ويكبرون قبل أيامنا هذه ! ٠٠ أما اذا مرض الطفل يوما ، فهنا العذاب الحقيقى والجحيم المقيم ٠٠ فانه لن يشفى الا اذا تولى علاجه الطبيب « فلان » الاخصائى المشهور ، فاذا لم يتيسر استدعاؤه أو كانت الاسرة تقيم فى بلد آخر ، فالويل للطفل ٠٠ انه ميت لا محالة !

« هكذا كانت زوجتى ـ مثل سائر أمهات اليوم ـ تتأرجح بين طبائع الحيوان والانسان ، فلا تبلغ هذه ولا تلك ، فلا هى بالام التى تعالج الامور فى بساطة بلا تفكير ، كالحيوان ٠٠ ولا هى بالام المؤمنة التى تكل أمرها الى الله ، فتقول كما يقول المؤمنون : « الرب أعطى ، والرب أخذ ، فليكن اسم الرب مباركا »

- ٦ -

◆ « **وظلت** العلاقات بيننا تتفاقم ، حتى لم يعد العداء بينى وبينها عارضا طارئا ينتج عن اختلاف آرائنا ، بل صار حقيقة متأصلة بسبب ذلك الاختلاف ٠٠ صار كل منا يعارض مقدما فى كل ما يقوله الاخر أو يفعله ! وأذكر أن الآراء التى كنت أتشبث بها وأجعل منها محلا للنزاع لم تكن ذات قيمة فى نظرى لذاتها ، وانما كنت أتمسك بها لان تسليمى فيها معناه الهزيمة أمام زوجتى والتسليم لها بما تريد ! ٠٠ وصرنا حين نجلس معا نلوذ بالصمت ، فلا نتبادل الا العبارات الضرورية شبه الرسمية ، مثل « كم الساعة الان ؟ » أو « ماذا نأكل اليوم ؟ » أو « ما أنباء اليوم ؟ »

« وهكذا عشنا فى ضباب متصل ، أشبه بسجينين قيد أحدهما الى الاخر بأغلال حديدية قوية ، كلاهما يمقت الاخر من صميم قلبه ، ويسمم حياة رفيقه ما وسعه الجهد ! ٠٠ وبعد حين اقتضتنا ظروف تعليم الاولاد أن ننتقل الى العاصمة ٠ وفى العواصم الكبرى لا يجد الانسان متسعا من الوقت كى يخلو الى نفسه ، ويتأمل أحواله ، فان وقته كله يضيع فى الانتقال والعمل والصلات الاجتماعية والتردد على الاطباء ومعارض الفن ومدارس الاولاد ، ورد زيارات من يزورونه ، وسماع محاضرات الاعلام ومشاهير الرجال والنساء ٠٠ الى آخر

تلك الدوامة العجيبة التى تنسى الانسان نفسه ، وهمه • وهكذا قل احتكاكنا وشجارنا • ومضى شتاء على هذا المنوال •• وخلال الشتاء التالى وقعت الملابسات التى سأسردها الان ، والتى تسببت ـ برغم تفاهتها ـ فى كل ما تلاها من أحداث جسام !

« •• فقد ضعفت صحة زوجتى ، فأمرها الاطباء بألا تنجب أطفالا آخرين • ورغم معارضتى فى ذلك ، فقد أصرت هى على التزام نصيحتهم ، فقبلت أنا مرغما ، بغير أن أتنازل عن رأيى فى أن منع النسل بوسائل المدنية الحديثة جريمة يجب أن ينص عليها فى قانون العقوبات ••

« •• وقد قضينا على هذه الحال عامين ، تحسنت فيهما صحة زوجتى ، وأزدادت جمالا واشراقا •• **وأدركت هى ذلك ، فبدأت تعنى بنفسها وتتأنق ، حتى صار حسنها متألقا يدير رؤوس الرجال ويستثير عواطفهم ! كان مجرد وقوع بصر أحدهم عليها يربكه ويشيع الاضطراب فى نفسه •• صارت أشبه بالحصان الذى أعتق من جر العربات وأجيدت تغذيته ورفع السرج عن ظهره ، فتحرر ، وأزيلت من طريقه جميع العقبات والحوائل ، فتهيأت له الفرصة كى يجمح ما شاء له هواه ! •• وقد أدركت أنا ذلك ، فتوجست منه خيفة وتوقعت شرا •• فان زوجتى كانت ما تزال فى الثلاثين !! »**

ونهض الرجل من مقعده فى عصبية واقترب من النافذة ، ثم أشعل سيجارة جذب منها أنفاسا •• وعاد فجلس قبالتى وقد هدأ قليلا ، واستطرد :

« قلت : ان زوجتى حين استراحت من متاعب الحمل والوضع والقلق على الاطفال ، تألقت من جديد وازدادت حسنا وبهاء •• وكأنما أفاقت من دوار المخمور ، فرأت أمامها عالما جميلا حافلا بالمسرات والملذات التى كانت قد نسيتها ، فساءلت ولابد نفسها : « كيف أستغل الفرصة فلا أدعها تفلت منى ؟ •• ان الزمن يجرى ، واللحظة التى تمضى لن تعود ! •• » بل أستطيع أن أتصور أن تفكيرها جرى على هذا النحو : لقد تزوجت ، لكنها لم تجد فى الزواج أحلامها والامانى التى منوها بها ! وقد تبخرت أكثر آمالها ، وذاقت مرارة خيبة الأمل فى أكثر من وهم من أوهام صباها •• ثم قاست فى الزواج طويلا ، وخاصة من انجاب الاطفال على التوالى ، الأمر الذى مزق روحها شر ممزق •• ولكن ها هى قد قدر لها أخيرا ـ بفضل تدخل الاطباء ـ أن تستريح من تلك العبودية نهائيا ، وان تتذوق ما طالما حلمت به : الحب ! •• لكن الحب الذى تريده لا يمكن ممارسته مع زوج استهلكت قلبه عواطف الكراهية المضطرمة والغيرة العمياء •• ومن ثم بدأت تصور لنفسها الحب المشتهى فى صورة أخرى ، فراحت تتلفت حواليها ، كأنما هى تتوقع •• جديدا ! جديدا ينقذها من أن تقضى بقية حياتها على هذه الوتيرة •• اذ ما معنى أن تضحى

بزهرة عمرها من أجل أطفالها ، فى حين انها ما تزال شابة ، وفى وسعها أن تستمتع بالحياة ؟

« وهكذا اشتعل فيها شبابها من جديد ، وفى نوبة من نوبات تحمسها للانطلاق من عزلتها الطويلة عاودها شغفها بالعزف على البيانو ، فعكفت على التمرن عليه بعد انقطاعها أعواما ٠٠ وكانت تلك بداية النهاية ! »

- ٧ -

◆ ومرة أخرى أدار محدثى بصره الكليل الى النافذة ، كمن يبذل مجهودا للسيطرة على نفسه ، ثم أردف : « وفى تلك المرحلة ظهر ذلك الرجل ! »

ثم تردد برهة ، وأدركت انه يحاول أن يستحضر فى ذهنه صورة غريمه ، وتاريخه معه ٠٠ وبعد قليل استطرد : « كان الرجل عازفا على الكمان ، هاويا وليس محترفا ، ينحدر عن أب من أصحاب الاملاك كانت أرضه مجاورة لأرض أبى ، ثم أفلس ٠٠ فاضطر أولاده الثلاثة الى شق طريقهم فى الحياة بأيديهم ، وكان هذا الابن - وهو أصغرهم - من نصيب جدته ، فأرسلته الى باريس ٠٠ وهناك ظهرت موهبته الموسيقية ، فأدخل معهد الموسيقى « الكونسرفتوار » ٠ وحين تخرج فيه عازفا على الكمان عاد فى تلك السنة الى وطنه روسيا ، حيث ظهر فى مجتمعاتها ٠٠ ودخل بيتى !

« كانت له عينان جذابتان ، وشفتان باسمتان ، وشارب منتظم صغير ٠٠ وكان أنيقا ، مرحا ، وسيم الوجه ، رشيق القوام ، يصفف شعره على أحدث طراز ، ويرتدى ثيابا وأربطة عنق تبين عليها مسحة الاناقة الباريسية التى تخلب عقول النساء !

« ذلك هو الرجل الذى كان سبب الكارثة ٠٠ لكنى لست حاقدا عليه ، فلو لم يظهر هو لظهر فى حياة زوجتى رجل غيره ٠٠ ولقد صور بعضهم مأساتى على انها نتيجة غيرتى الشديدة المدمرة ٠٠ لكنهم أخطأوا ، فان سبب كل ما حدث هو تلك الهوة الواسعة ، بل الاخدود العميق ، الذى كان يفصل بين طبائعنا منذ اليوم الاول لزواجنا ، وتلك الكراهية الشديدة المتبادلة بيننا ٠٠ **وانى لموقن بأن كل الازواج الذين يعيشون مع زوجاتهم كما كنت أعيش ، لا مفر لهم من اختيار مسلك من أربعة : اما أن يغمضوا أعينهم ، أو ينفصلوا ، أو يقتلوا زوجاتهم ، أو ينتحروا !!**

« ولقد فكرت فعلا فى الانتحار مرارا ، وشرعت هى فيه مرة : حدث ذلك قبيل الكارثة بقليل ، وكنا نعيش فى شبه هدنة مؤقتة ، لم يكن ثمة سبب لقطعها ٠٠ ولكن فجأة بدأت بيننا مناقشة ، لسبب تافه كالعادة ، قلت ان كاتبا قد منح مدالية فى أحد المعارض ، فاعترضت قائلة : « انه لم يمنح مدالية ، بل وساما ! »

«وبدأ بينا شجار ، تبادلنا فيه اعنف العبارات ٠٠ وفى امثال هذا الموقف يحس المرء بانه على حافة مشاحنة حامية ، وان شيئا يغريه بأن يقتل غريمه أو يقتل نفسه !٠٠ واذا النار تسرى فى الهشيم ، فيعجز الانسان عن السيطرة على أعصابه ، ويتملكه الغضب من رأسه الى قدمه ، وتشعر المرأة بمثل هذا واسوأ منه ، فتتعمد اساءة فهم كل كلمة ينطق بها الرجل ، وتأويلها تأويلا خاطئا ٠٠ وتغمس كل كلمة تتفوه بها فى سم مركز ، وتضرب على الوتر الذى تعرفه حساسا عند الرجل !

« وقد كان ، فصحت بها فى صوت كالرعد : «اصمتى» ٠٠ فاندفعت هاربة من الغرفة فى طريقها الى حجرة الاطفال ٠٠ لكننى حاولت اعتراض سبيلها كى اقول كل ما عندى بلا حرج ، وامسكتها من ذراعها ، فتظاهرت بانى آلمتها ، وصرخت مستنجدة : «انظروا يا اولاد ٠ أبوكم يضربنى» ٠٠ وبعد مشادة حامية تركتها غاضبا ومضيت الى غرفة المكتبة ، حيث جلست احرق الارم وادخن سيجارة ، وافكر ٠٠ فكرت فى الف خطة وخطة للانتقام ، وللتخلص منها ، او الفرار الى امريكا والاختفاء عنها !٠٠ فكرت فى التعرف الى نساء اخريات وانشاء علاقات جديدة ٠٠ فكرت فيما ازمع فعله بعد تخلصى منها ، بطلاقها ، أو موتها ٠٠!

« وفيما انا افكر ، جاءتنى مربية الاطفال تسألنى متى تعود سيدتها — فقد خرجت من البيت على اثر مشادتنا — وجاءنى الخادم يسألنى : هل يعد الشاى ؟٠٠ وعلى مائدة الشاى نظر الى الاطفال نظرات متسائلة حيرى، صامتـــة !

« وانقضت الامسية دون ان يظهر للغـــائبة اثر ! فتجاذبتنى فكرتان ، وشعوران : شعور بالحقد عليها لانها حيرتنى وحيرت الاولاد بغيابها ، فى حين انها سوف تعود آخر الامر ٠٠ وشعور بالخوف من ان لا تعود ، أو أن تقدم على ايذاء نفسها !

« وحلت الساعة الحادية عشرة ، فالثانية عشرة ٠٠ وهى لم تعد !٠٠ وحاولت ان اشغل نفسى عن التفكير فى امرها باى شىء : بكتابة بضعة خطابات ٠٠ بالقراءة ٠٠ لكنى عجزت عن ان افعل شيئا ، فجلست فى غرفة المكتبة غاضبا مغيظا ، افكر ٠٠ واصغى الى دقات الساعة ٠٠ الثالثة صباحا ، فالرابعة ٠٠ ولا اثر لها !٠٠ واخيرا غلبنى النعاس قرب الفجر ٠٠ وحين صحوت ، لم يكن قد ظهر اى اثر لها بعد !

« وجاءت اختها قبيل الظهر ٠٠ جاءت موفدة من قبلها تقول انها فى أسوأ حال ، وتطلب منى ان أجد حلا للموقف ٠٠ فاكدت لها اننى ان اتخذ الخطوة الاولى نحو التفاهم ، وليكن ما يكون !٠٠ وذهبت المسكينة بغير ان تصل الى شىء ٠٠ لكنها لم تكد تذهب ، ولم اكد ارى جزع الاطفال وأساهم ،

حتى وجدتنى مستعدا لان اتخذ الخطوة الاولى ، بل متلهفا على اتخاذها ٠٠ ولكن كيف ؟

« وقرب الساعة الثالثة ، عادت !٠٠ والتقينا ، لكنها لم تفه بكلمة ٠٠ وحين جاءت مناسبة للحديث اشتبكنا فى مناقشة هادئة ، قالت اثناءها انها لم تعد لتبقى بل لتأخذ الاطفال وتمضى ، فاننا لم نعد نستطيع العيش تحت سقف واحد !٠٠ وتطور النقاش بيننا ، وفجأة صاحت منفعلة وهرعت الى غرفتها ، ثم اغلقت الباب وراءها وادارت المفتاح فى القفل !٠٠ طرقت الباب مرارا ، ولا مجيب ٠٠ فلبثت انتظر والغضب يهز بدنى هزا ٠٠ وحين يئست تركتها ومضيت

« وبعد نصف ساعة جاءتنى ابنتى «ليزا» تبكى بحرقة وتقول ان امها لا تجيب اى طارق !٠٠ فمضيت مع الصغيرة الى الحجرة واتكأت بظهرى على الباب بكل قوتى ، حتى لان وانفتح ٠٠ فهرعت الى فراشها ٠ كانت ممددة فوقه بثيابها وحذائها فى وضع غير مريح ، وعلى المائدة زجاجة «افيون» فارغة ! ٠٠ وحين عادت بعد جهد الى وعيها انهمرت دموعنا وطابت خواطرنا ٠٠ لكن قلب كل منا كان عامرا بنفس الحقد الدائم على الآخر ، مضافا اليه شعور جديد بالحنق من اجل الالم الذى سببته المشادة الاخيرة لكلينا ، والذى يلقى كل منا مسئوليته على غريمه !

*

◆ « تلك كانت حالنا حين جاء ذلك الرجل الى موسكو ، وظهر فى حياتنا ! ٠٠ كان اسمه «تروخاشفسكى» ، وقد زارنى ذات صباح فى بيتى ، وكانت بيننا فى الماضى البعيد علاقة طيبة ، فاستقبلته مرحبا ٠٠ ورغم أن مظهره الجديد لم يعجبنى ، منذ النظرة الاولى ، فان قوة غامضة مدمرة جعلتنى لا احاول ابعاده عن محيط حياتنا ، بل اسعى على العكس الى تقريبه ـ وقد كان كلا الامرين فى امكانى ٠٠ واى شىء كان ابسط من ان اكلمه بفتور بضع دقائق ، وأن أودعه فى نهاية الزيارة بغير ان اقدمه الى زوجتى ؟

« لكنى لم افعل ، بل جاذبته اطراف الحديث بطلاقة ودية ٠ حدثته بما سمعته عن عزفه ، وسألنى عن هوايتى القديمة للعزف ، فذكرت له اننى هجرتها ، وأن زوجتى هى التى تعزف الان ببراعة ٠٠

« ثم قدمته الى زوجتى ٠ وفى الحال بدأت بينهما محادثة متشعبة عن الموسيقى ، أبدى لها خلالها طيب استعداده لتمرينها حتى تبلغ مرحلة الاجادة التامة ٠ وكانت زوجتى فى تلك الساعة ـ كالعهد بها فى المدة الاخيرة ـ متألقة فاتنة ، ذات جمال آسر ٠٠ وظهر لى بوضوح انها قد اعجبت به للوهلة الاولى ٠٠ بل اكثر من ذلك انها سرت حين عرض عليها ان يدربها ، وبدا سرورها على وجهها !٠٠ لكنها حين التقى بصرها ببصرى أدركت شعورى

بازاء المسألة ، فتغير تعبير وجهها ٠٠ وبدأت بيننا مباراة الخداع المعتادة : ابتسمت انا مظهرا ترحيبي بالاقتراح ٠٠ فنظر هو اليها كما ينظر الرجل الداعر الى المرأة الجميلة ، متظاهرا بأن لا شيء يهمه من امرها غير الموضوع الذي يتكلم بشأنه ٠٠ اما هي فحاولت ان تبدو طبيعية ، لكن نظرته وابتسامتي الكاذبة التي تنبيء عن غيرتي ، والتي كانت هي تفهم مدلولها جيدا ، عكرتا هدوءهـــا !

« ولحظت أنه منذ رمقها بنظرته الاولى تغيرت نظرتهـــا والتمعت عيناها ببريق خاطف ، وكأن تيارا كهربائيا قويا قد سرى بينهما ، فأحدث نوعـا من التوافق والانسجام بين نظراتهما ، وابتساماتهما : كانت تحمر وجنتاها ، فيندفع الدم الى وجهه ٠٠ وتبتسم ، فيبتسم ! ٠٠ تحـدثا عن الموسيقى ، وعن باريس ، وعن كثير من الموضوعات التافهة ٠٠ واخيرا نهض لينصرف ، فوقف برهة يثرثر باسما وقبعته في يده مسندة الى فخذه ٠٠ وكان ينظر لحظة اليها ، ولحظة الى ٠٠ كأنما ينتظر ما سوف نفعله !

« وبعد ثلاثة ايام ، عدت الى البيت بعد حضوري احد المعارض ، فلم اكد ادخل حتى لمحت معطفه على المشجب في الردهة ٠٠ وكان باب الحجرة التي فيها البيانو مغلقا ، لكني استطعت تمييز صوته وصوت زوجتي بـين اصوات النقر على البيانو ، وكان واضحا انهما ينقران خصيصا لاخفاء وطمس معالم كلماتهما ، وربما قبلاتهما ! ٠٠ يا الهي ، اية عاصفة ثارت وقتئذ في كياني !؟ ان مجرد تذكر الشعور الوحشي الذي انتابني في تلك اللحظات يرعبني الان ، فقد بدا قلبي كأنما توقف عن الخفقان ، ثم أخذ ينبض نبضات سريعة عنيفة كدق المطارق الثقيلة ٠٠ فتقدمت نحو الباب ٠٠ وفتحته !

« كان هو جالسا الى البيانو يداعب اصابعه بتلك النقرات الخفيفة ، وهي واقفة بقربه متكئة على ظهر البيانو ٠ ورأتني هي أولا ، فنظرت الى ٠٠ ولست ادري أكانت قد فوجئت فتظاهرت بانها لم تفاجأ ، أم انها لم تفاجأ حقيقة ٠٠ **على أية حال فانها لم تظهر أي اضطراب ، ولا تحركت ٠٠ وانما اكتفت بالقول في لهجة لطيفة لم اعتدها منها : «كم يسرني انك جئت ، فنحن في حيرة بشأن اختيار القطع التي سوف نعزفها يوم الاحد» ٠٠ واثارني قولها «نحن» ، لكني كتمت غيظي وانحنيت للرجل في صمت ، فضغط على يدي وجعل يستشيرني في امر الالحان التي حيره اختيارها ٠٠ وبالرغم من ان كل ذلك كان طبيعيا ومعقولا ، بحيث يصعب ايجاد مأخذ في شأنه ، فقد كنت واثقا من ان روايتهما كاذبة ، وانهما كانا يدبران خطة لخداعي !**

« وطيلة ذلك اليوم لم اكلمها في شيء ، فقد كان قلبي عامرا بالحقد عليها الى درجة خشيت معها على نفسي !٠٠ وعلى مائدة الغـداء ، سألتني عن موعد رحيلي الى بلدتي لحضور دورة انعقاد المجلس المحـلي ـ كما كنت

قد أنبأتها من قبل ـ فأجبتها بأنى سوف أسافر فى الاسبوع التالى .. ثم قضينا وقت الغداء صامتين ، وبعد الفراغ منه مضيت الى غرفة المكتبة دون أن أنطق بحرف .. وكانت هى قد انقطعت فى المدة الاخيرة عن الدخول على فى تلك الغرفة حين كنت أخلو الى نفسى .. لكننى سمعت خطواتها تقترب ، واذ ذاك وثب الى رأسى فجأة خاطر مروع: خيل الى أنها ـ مثل زوجة « أوريا الحثى » التى حدثتنا عنها التوراة ـ قد ارتكبت المعصية فعلا وجاءت تتمسح فى زوجها كى تخفى زلتها !.. وفتح الباب ، وبرزت منه بقوامها الفارع الانيق ، وعلى وجهها وفى عينيها مسحة من الخجل والرغبة فى المصالحة .. فقويت شكوكى واحتبست أنفاسى من فرط رغبتى فى قمع غيظى ، ولم أجد بدا من اشعال سيجارة لتهدئة نفسى .. فقالت وهى تجلس الى جوارى على الكنبة : « أيليق أن آتى لاجلس معك كى نتحدث ، فتهرب من الحديث بتدخين سيجارة !؟» .. والتصقت بى ملاطفة ، فابتعدت عنها متأففا .. ثم بدا الشجار المألوف ، وحمى وطيسه .. حتى قالت لى : « لقد أصبحت حقا رجلا لا يطاق .. حتى الملائكة لا يمكن أن تحتمل تصرفاتك ! » **.. واذ ذاك تملكنى حقدهائل عليها بشكل لم أعهده فى نفسى من قبل، ولاول مرة أحسست بدافع يغرينى على أن أعبر عن ذلك الحقد بالقوة الجسمانية ، فوثبت من مقعدى وتقدمت نحوها وأنا أزمع ارهابها ، وغلى مرجل غضبى ، فصحت فيها بأعلى صوتى : « أخرجى من هنا .. والا قتلتك ! » .. وأمسكتها من ذراعها ، ولا بد أن هيئتى كانت رهيبة ، فقد تولاها الخوف الى درجة أعجزتها عن الخروج أو التحرك من مكانها ، وانما اكتفت بأن تقول : « فاسيا .. ماذا بك »**

« .. فصحت بصوت أعلى وأعنف : « قلت لك اذهبى .. ما من أحد سواك يستطيع ان يخرجنى عن طورى .. وعندئذ لن اكون مسئولا عما قد افعل ! » .. وشعرت بميل شديد الى قتلها ، لكننى تماسكت .. واردت ان أشفى غليلى بتحطيم شىء ما ، أى شىء ، فتناولت أداة ضغط الورق الثقيلة من فوق المكتب وضربت بها الارض ، بجوارها ، وأنا أصيح صارخا : «أخرجى ولا ترينى وجهك ، والا فلست مسئولا عما قد أفعل !» .. وقذفت ببقية أدوات المكتب على الارض فى عنف .. فخرجت تعدو من الغرفة مذعورة !

« وبعد ساعة جاءتنى المربية تقول : أن زوجتى مصابة بنوبة عصبية .. فذهبت اليها ، ووجدتها تبكى وتضحك وهى ترتجف بشدة ! .. ولم يعاودها هدوؤها الا فى صباح اليوم التالى حين تهادنا من جديد بتأثير نوبة من نوبات ما يمكن ان نسميه بالحب او «الشوق» الزوجى ! .. وحين هدأت اعترفت لها باننى أغار من عازف الكمان ، لكنها لم تضطرب او ترتبك ، بل ضحكت ضحكة طبيعية هادئة وقالت لى : « أمن المعقول أن تحس أية

امرأة محترمة نحو رجل كهذا بغير الاعجاب الفنى بموسيقاه ؟ .. ولكن اذا أردت فأنا على استعداد للكف عن استقباله فى بيتنا بعد الآن . أما حفلة يوم الاحد فيمكنك الغاءها والاعتذار الى المدعوين منـذ اليـوم بزعم أنى مريضة مثلا . ولئن كان هناك ما يضايقنى فى ذلك ، فهو أنى أخشى أن يتوهم الرجل من هذا التصرف انه خطر الى هذا الحد واننا نخشاه ، فانى ضنينة بكرامتى ان تشوبها شائبة كهذه .. »

« وأعتقد انها كانت مخلصة فى كلامها ـ وانها كانت تقصد به ان تثير عباراتها فى نفسها موجة من الاحتقار للرجل ، تحميها من سلطانه عليها ! ـ لكنها لم تنجح فى محاولتها ، وجرى التيار على غير ما ارادت ..

*

◆ « **وحل** يوم الاحد .. وفى بداية الحفلة لم أسمح لنفسى بأن أغار من الرجل ، لكنى برغم ذلك لم أكن مستريحا ناعم البال .. فجعلت أرقب حركاته وحركات زوجتى ، وأحصى عليهما نظراتهما طيلة الوقت .. حتى بدأ العـزف فأسمعانا مقطوعة بيتهوفن المسماة «لحن كرويتزر» ، وهى مقطوعة رهيبة فى نظرى .. **يقولون ان الموسيقى تسمو بالروح ، وهذا هراء وتخريف ، فهى لا تسمو ولا تنحط بالروح .. وانما هى تثير !.. ان الموسيقى فن خطر ، وهى فى الصين تخضع لسيطرة الحكومة واشرافها ، وهذا ما يجب ان تفعله بقية الحكومات !**

« ونجحت السهرة نجاحا عظيما ، وبعد أن انصرف المدعوون تقدم منى « تروخاشفسكى » مصافحا ومودعا ، وكان قد علم منى أننى أعتزم السفر الى بلدتى بعد يومين ، وكان هو بدوره ينوى القيام برحلة الى الخارج ، فقال أنه يأمل أن تتاح له ليلة شائقة كهذه حين يعود الى موسكو .. ووقعت عبارته على قلبى بردا وسلاما ، فقد فهمت منها أنه لا يفكر فى امكان التردد على بيتى فى فترة غيابى .. ولأول مرة صافحته مصافحة ودية من صـميم قلبى وشكرته على احياء الحفلة بموسيقاه الجميلـــة .. ثم ودع زوجتى وداعا نهائيا ، بدا لى طبيعيا للغاية ، وغير متكلف .. وانتهت السهرة عند هـذا الحد ، والعلاقة بينى وبين زوجتى على خير ما يرام !

- ٨ -

◆ « .. **وبعد** يومين غادرت موسكو ، أهدأ ما أكون بالا وأسعد حالا منى فى أى وقت مضى منذ زواجنا .. وحين بلغت بلدتي وجدت في انتظارى مهاما شاقة وعملا متراكما يقتضيني

البقاء فى مكتبى عشر ساعات كل يوم ، فلبثت يومين على هذا المنوال ٠٠ وفى اليوم الثالث تلقيت خطابا من زوجتى تتحدث فيه عن الاطفال ، وعن عمها ، وعن المربية ، وعن الاشياء التى اشترتها ٠٠ ثم ذكرت على هامش الخطاب أن « تروخاشفسكى » قد زارها وأحضر المقطوعات الموسيقية التى كان قد وعد بها ، وأبدى استعداده لان يعزفها بمصاحبتها ، لكنها اعتذرت بلباقة ٠٠!

« لم أكن أذكر أن الرجل كان قد وعد باحضار مقطوعات ، بل تذكرت جيدا انه ودعنا باعتبار انه لن يعود فى القريب٠٠ ومن ثم كان لتلك العبارة التى وردت فى خطاب زوجتى أسوأ الاثر فى نفسى ، لكن مشاغلى حالت بينى وبين التوقف عن العمل للتفكير فى مدلولها ، حتى عدت الى غرفتى فى المساء فأعدت قراءة الرسالة ٠٠ بدت لى لهجتها فيها غير طبيعية ، علاوة على ما حملته الى من نبأ تردد « تروخاشفسكى » على البيت أثناء غيابى !٠٠ **فاستيقظ وحش الغيرة المخيف فى أعماقى وشرع يزأر فى قفصه ، محاولا أن ينطلق ٠٠ لكنى كنت أخشى بأسه فسارعت الى اعتقاله ، قائلا لنفسى : « ما أبشع هذه الغيرة ٠٠ ان كل ما فى الخطاب طبيعى ، ففيم كل هذا ؟ » ٠٠ وتمددت على فراشى وشرعت أفكر فى عمل اليوم التالى ٠٠ ومن عادتى ألا أنام بسهولة حين لا أكون فى غرفتى المألوفة ، لكنى فى هذه المرة أغفيت من فورى ٠٠**

« وفجأة صحوت على احساس يشبه لسعة كهربائية ، صحوت وأنا أفكر فى زوجتى وفى « تروخاشفسكى » ، وفى أنهما قد انتهزا فرصة غيابى فعاثا فى البيت فسادا !٠٠٠ فسحق الرعب والغضب قلبى ٠٠ لكنى ما عتمت أن هدهدت هواجسى ، قائلا فى سرى : « أى سخف هذا الذى يخطر لى٠٠ ما من أساس واحد لهذه الشكوك التى تعذبنى ٠٠ فكيف أهين

زوجتى وأهين نفسى بالتفكير فى شىء من ذلك ؟٠٠ ثم هل يعقل أن سيدة محترمة ، ربة أسرة وأم أطفال ، كزوجتى ، تقع فجأة فريسة لرجل كهذا ذى سمعة غير حميدة ؟٠٠ أى هراء !؟ »

« ومع ذلك فقد جن جنونى ، كيف تركتها وجئت الى هذه البقعة ؟!٠٠ ألم يكن واضحا منذ سهرة الاحد انهما قد اتخذا فى تلك الليلة الخطوة الاخيرة نحو التفاهم ؟٠٠ وان سفرى قد أزال كل حاجز يقف بينهما ؟٠٠ **وتذكرت حركاتهما وسكناتهما طيلة الحفلة ٠٠ كيف حرص كلاهما على تجنب النظر الى الآخر ما استطاع ، وكيف جلسا متجاورين على مائدة العشاء ، وكيف صب لها الماء فى قدحها فنظرت اليه وابتسمت ابتسامة يشوبها الخجل ٠٠ الخجل مم ؟ لا شك أن سرا بينهما هو الذى جعلها تخجل ٠٠ واستبد بى رعب هائل ، وهمس صوت فى داخلى : « نعم ، ان الخطوة الاخيرة من جانبهما قد اتخذت » ٠٠ لكن صوتا مضادا انبرى للاول يسفهه: « انك مجنون ٠٠ هذا غير معقول ! »**

« وأرهقتنى الوحدة فى الظلام ، فأشعلت ثقابا ، واذ ذاك شعرت بالرعب من البقاء فى تلك الغرفة الصغيرة بجدرانها المكسوة بالورق الاصفر ، فبدأت أدخن ٠٠ سيجارة بعد سيجارة ، كى أخمد بالدخان والضباب قوى عقلى وأخنق أفكارى ٠٠ ولم أنم طيلة تلك الليلة ، وقرب الفجر كان قد صح عزمى على الفرار من هواجسى بمبارحة البلدة فى الحال٠٠ عائدا الى موسكو !

« وفى منتصف الطريق انكسر شىء فى العربة اضطرنا الى الانتظار حتى تم اصلاحه ، لكن ذلك كلفنى كثيرا ٠٠ فقد تسبب فى عدم لحاقى بقطار موسكو السريع الذى يبلغها فى الساعة الخامسة بعد الظهر ، وألزمنى أن أسافر بالقطار التالى الذى يصل فى منتصف الليل !

« وكانت المسافة التى علينا أن نقطعها بالعربة خمسة وثلاثين فرسخا ، تليها رحلة بالقطار تستغرق ثمانى ساعات .. وقد استمتعت برحلة العربة متعة كاملة : فقد كانت الجياد سريعة ، والطريق معبدا ، والضباب خفيفا ، والقمر ساطعا .. فنسيت كل شىء عما قد ينتظرنى فى موسكو .. أو لعلى كنت أعرف ما ينتظرنى ، فأردت أن أتذوق أقصى ما يمكن تذوقه من مباهج الحياة !

« لكن سكينة خاطرى زالت بمجرد انتهاء رحلتى بالعربة ووضع قدمى فى القطار .. فقاسيت خلال الساعات الثمان التى استغرقها السفر بالقطار أبشع صور الآلام النفسية ، مما لن أنساه ما حييت .. ولعل السبب كان شعورى ، وأنا أتخذ مقعدى فيه ، اننى قد اقتربت من نهاية الرحلة ، وصرت أمام « الكارثة » وجها لوجه !.. **وهكذا فقدت من فورى سيطرتى على خيالى ، فجمح بى بكل عنفوانه ، وشرع يستعرض لى صورا متعاقبة تثير غيرتى .. وكانت كلها تدور حول محور واحد : ما حدث خلال غيبتى ، وكيف انتهزت اللعينة الفرصة فخانتنى !.. وهكذا تملكتنى مجموعة من مشاعر الغضب والحنق والمذلة ..**

« وكانت عربة القطار قد خلت الا منى ، فزادتنى الوحدة ثورة وهياجا .. صرت كالوحش فى القفص ، أقفز من مقعدى الى النافذة ، ثم أعود منتقلا الى مقعد آخر ، كأنما أحاول بذلك أن أجعل القطار يزيد من سرعته !.. وأخيرا قلت لنفسى : « يجب أن أفكر فى شىء آخر ، فى صاحب الحانة التى تناولت فيها الشاى أثناء المرحلة الاولى من رحلتى .. ان له حفيدا فى سن ابنى « فاسيا » ، وللحال وجدتنى أفكر فى « فاسيا » .. يا للصبى التعس، انه لا شك قد رأى غريبا يقبل أمه ! ترى أى أثر يتركه هذا المشهد فى نفسيته الغضة !.. ولكن ماذا يهمها من ذلك ؟.. يكفيها انها عاشقة !

« ومن جديد عادت الافكار تتجاذبنى ، فقاسيت عــــذابا مروعا . وكان أفظع ما عذبنى جهلى بحقيقة ما عساه قد حدث ، وشكى فيه وفى مداه ، وحيرتى بين حبى وكراهيتى لزوجتى! .. حتى بلغ بى الامر مرحلة التفكير فى وضع حد لآلامى ، وراودتنى نفسى جديا على القفز من نافذة القطار .. فان ذلك كفيل على الاقل باراحتى من شكوكى . ولكن ، هل أنهى حياتى وأتركها هى تمرح على هواها ؟ مستحيل !.. بل يجب أن أفعل شيئا يجعلها تتألم ، كى تقدر كم تألمت !

- ٩ -

◆ « **وأخيرا** وصل القطار ، بعد منتصف الليل ، فهبطت منه وفكاى يرتعشان ، وأسنانى تصطك من شدة انفعالى !.. وبحركة آلية تبعت جموع الخارجين من المحطـة حتى موقف العربات ، حيث اتخذت مقعدى فى احداها ، وأمرت الحوذى بالمسير .. وأمام باب البيت نقدته أجره وهبطت !

« كان النور مضاء فى غرفة الاستقبال ، رغم ان الســاعة بلغت الواحدة صباحا!.. لكنى لم أحاول تفسير هذه الظاهرة، فقد كنت واثقا مما هنالك .. فصعدت السلم بخطى سريعة ، وفتحت الباب فى خفــة .. وكان أول ما لفت نظرى فوق الشماعة التى فى الردهة : معطفه !

« كان يجب أن أفاجأ وأدهش .. لكنى لم أفعل .. وانما قلت لنفسى فى هدوء : « هذا ما توقعته » .. لكن انفعــالى عاودنى فى الحال فأحسست كأنى أختنق ، ولم أستطع قمع رعشة فكى الاسفل ، بل كدت أشهق بالبكاء .. لولا أن صاح بى صوت خفى يحذرنى : « لا تكن عاطفيا ولا تذرف دموعك ، لئلا يحسا بك فيتخذان أهبتهما لدخولك ، وبذلك تضيع عليك فرصة اثبات جريمتهما ، وتعيش فى جحيم الشــك والحيرة الى الابد ! »

« وبلغت سمعى أصوات مختلطة ، صوتاهما وصوت الاطباق والسكاكين . انهما يتناولان عشاءهما آمنين ، ولم يحسـا بدخولى !.. واذن فلأنصرف سريعا وفى حزم .. ولكن ، ماذا أفعل ؟ كيف أعاقبهما وأضع حدا لصلتى بها ؟.. يا للفاجرة ، ان خلوتها به فى بيتها ، فى منتصـــف الليل ، بغير مراعاة للمربية والاطفال الذين فى الحجرة المجاورة ، لدليل على مبلغ استهتارها وجرأتها ، بل وقاحتها !.. ولكن لعلها أرادت أن تجعل من تلك الجرأة الوقحة برهانا على براءة خلوتهما فى نظر الاطفال !.. أما بالنسبة لى فكل شىء واضح أكيد .. كل ما خشيته ، أن يستطيعا التملص من التهمة بالتذرع بمبرر قوى معقول لموقفهما ، يحرمنى من راحة اليقين والاقتناع باثمهما.. ويجردنى من سلاح اثباته بالبرهان الصريح !

« وهكذا رأيت أن أبادر بالتصرف : فتسللت الى حجـرة الاطفال ، حيث وجدتهم مستغرقين فى النعاس ، لكن دخولى أوشك أن يوقظ المربية .. وأثار فى هذا الاحتمال شعور الرثاء لنفسى ، والحسرة على موقفى الذليل .. فبادرت بالفرار على أطراف أصابعى الى الممر ، ومنه الى غرفتى ، حيث ارتميت على فراشى ، وأطلقت لنشيجى ودموعى العنان .. وفى رأسى دارت هذه الخواطر : « أهذا مصيرى ، أنا الرجل الابى ، سـليل أسرتى العريقة .. أنا الذى طالما حلم ببهجة السعادة البيتية ، والزوج الذى لم يفرط لحظة فى اخلاصه لزوجته .. أن أنكب بزوجة ، أم خمسة أطفال ، تعشق رجلا غريبا لان له شفتين حمراوين ؟! كلا ، انها ليست آدمية ، انها حشرة دنيئة .. ومن يدرى ، لعل هذا كان يحدث منذ بعيد ، ولعل واحدا من أطفالى الذين أعتز بأبوتهم ، منحدر من غير دمى !؟ »

وكان أول ما فعلته أن خلعت حـــذائى ثم تلصصت الى الغرفة المجاورة ، حيث كانت مجموعة من الاسلحة المختلفـة

والخناجر معلقة على الجدار ، فاستللت خنجرا دمشقيا حادا من غمده ثم تسللت على أطراف أصـــابعى نحو باب غرفة الاستقبال ، حيث كانا .. وفتحت الباب !

« لن أنسى التعبير الذى ارتسم على وجهيهما حين رأيانى! لن أنساه لانه أمدنى بشعور من الغبطة الضارية ، فقد كان تعبيرا ناطقا بالرعب والفزع واليأس ، وهذا ما كنت بحاجة اليه !.. كان هو فيما يبدو جالسا الى المائدة ، فلما فوجىء برؤيتى قفز واقفا على قدميه بغير وعى والرعب فى عينيه .. أما هى فاختلط الرعب على محياها بتعبير آخر ، تعبير لو لم أطالعه على وجهها فربما ما كان ليحدث ما حدث !.. كانت فى عينيها نظرة تنم عن الغيظ ، والضيق ، والحنق على ، لأنى بدخولى قطعت عليها متعة خلوتها بحبيبها .. وبدا كأنها لا تتمنى أكثر من تركها بغير ازعاج فى هنائها الحاضر !

« وقفت على عتبة الباب لحظة ، مخفيا الخنجر وراء ظهرى. وخلال تلك اللحظة ابتسم هو .. ثم قال بصوت متخاذل : « كنا نتمرن على عزف بعض الالحان معا .. » بينما قالت هى بنفس اللهجة : « اننى لم أكن أنتظرك الليلة .. »

« لكن أحدا منهما لم يتم عبارته ، فقد عاودنى ذلك الميل الجنونى الى التحطيم والتدمير ، واستعمال العنف ، فانسقت فى تياره واستسلمت له !.. وقبل أن يزيد أحدهما حرفا ألقيت بنفسى عليها ، وأنا ما أزال أخفى الخنجر وراء ظهرى ، لكن الوغد تبين نيتى ، فأمسك بذراعى صائحا : « فكر فيما أنت مقدم عليه .. النجدة ! » لكنى استطعت تحرير ذراعى من قبضته ، وبغير أن أنطق بكلمة اندفعت نحوه هـــو .. والتقت أعيننا ، فشحب وجهه كالاموات ، بما فى ذلك شفتاه، ولمعت عيناه ببريق غريب ، ثم ـ على غير انتظار منى ـ انحنى بجذعه فجأة ومرق من تحت البيانو ، ثم من الباب .. لائذا

بالفرار !٠٠ وفيما أنا أهم باللحاق به ، شعرت بثقل على ذراعى اليسرى يعوقنى عن الانطلاق فى أثره ٠٠ وكانت هى !٠٠ لكنى قمت بمحاولة أخرى للتخلص منها ، واذ ذاك تعلقت بكل ثقلها بذراعى واستماتت فى التشبث بها ٠٠ **فألهب تصرفها غضبى ، وأمدنى بعنف جبار ٠٠ وبحركة مفاجئة سحبت ذراعى من قبضتها ولكمت بمرفقى وجهها بكل قوتى ٠٠ فصرخت من الالم وأطلقت برغمها ذراعى ، فتأهبت لمطاردة الرجل ٠٠ لكنى تنبهت فورا الى أنه من السخف المزرى أن يطارد زوج عشيق زوجته وهو متجرد من حذائيه ٠٠ فعدلت عن اللحاق به ، واستدرت لها هى !**

« كانت قد تهالكت على كنبة ، وفى عينيها نظرات الهلع والمقت الشديد لى ، نظرات الفأر حين تنطبق عليه المصيدة ! ٠٠ لكنى رغم ذلك كنت خليقا بأن أتمالك نفسى فلا أفعل ما فعلت لو انها فقط صانت لسانها ٠٠ لكنها بدأت تتكلم وهى قابضة على يدى التى فيها الخنجر : « عد الى صوابك ٠ ماذا أنت فاعل ؟ ماذا دهاك ؟ أقسم لك أنه لم يحدث شىء ! »



« وأثارتنى عبارتها ، واستنتجت منها عكسها بالضبط ، استنتجت أن أسوأ مخاوفى قد تحققت ٠٠ فراودنى ميل الى الرد على كلامها ، ردا يناسب المقام والحالة النفسية الفظيعة التى كنت فيها ٠٠ أو ليس للانفعال أيضا منطقه وقانونه ؟٠٠ فصحت بها وأنا أقبض على ذراعها : « كفاكِ كذبا

أيتها الملعونة ! » ٠٠ لكنها تخلصت من قبضتى ، فلحقت بها وأمسكتها من رقبتها ، ثم دفعتها الى الخلف وأنا أشدد الضغط ، محاولا ٠٠ خنقها !

« يا لقوة عضلاتها ! لقد قاومت حتى أطلقت يديها ، فجذبت بهما يدى من حول رقبتها ٠٠ وفى تلك اللحظة شعرت أن الفرصة التى آنتظرتها قد واتتنى ٠٠ فغرست الخنجر فى ضلوعها !

« يقول البعض أحيانا انهم قد ارتكبوا ما ارتكبوا « فى نوبة جنونية » ، بغير أن يشعروا ! لكن هذا كذب ٠٠ فلقد شعرت، وما زلت أذكر، كل صغيرة وكبيرة من تفصيلات ذلك الحادث، بحيث أستطيع أن أجزم بأنى لم أغب لحظة واحدة عن صوابى وادراكى !٠٠ أدركت أنى أغرس خنجرى فى ضلوعها ، واننى بذلك قد ارتكبت أمرا فظيعا ـ لم أرتكبه من قبل ـ وان له عواقب وخيمة ! لكن صورة هذه العواقب تمثلت فى خاطرى كالبرق ، دون أن تثنينى عن عزمى ، ثم تبعها فورا تنفيذى لفعلتى !٠٠ وخلال تلك اللحظات الخاطفة التى استغرقها التنفيذ ، شعرت بكل مراحله بوضوح : شعرت بمقاومة مشد صدرها السميك للسلاح، ثم بانغراس حد الخنجر الماضى فى لحمها الطرى ٠٠ وأخيرا بمحاولتها القبض على الخنجر بكلتا يديها ، لاعاقته عن التوغل فى جسمها ٠٠ كما شعرت بتمزق راحتيها من جراء هذه المحاولة الفاشلة !

« لكن جرأتى تلك لم تدم أكثر من لحظات ، أدركت بعدها اننى أقتل امرأة ، وامرأة عزلاء ، هى زوجتى !٠٠ فملأنى هذا الادراك رعبا ، وبادرت باستلال الخنجر من جسمها ، وبى رغبة غامضة فى مداواة الطعنة التى طعنتها !٠٠ ثم وقفت لحظة جامدا بلا حراك ، بينما وثبت هى واقفة على قدميها وصاحت في حشرجة ، تنادي المربية : « أغيثيني ٠٠ لقد قتلني ! » ٠٠

وكانت المربية قد سمعت الجلبة فجاءت على صداها لترى جلية الامر ·· وحين بلغت عتبة الباب كان الدم ينبثق من الجرح ، واذ ذاك فقط أيقنت أنا أن أوان اصلاح ما وقع قد فات ! لكننى لم أستشعر ندما ، بل قلت لنفسى ان ما فعلته كان يجب أن يحدث · وحين بلغت المربية مكاننا كانت زوجتى قد خرت صريعة على الارض ، فانحنت عليها وهى تهتف مذعورة :- « يا للسماء ! » ·· وعندئذ ألقيت بالخنجر على الارض وبارحت الغرفة ··

« وسألت نفسى على الفور : « ماذا أفعل الآن ؟ » ·· وللحال عقدت عزمى على شىء ، فتوجهت الى غرفة المكتبة حيث أخرجت مسدسى ، وكان معبأ ، ثم جلست على مقعد وجعلت أفكر ·· وبعد حين ناديت خادمى وكلفته باستدعاء البوليس ، ثم أغلقت الباب على ، وأخرجت علبة سجائرى وثقابى وشرعت أدخن · وقبل أن أفرغ من سيجارتى ثقلت أجفانى ·· وتبينت بعد يقظتى اننى نمت حوالى ساعتين ، حلمت أثناءهما اننى تشاجرت مع زوجتى ، لكن خلافنا لم يلبث أن سوى على خير حل ·· وعند هذا الحد من الحلم أيقظنى طرق على الباب ، فقلت لنفسى : « لا شك أنهم رجال البوليس ، اذ يبدو انى قتلتها ! »

« وتكرر الطرق على الباب ، فلم أجب ، بل ركزت همى فى محاولة الاجابة عن هذا السؤال : « **أحقا حدث كل ذلك ، أم اننى واهم ؟** » وأجبت نفسى : « **بل حدث فعلا !** » ·· **وتذكرت مقاومة مشد الصدر لتوغل الخنجر ، ثم انغراس السلاح فى اللحم ·· ومرت بسلسلة ظهرى قشعريرة باردة ·· « نعم ، لقد وقع ذلك حقيقة ·· والآن جاء دورى كى أقتل نفسى ·· ولكن ، لماذا أقتل نفسى ؟** »

·· وقبل أن أجيب نفسى عن تساؤلها ، تجدد الطرق على الباب ·· فأرجأت التفكير فى الامر حتى أعرف أولا من الطارق،

ووضعت المسدس جانبا وغطيته باحدى الصحف ٠٠ ثم قمت ففتحت الباب ٠٠

« كانت الطارقة أخت زوجتى ، وهى أرملة حمقاء ، لم تكد ترانى حتى ابتدرتنى : « فاسيا ، ماذا فعلت ؟ » وانهمرت دموعها المطواعة ٠٠ فقلت : « أواه ، يا للفظاعة ٠٠! »

قالت : « انها تحتضر ٠٠ كذلك قرر الدكتور ايفان ٠٠ »

قلت : « أهو قد حضر ؟ »

قالت : « نعم ، بربك اذهب اليها يا فاسيا ٠٠ يا للفظاعة! »

« ترددت لحظة ، وأنا أفكر فيما كنت قد اعتزمته من وضع حد لحياتى ٠٠ ثم تبعتها ٠٠ وفيما أنا أعبر الممر المؤدى الى غرفة الجريحة ، عاودنى الامل فى أن يكون كل ذلك محض كابوس ! لكن رائحة اليود والمطهرات الطبية التى ملأت خياشيمى بددت هذا الامل ! ٠٠ والتقيت فى طريقى بابنتى (ليزا) فنظرت الى بعينين فزعتين ٠٠ ثم بلغت باب الغرفة ففتحته ودخلت ٠٠

« كان أول ما وقع عليه بصرى فى الغرفة فوق أحد المقاعد ثوب زوجتى الرمادى الذى كانت ترتديه ، ملطخا بالدم ٠٠ ثم رأيتها هى ، راقدة على فراشنا المشترك ، وركبتاها مرفوعتان ، وجسدها كله قد أسند على عدد من الوسائد ٠٠ وكان الجرح مغطى بضمادات تفوح منها رائحة العقاقير الجراحية الثقيلة ٠٠ وراعنى من الجريحة وجهها المحتقن ، الضارب الى الزرقة ، ورقعة من السواد تقع فى طرف أنفها وتحت عينيها ، أدركت انها تخلفت عن لكمتى اياها بمرفقى حين كانت تحاول أن تعوقنى عن اللحاق بعشيقها ! ٠٠ أما جمالها فلم أقف له على أثر ، من فرط الاعياء الذى حل بها ، والدم الذى نزفته ٠٠

« وقفت على عتبة الباب مترددا ، أتأملها فى سكون ٠٠ لكن أختها أهابت بى مشجعة : « تقدم نحوها » ٠٠ فقلت لنفسى : « نعم فلأذهب ٠٠ اذ ربما تريد أن تعترف لى باثمها ٠٠ فهل

أصفح عنها ؟٠٠ نعم ، فهى تحتضر ، ومن اللياقة أن أمنحها الغفران ٠٠ »

« واقتربت منها ٠٠ فرفعت عينيها الى بصعوبة ، ثم قالت بعد جهد ، وفى لهجة متقطعة : « لقد قتلتنى ٠٠ » ٠٠ وفى عينيها اللتين خيمت عليهما علائم الالم القاسى ، والدنو من الموت، طالعت ظل ذلك المقت الشديد لى !٠٠ وبعد لحظات ، استطردت تقول : « لكن الاطفال على أية حال ٠٠ لن يبقوا معك ٠٠ بل ستأخذهم أختى »

« ثم صمتت ،فلم تعرض بكلمة للموضـــوع الجوهرى الذى يهمنى قبل غيره ٠٠ موضوع خيانتها واثمها الفظيع !٠٠ وبعد برهة حانت منها نظرة الى الباب ، حيث وقفت أختها وبجوارها الاطفال ، فشهقت باكية وغمغمت : « فلتنعم بما جنت يداك ٠٠ أواه ، ماذا فعلت بى ؟ »

« نظرت الى الاطفال، والى وجهها الذى يضمحل ٠٠ ولاول مرة نسيت نفسى ، وحقوقى ، وكرامتى ٠٠ ولاول مرة تبينت فى زوجتى مخلوقا بشريا ، فكبرت جريمتى فى عينى ، ونازعتنى نفسى بقوة الى أن أنحنى على يدها وأسألها الصفح ٠٠ لولا اننى جبنت ، وخذلتنى شجاعتى !

« أما هى فظلت صامتة ، مغمضة العينين ، بادية الضعف والذبول ٠٠ ثم فتحت عينيها ، وتغضن جبينها وهى تشير الى بالغروب عن وجهها قائلة : « لماذا فعلت هذا ؟ » ٠٠ فصحت مستغفرا : « اغفرى لى » ٠٠ واذ ذاك تحاملت على نفسها ، ورفعت جذعها عن الوسائد قليلا ثم صاحت وهى تحدجنى بنظرات محمومة : « أغفر ؟ أى هراء ٠٠؟ لو أمكن فقط أن أعيش ! لقد نفذت ارادتك ٠٠ انى أكرهك ٠٠ أكرهك ٠٠ » ثم تملكها الهذيان فصاحت فزعة : « اطلق النـــار ، فلست بخائفة ٠٠ ولكن اقتلنا جميعا ٠٠ انه قد ذهب ٠٠ انه قـــد ذهب ! »

« وظلت تهذى الى النهاية ، فلم تتعرف على أحد ٠٠ وماتت عند الظهر

*

◆ « ٠٠ ثم ألقى القبض على ، وأودعت السجن ٠٠ وفى اليوم الثالث أخذونى الى البيت كى أراهـا لآخر مرة ، فى نعشها !٠٠ وعندئذ ، حين رأيت وجهها الميت وجسـدها المسجى ، أدركت لاول مرة فظاعة ما اقترفت !٠٠ أدركت اننى قتلتها حقا ٠٠ واننى وحدى الذى استل الحياة من جسدها الدافىء المتوثب ، وأحالها هكذا جثة كالشمع ، باردة ، بـلا حراك !٠٠ كما أدركت انه ما من سبيل الى اصلاح ما وقـع واعادة التعسة الى الحياة ! ان من لم يجرب هـذا الموقف لا يمكنه قط أن يقدر هوله وبشاعته ٠٠ »

وأجهش محدثى فى البكاء ، بحرقة تستدر الرثاء ٠٠ وأخذ جسده كله ينتفض كالمحموم من شدة الانفعال ٠٠ ثم هـدأ تدريجا ، وبقى صامتا فترة ٠٠ قال بعـدها : « وبقيت فى السجن أحد عشر شهرا ، فى انتظار المحاكمة ٠٠ ثم برأونى ، بحجة اننى قتلتها دفاعا عن شرفى !٠٠ وهأنذا أمضى الى بيتى الصغير فى الريف ، كى أقضى فيه ما تبقى من عمرى ، وحيدا ٠٠ فقد حرمونى أطفالى الخمسة ، بزعم انى لا أصلح لتربيتهم، بحكم كونى ٠٠ قاتلا ! »

وارتسمت على فم محدثى ابتسامة سخرية مريرة ، ثم لاذ بالصمت ، وشرد بصره الى بعيد ٠٠ كمن يرصد نجمه فى أفق سحيق ٠٠ مجهول !


SECRET HISTORY OF THE ENGLISH OCCUPATION OF EGYPT
BY
WILFRED S. BLUNT
ويلفريد بلنت
التاريخ السرى
للاحتلال الانجليزى
لمصر

بداية الاحتلال .. ونهايته !

◆ كأنما كان شروع « كتابى » فى تلخيص هـذا الكتاب التاريخى المشهور الذى يروى مأساة بدء الاحتلال الانجليزى لمصر ، فألا حسنا لمصر .. ونذيرا بتقويض أركان الاحتلال وبلوغه أجله المحتوم !.. اذ لم نكد ننشر القسم الثانى من تلخيصنا للكتاب فى العدد الماضى من (كتابى) حتى لفظ الاحتلال أنفاسه ـ غير مأسوف عليه ـ ووقعت حكومة الثورة الاتفاق الذى قضى على المستعمر بأن يشد رحاله .. وينقشع عن أرض مصر الى غير رجعة باذن الله !

ويسرنا بهذه المناسبة السعيدة أن نشيع الاحتلال الى مقره الاخير بنشر هذا الجزء الثالث من مأساة مولده وترعرعه على أرض وادى النيل منذ ثلاثة أرباع القرن .. وسترى فى هذا القسم صفحات مجهولة تكشف الستار عن المؤامرات والدسائس الدولية التى ألقت ببلادنا بين أنياب المستعمر !

الفصل التاسع

سقوط شريف باشا

◆ **كانت** الازمة السياسية تزحف على القاهرة بسرعة فى أواسط يناير من ذلك العام ، فقد صادف أن اقترن نشر المذكرة المشتركة بوضع مشروع اللائحة الجديدة للملجس النيابى ، وقد أصر المراقبان الماليان على الاحتفاظ فيهما بالسلطة التى ظلا يمارسانها عامين ـ اذ كانا يضعان الميزانية السنوية وفقا لما يريانه من مقتضيات ومستلزمات البلاد، ومن ثم شاءا أن لا تكون موضوع مناقشة أو تصويت من جانب المجلس ! ـ ووافقهما شريف باشا ، فوضع مشروع اللائحة دون أن يورد للمجلس حقا فى مناقشة الشئون المالية .. **لكن أغلبية النواب رأوا أن الرقابة المالية الاجنبية لا تقوم الا لصيانة الالتزامات الاجنبية،**

ولما كانت فوائد الديون الاجنبية لا ترقى الى أكثر من نصف الايرادات ، فان النصف الآخر يجب أن يكون تحت اشراف الامة ٠٠

ولم يدع اعلان المذكرة المشتركة ـ التى كانت تنذر بالتدخل المسلح ـ سبيلا الى تقريب وجهتى النظر ٠ وقد أدى ذلك الى صراع مباشر بين المراقبين الماليين والنواب ، وكان مسيو دويلينيير ـ المراقب الفرنسى ـ شديد التحمس ، واستطاع أن يجر كولفن ـ المراقب البريطانى ـ معه ٠٠ وكان النزاع من الخطورة بحيث يكفى لان يوفر الحجة للحكومة الفرنسية لما تسعى اليه من تدخل ٠٠ وازاء هذا سألنى « ماليت » ـ القنصل البريطانى العام ـ و « كولفن » أن أساعدهما مرة أخرى بالسعى لاقناع المتطرفين من الاعيان بالنزول عن شىء من تشبثهم ٠٠ وبعد استشارة الشيخ محمد عبده ـ الذى كان عادة من دعاة الحكمة والتوفيق ـ دبرت الخطة لعقد مؤتمر سرى فى بيته، بينى وبين وفد من النواب ٠٠ وكان على أن أبين لهم أن الميزانية مسألة دولية ، وقد أقروا بأن ليس لهم أن يمسوا المسائل الدولية ٠٠ وخول لى كولفن أن أقول لهم انه شخصيا لا يمانع فى اجراء تعديل بسيط ، يكون لهم بمقتضاه رأى استشارى ـ فقط ـ فى مشروع الميزانية ، على أن يتطور هذا فيما بعد الى حق التصويت ٠٠ سيما وان ماليت وعد بالسعى لدى حكومته للحصول على موافقة انجلترا وفرنسا ٠٠

بيد أن النواب تشبثوا بموقفهم بصدد الميزانية رغم ما أبداه الشيخ محمد عبده من عون لى ٠٠ ولم أقم بعد هذه المرة بالوساطة بين « ماليت » والوطنيين ، اذ أخذت الشقة تزداد بين وجهتى نظرنا بعد ذلك ٠٠ **ومع اننى بذلت كل ما فى وسعى لدى الاعيان ، الا اننى كنت فى صميم نفسى أقر بحقهم فى الاشراف على النصف الحر من الميزانية ، اذا أريد للحكم البرلمانى أن يكون حقيقة ، لا مجرد خدعة !٠٠ وتدل رسائل**

« ماليت » فى ذلك الحين ، على أنهم كانوا جميعا على رأى واحد، حتى سلطان باشا ـ رئيس المجلس ـ الذى كان يسهل ارهابه ، أعلن جهرة أن مشروع لائحة شريف كان « طبلا أجوف » ٠٠ أما أنا ، فان نفورى من الاتراك دفعنى الى أن أكون فى صف الاعيان في نزاعهم مع شريف باشا ٠٠ فقد كان تركيا متأوربا ، لكنه أوتى ما أوتيه كل أبناء طبقته فى مصر من كراهية للفلاحين ٠٠ وقد رأيت فيه نقيضا لاولئك المخلصين ، ذوى الفكر السامى ، الذين كانوا القوام الحقيقى للحركة الوطنية٠٠ وكان يجد لذة فى أن يزهو بصلاحيته لحكم المصريين ، وقد قال لى مرة : « انهم أطفال ، فيجب أن يعاملوا كما يعامل الاطفال ٠٠ لقد عرضت عليهم دستورا يليق بهم ، فاذا لم يقنعوا به ، فليمضوا بدون دستور ٠٠ أنا الذى خلقت الحزب الوطنى ، ولن يلبثوا أن يجدوا انهم لا يستطيعون أن يفعلوا شيئا بدونى ٠٠ ان هؤلاء الفلاحين فى حاجة الى من يأخذ بقيادهم ٠٠ »

من « الزيتون » الى « الفجالة » على ظهر جمل !

◆ **ولم** أكن فى القاهرة حين نمى الى نبأ استقالة شريف فى ٢ فبراير ، اذ كان لى معسكر من الخيام خارج المدينة ، اعتدت أن آوى اليه من آن الى آخر ٠٠ وكان مضروبا فى الصحراء الممتدة بين قصر القبة والمطرية ـ التى تعرف الآن باسم « الزيتون » ـ وقد لجأت اليه بعد فشلى فى المفاوضات مع الاعيان ٠٠ ولم تكن ثمة مواصلات بيننا وبين القاهرة ، فكنا فى الفترات النادرة التى نذهب فيها الى القاهرة ، نمتطى الابل الى بقعة بين العباسية والفجالة حيث نجد حميرا نستأجرها ٠٠

ومع اننى باعدت اذ ذاك بينى وبين السياسة ، الا أننى كتبت رسالة الى « التايمز » دفاعا عن السياسة الوطنية المصرية ، وقد حثنى على ذلك صديقى السير وليم جريجورى الذى أرسل من ناحيته أكثر من رسالة قوية فى نفس الاتجاه ٠٠ وكانت



كنا نمتطى الابل ..

« التايمز » اذ ذاك الصحيفة الاولى فى أوربا .. فلما نشرت الرسائل وترجمتها فى مصر الصحف الوطنية ، اطمأن أصدقاؤنا المصريون الينا ، واستعادوا ثقتهم فينا .. بيد أنها أدت الى انتهاء الود الوثيق بينى وبين الوكالة البريطانية ..

وقابلت كولفن فى ٣١ يناير ، فدار بيننا حديث هام ــ ولقد صار لهذه المقابلة قيمة تاريخية عظيمة على ضوء الاحداث التى تلتها ، اذ أعقبها بعد أيام قلائل تغير شعور المراقب المالى الانجليزى ، وتغير سياستنا تبعا لذلك ازاء القومية المصرية ــ ولقد سبق أن قلت ان كولفن كان مثالا للموظف الانجليزى الذى عمل فى الهند : قويا ، معتدا بنفسه ، صعب المراس ، يجنح الى الشدة ..

وكان الخلاف بين الاعيان وشريف على أشده اذ ذاك .. فسألت كولفن عن رأيه فى الموقف ، فصارحنى بخطورته ، اذ كان من الواضح أن الوطنيين عقدوا العزم على اسقاط شريف ، فاذا نجحوا ، فانه ــ كولفن ــ لن يترفق بهم ، وسيبذل كل ما فى وسعه للقضاء عليهم اذا هم تولوا الحكم .. وليس من سبيل الى ذلك الا بالتدخل الذى أصبح يراه ضروريا ، ولا مناص منه ، ومن ثم لن يألو جهدا فى سبيل تحقيقه ..

فلما ناقشته قائلا ان التدخل لن يعنى الا الحرب ، وان الحرب لن تؤدى الا الى ضم مصر ، قال ان هذا عين ما حدث فى الهند ، ولا ينبغى لانجلترا أن تتخلى عن المكانة التى أحرزتها فى مصر !

عرابى وزير الحربية

◆ وأثرت في كلمات كولفن حتى اننى قررت أن أنذر أصدقائى المصريين الذين كنت قد طمأنتهم من قبل الى حسن نوايا كولفن، فتبينت انهم كانوا على دراية بكل ذلك ..

وبعد يومين من مقابلتى لكولفن ، استقال شريف باشا – فى ٢ فبراير – بعد أن عجز عن اخضاع النواب الوطنيين لارادته ، وتحت تأثير تهديد كولفن بالتدخل .. فخلفه – وفقا لاختيار النواب – محمود سامى البارودى رئيسا للوزارة ، ومعه عرابى وزيرا للحربية – الامر الذى ابتهجت له مصر بأسرها – وكانت ثمة نقطة ضعف فى تكوين الوزارة الجديدة ، هى اختيار وزير الخارجية .. فان محمود سامى وعرابى ، وغيرهما من الزعماء « الفلاحين » ، لم يكونوا على المام بأية لغة أجنبية ، فاضطروا أن يختاروا لوزارة الخارجية مصطفى فهمى باشا الذى كان ، رغم ميوله الحرة ، من الطبقة الحاكمة العتيقة ، ومن أتباع شريف ، وأحد المشتركين فى اغتيال اسماعيل المفتش بايعاز الخديو اسماعيل – وكان جزءه من الجريمة هو الذى جعله يتحول فيعتنق المبادىء الدستورية– ولكنه كان كشريف ، يزدرى زملاءه الفلاحين .. وقد أظهرت الظروف – بعد شهرين – انه أساء الى هؤلاء بضعف عرضه لقضيتهم فى المراسلات الرسمية ..

وبلغتنى الانباء فى معزلى بالصحراء فتلقيتها بخليط من الفرح والقلق ، الذى لم يلبث أن سرى عنى اذ تلقيت ردا من المستر جلادستون على رسالتى التى أطلعته فيها على البرنامج الوطنى قبل ذلك بستة أسابيع .. وكان تأخره فى الرد راجعا الى حيرته بسبب السياسة التى ورطته فيها صفقة اللورد جرانفيل وجامبيتا .. وقد قال فى رسالته : « لقد أوضحت آرائى عن مصر فى صحيفة « القرن التاسع عشر » قبل ارتقائنا

الحكم بوقت قصير ، ولست أرى حتى الآن سببا يدعو الى تغييرها » ٠٠ وكان قد أكد فى المقال استنكاره لسياسة التدخل والضم ٠٠ لذلك بادرت بالذهاب الى القاهرة واطلاع عرابى على الرسالة ٠٠

تهديد ٠٠ غير ذى موضوع !

◆ على أن أمد ارتقاب أولى ثمار عداء كولفن لم يطل ، **فقد أبرق « رويتر » الى أوربا بخبر كاذب فحواه أن ما فعله الاعيان بشريف كان تحت ضغط من الجيش ٠٠ ونشرت « التايمز » أن سلطان باشا ـ رئيس مجلس الاعيان ـ قد تعرض للخطر ، وان عرابى جرد سيفه أمامه ، وهدده بأن ييتم أطفاله !٠٠ وكانت فرية ركيكة ، اذ لم يكن لسلطان باشا أولاد ، ولكنها كانت كافية للاساءة الى الوطنيين ٠٠ وقد قال لى سلطان باشا انه يعتبر عرابى ابنا له ، وان عرابى يعرف مقامه ، وما كان ليجرد سيفه أمامه الا دفاعا عنه** ٠٠ وحمل الرجل على « ماليت» لتشجيعه مزيفى الاخبار ، ثم سألنى أن أبرق لجلادستون وللصحافة اللندنية بالحقيقة ٠٠ وقد بادرت بالكتابة الى « التايمز » ، لكن رسالتى لم تنشر لسبب لا أدريه ٠٠ كما أبرقت الى المستر جلادستون ٠٠ وذهبت الى « ماليت » أجادله فى حرارة ، فزعم أن الرواية صحيحة وأنه تلقاها من سلطان نفسه ، ثم عدل وقال انه تلقاها من « مصدر يثق فيه » ، ثم احتد وقال ان ليس من حقى أن أسأله !٠٠ وكانت هذه آخر مرة أحادثه فيها فى مسألة سياسية ، فقد أثبت لى اتجاهه الجديد انه ـ مثل كولفن ـ قد انحاز لمعسكر الاعداء ، ولم يعد أهلا للثقة ٠٠ ورأيت أن من الافضل للقضية أن أكون فى لندن، على أن أعود بعد أسابيع قلائل ٠٠

وقمت بزيارة أخيرة لعرابى فى صبيحة يوم رحيلى ، السابع والعشرين من فبراير ٠٠ كنت اذ ذاك قد أصبحت

أعتبر مصر وطنا ثانيا لى ، وقد عـــولت على أن أربط حظى بالمصريين كما لو كانوا بنى وطنى ، وكانت الجالية الانجليزية فى القاهرة - عدا جريجورى - قد انساقت كالاغنام لآراء كولفن عن التدخل ، اذ لاحظت انه لم يعد تدخلا فرنسيا ، سيما وان مسيو دوفريسينيه - الذى خلف « جامبيتا » فى رياسة الوزارة الفرنسية - قلب سياسة سلفه بصدد التدخل ، كما كانت الجالية الفرنسية تحبذ مسالمة الوطنيين ، فيما عدا دوبلينيير وأولئك الذين كانوا يشغلون مناصب عالية يخشون عليها من الاقتصاد القومى فى عهد الوزارة الجديدة ٠٠ فقد نشط كولفن ودوبلينيير الى اثارة أصحاب المناصب من الاجانب ، اذ كان معروفا أن البرنامج الوطنى يرمى الى تخفيض النفقات والمرتبات غير الضرورية ، والى الغاء الوظائف المتشابهة ٠٠ ففسر كولفن ذلك بأنه « تعصب » ٠٠ **وكان مما أثار الموظفين الانجليز أكثر من سواه ، ما قيل من أن مجلس الاعيان اذا فاز بحق مناقشة الميزانية سيخفض الالف جنيـــه التى كانت تمنح لوكالة « رويتر » ، والتسعة آلاف جنيه التى كانت تمنح اعانة لدار الاوبرا الاوروبية - وكان هذا هو البرهان الغريب عـــلى «التعصب» ! وقد اعتبرت مثل هذه التوافه « جريمة » عزيت الى الاعيان والى الوزارة الجديدة !**

حديث صريح لعرابى

ولكن ، لأعد الى زيارة الوداع لعرابى ٠٠ فقد تكلمنا فى هذه المناسبة عن جميع المسائل التى كانت موضوع نقـاش لدى الوطنيين : من مشروعات للاصلاح ، ومن آمال ومخاوف ، فى الداخل والخـــارج ٠٠٠ وأكد لى عرابى انه وزملاءه الوزراء يتوقون الى بلوغ تفاهم ودى مع الحكومة الانجليزية بصـــدد جميع المسائل التى كانت موضع نزاع بينهـــم وبين الوكالة الانجليزية فى القاهرة ، ورجانى أن أبلغ المستر جلادستون

رسالة رسمية بهذا المعنى ٠٠ وشكا مر الشكوى من ماليت وكولفن - اللذين كشفا عن عدائهما بالدور الذى لعباه أخيرا وبالدور الذى كانا يقومان به فى حملة التمويه التى نظمت فى الصحف الانكليزية ! - كما تحدث عرابى طويلا وفى اسهاب عن الاصلاحات العملية التى قام بها محمود سامى وبقية الوزراء ، والتى أدرج معظمها - فيما بعد - فى قائمة الفوائد التى عادت على البلاد من الاحتلال ، ونسبها اللورد كرومر لنفسه !

مخاوف الاجانب فى مصر !

ولما كان من المخاوف التى أوحيت الى الموظفين الاجانب - الى جانب تخفيض مرتباتهم - أن اعادة التشريع الاسلامى معناه عودة تجارة العبيد ، فقد أكد لى عرابى أن الوحيدين الذين كانوا يملكون عبيدا ، هم الامراء والباشوات الذين قامت حركة الفلاح لتقوض طغيانهم ، ولتقر أحدث أساليب الاصلاح التقدمية ، وهى أن الناس منذ اليوم سواء ، دون ما فارق من عنصر أو لون أو عقيدة ٠٠ أما بصدد الجيش ، فقد حدثنى كعسكرى ووزير حربية ، بأن الحكومة الوطنية لن تخفف من احتياطاتها او تخفض من عدد الجيش ، حتى تثبت دعائم الحكم الدستورى وتعترف به أوربا ٠٠ على أنه اذا استمر خطر التدخل المسلح ، فقد تنتهج الحكومة نظام التجنيد القصير الامد ، المتبع فى فارس ، وهذا يؤدى تدريجا الى تكوين عدد كبير من الاحتياطى تحت السلاح ٠٠ فصارحته بأننى لم أكن مسافرا الا لأقضى على حملة الاثارة والاكاذيب التى انتهجتها الصحف بايعاز « كولفن » ٠٠ ونصحته بالثبات ، فان خير مؤهلات السلام هى أن تكون مستعدا للدفاع ، كما صارحته بأن ألد أعداء مصر ليست الحكومات الاوربية ، وانما هما المراقبان الماليان !

الفصل العاشر

مساء فى «داوننج ستريت»

◆ **غرقت** خلال الاربعة شهور - التى انقضت بين عودتى الى انجلترا وبين ضرب الاسكندرية - فى فيض من المراسلات والاتصالات ، كما غرقت بعد معركة التل الكبير فى مراسلات مع من كانوا ينوبون عنى فى التدخل فى محاكمة عرابى .. وهذه المراسلات هى أهم مواردى فى رواية هذا الجزء :

كان الموقف السياسى الذى وجدته عند وصولى - فى ٦ مارس - الى لندن ، يوحى بأن التحمس للقوميات والحريات الشرقية - الذى رفع جلادستون الى الحكم قبل ذلك بعامين - قد هبط وفتر فى كل مكان ، وحل محله - فى الدوائر الرسمية - ميل الى الضغط الاستعمارى .. وخاصة فى قضية الوطنيين الايرلنديين ، التى كانت نذيرا بالنسبة لمصر . وكانت البقية من الاعضاء الايرلنديين فىمجلس العموم تعرقل أعمال المجلس ، حتى أصبحت كلمة « القومية » أو « الوطنية » فى نظر حزب الاحرار سبة واهانة .. ومن ثم لم يكن الجو ملائما للدعاوة للوطنية القائمة على ضفاف النيل ، وكان اصحاب الاهتمام هم اولئك الذين يحملون سندات القرض المصرى ، وهؤلاء قد خدعوا بما كان كولفن يدسه - عن طريق الصحافة - من ان عرابى والحزب الوطنى متعصبون ، متطرفون ، لا يتورعون عن حرق «بورصة الاوراق المالية » لو استطاعوا !

أما فى وزارة الخارجية ، فكان جرانفيل ثقيل السمع ، كسولا..وقد ترك الامور تسير نفسها وفقا للظروف ، ولم يك راغبا فى التدخل أو فى اتخاذ اى عمل عدائى - او غير عدائى فى الواقع - ازاء الوطنيين .. بل انه لم يكن يجشم نفسه عناء قراءة الرسائل والتقارير ، وانما ترك كل شىء فى يدى سكرتيريه الخصوصيين ، ووكيل الوزارة سير تشارلس ديلكه ، الذى كان يفرزها ويعرض عليه من الانباء ما يروق له ! .. وكان ديلكه شريك جامبيتا فى مسئولية المذكرة الثنائية ، فلما اختفى جامبيتا من ميدان السياسة فى فرنسا ، أصبح ديلكه المحرك الاول لسياسة التدخل ، وأخذ يعمل مع كولفن ورجال المال على تهيئة المقدمات التى تضطر رئيسه الى التدخل رغم أنفه !.. وكان له فى مجلس الوزراء نصير يستطيع أن يعتمد عليه ، هو تشمبرلين الذى لم يكن يفقه الشئون الخارجية .. وكان انصار تشمبرلين فى مجلس العموم لا يفقهون شيئا من المسائل التى يدور حولها الخلاف ، ولكنهم كانوا يؤيدونه مع ذلك على طول الخط !

على اننى تبينت أن فى وسعى شخصيا ان أثير اهتماما ليس بالقليل ، فقد كانت رسائلى الى « التايمز » تلقى رواجا كبيرا ، وكان ثمة فضول الى تعرف ما أقول .. وكنت وجريجورى قد اتفقنا على أن نحيط عرابى بهالة لم تكن فى الواقع تنطوى على مغالاة ، اذ كان بطل تحرير الفلاح من المساوىء التى كان يرسف فيها . وكانت تحيط به شائعات من كل لون،صوره بعضها على أنه فرنسى أو أسبانى متنكر على أنه مصرى ، وصوره بعضها على انه دسيسة من الخديو اسماعيل ، أو من المطالب بالعرش «حليم» ، أو من السلطان .. لذلك كانت الاذان على استعداد لأن تسمع منى فى فضول كل الحقائق ..

الوزارة البريطانية ترحب بتدخلى

◆ وكانت أول زيارة قمت بها هي ان قصدت الى رقم ١٠ «دوننج ستريت» ــ مقر رئيس الوزارة ــ ومع اننى لم أقابل المستر جلادستون ، الا اننى وجدت صديقى هاميلتون ــ سكرتيره الخاص ــ الذى طمأننى الى أن « تدخلى » فى سياسة ماليت لم يقابل باستياء من رئيسه ، بل أنه قابل خطاباتى باغتباط ، وسر بالاتجاه الذى اتخذته فى مصر .. فمع أنه كان قد وقف كل ذهنه على المسألة الايرلندية ، الا أنه لم يكن ليقبل بأن تخرج اراء وزارة الخارجية الى حيز التطبيق العملى ، فان التدخل المسلح «مستحيل» مادام المستر جلادستون فى الحكم ..

وفى نفس النهار زرت ابن خالتى « الجرنون بورك » ــ الذى عرف بين اصدقائه باسم «بتون» ــ وقد قدر له أن يلعب دورا فى شئون مصر فى ذلك العام .. وكانت له مكانة فى الحياة العامة ، اذ كان أبوه نائبا للملكة فى الهند ، وكان عمه الرايت أونورابل «روبرت بورك» زعيم المعارضين من المحافظين فى مجلس العموم فى كل ما يتصل بالمسائل الخارجية . كذلك كان «بتون» مصدرا من المصادر التى يعتمد عليها «تشنرى» ــ رئيس تحرير « التايمز » ــ فى الحصول على الاخبار ، لما كان له من صلات وعلاقات بالشخصيات السياسية والبرلمانية والمالية والاجتماعية .. وقد كان عونا كبيرا لى لدي البرلمانيين والصحافة ، اذ ما أن رويت له ما عندى ، حتى وجدت وجهة نظره تختلف عن وجهة نظر هاميلتون ، فان صداقته لآل روتشيلد قد مكنته من أن يرى الخيوط التى تجذب وتحرك فى أوساط المال لتحقيق التدخل ، وكان يرى أن جلادستون لم يؤت قدرة على فهم المسائل الخارجية أو على علاج مسألة كانت لجميع « بورصات الاوراق المالية » فى أوربا مصالح فيها .. ومن ثم رأى أن اتصل ــ مع احتفاظى بمساعى لدى جلادستون ــ بأصدقائه من اعضاء المعارضة .. وأن أتحدث الى كل فرد أعرفه فى البرلمان بآرائى، وأواصل كتابة رسائلى الى «التايمز» ..

وهذا ما كان .. ففى التاسع من مارس ذهبت لمقابلة «لوردكارليل» وزوجته، ونجحت فى اكتساب عطفهما على القضية ، لاسيما عطف السيدة التى كانت سياسية ذات مكانة وطيدة ، كما كانت من أشد المتحمسين لجلادستون ، فنصحتنى بأن أثق فيه وأركن اليه .. أما زوجها فكان أقل تحمسا منهـا ، ولكنه وعدنى بأن يصحبنى الى مجلس العموم فيقدمنى الى اصدقائه من نواب حزب الاحرار .. وبالفعل ذهبنا معا ، فقدمنى الى عدد من الاعضاء ذوى النفوذ والتأثير ، وقد وعدوا جميعا بمساعدتى، وكذلك فعل ذلك الرجل الرائع «مستر تشيسن» الذى كان من السياسيين ذوى النفوذ ، رغم أنه لم يكن من أعضاء البرلمان . وكان يأخذ على عاتقه اثارة الخواطر ضد كل عدوان يتهدد الشعوب غير الاوربية .. وقد أثبت أنه ذو عون كبير ، اذ كان على اتصال يومى بخيرة البرلمانيين من الراديكاليين ..

وكنت غير خبير بالشئون السياسية الانجليزية ، فبصرنى بها « ليولف ستانلى » - شقيق زوجة كارليل - وصحبنى فى أول زيارة لى لمجلس العموم..

وفى نفس اليوم تحدث الى «فيليب كورى» - بوزارة الخارجية - حديثا طويلا عن مصر . ووجدت منه ارتيابا فى البداية ، بتأثير تقارير «ماليت» ، ولكنه اذ اقتنع بخطورة المسألة ، سعى كى أقابل «ديلكه» وجرانفيل فى اليوم التالى ..

تحريف الانباء ضد الوطنيين المصريين !

وعندما قابلت ديلكه بادرنى بسيل من شكايات «ماليت» منى، وبحملة على الوزارة المصرية الجديدة التى زعم انها انفقت نصف مليون جنيه على الجيش ولما تقض فى الحكم ستة أسابيع .. وكنت ادرك كذب هذه الرواية فذهبت الى «سندرسن» - السكرتير الخاص لجرانفيل - وراجعت الرسالة الخاصة بها ، فكشفت عن أن نصف المليون انما أنفق فى «هذا العام» لا فى «الاسابيع الستة الاخيرة» .. وكان هذا التحريف من ديلكه قد تردد فى صحف اليوم التى كان كثير منها يستمد الالهام منه ، فكان مثلا لما تحرف اليه أنباء الوطنيين المصريين .. وكان من أعوانه فى هذا الاتجاه « مورلى » ، رئيس تحرير «بال مال جازيت» - الصحيفة الوحيدة التى كان جلادستون يقرأها باهتمام - وكان مورلى ، بتأثير ديلكه وكولفن، قد أحال الصحيفة طيلة الربيع وأوائل ذلك الصيف من عام ١٨٨٢ الى لسان لنشر الاكاذيب الداعية للتدخل .. وعلى عاتقه ، أكثر من أى صحفى آخر ، تقع مسئـولية اغراء جلادستون على انتهاج سياسة العنف فى مصر ، وهى الخطيئة الكبرى فى حيـاته السياسية !

وبعد أن نبهت سندرسن الى الخطأ الخاص باعتمادات الجيش المصرى ، أخذنى « كورى » لمقابلة اللورد جرانفيل ٠٠ وقد بدأنى جرانفيل بعبارات المجاملة ، ثم تحول يقول أن عرابى كان صنيعة الخديو اسماعيل ، وان كل ما كان يجرى فى مصر انما كان مؤامرة لاعادة الخديو !٠٠ بيد اننى رحت أبين لجرانفيل مدى ما كان الزعيم الوطنى الفلاح يكن من معارضة للخديو السابق ، وسقت اليه الرسالة التى حملنى اياها عرابى الى مستر جلادستون ، فكان جوابه انه مالم ينزل الوطنيون عن مطالبتهم بحق مناقشة الميزانية «فاننى اعتبر قضيتهم ميئوسا منها ٠٠ ويجب أن تنتهى الى القمع بالقوة !» ٠٠ وشعرت بأننى اضيع الوقت فى الجدال مع المسئولين فى وزارة الخارجية ، فقررت ان أوجه الضغط عليهم من الخارج ، وانتهيت الى ضرورة مقابلة جلادستون ٠٠ كما قابلت مورلى فى مقر صحيفته فى ذلك اليوم ، ولكننى لم أر سبيلا للنجاح معه ، فقد تشبث بثقته فى كولفن !

مصائر الدول تقرر حول موائد العشاء !

◆ **وفى** ١١ مارس ، تناولت العشاء على مائدة «بتون» ، وكان قد دعا سير فرانسيس نوليز ـ سكرتير ولى العهد ـ ولورد أشر ، سكرتير لورد هارينجتن اذ ذاك ، وكليفورد ، كبير كتاب «التايمز» ، والجنرال سير جون ادى ، الذى كان من أصدقاء «ولسلى» وخدم تحت قيادته فى الحملة المصرية ، (وان ظل ممن يعطفون على قضية مصر ،حتى لقد قام بخدمات طيبة من الناحيةالانسانية بعد معركة التل الكبير) ٠٠ وظللت أتحدث اليهم حتى الساعة الواحدة صباحا ، وقد تأثروا جميعا بكلامى ، عدا «بريت» الذى كان من أنصار آل روتشيلد ودعاة التدخل ، كما كان يعمل مع مورلى فى «بال مال جازيت» ٠٠ وتبين فيما بعد انه كان من ألد اعدائنا ٠٠

وفى يوم ١٣ قابلت « جشن » الذى كان رجال الحكم يلجأون الى مشورته ، وخاصة فى الشئون المصرية ، فأكد لى أن « كل ما قد تفعله الحكومة فى مصر ، ستفعله على أسس عامة من سياستها ، لا على أساس من مصالح حملة السندات » ٠٠ وبدا لى هذا التصريح مرضيا ، سيما وانه كان يتمشى مع ما نشر فى ذلك الصباح عن استقالة «بلينيير» ـ المراقب المالى الفرنسى ـ وقد فسر ذلك فى لندن على أنه نتيجة خلاف وقع بين الحكومة الفرنسية والوزارة القومية المصرية ٠٠ ولكنه فى الواقع ـ كما ادركت ـ جاء نذيرا بأن حكومته تخلت عنه فيما كان يسعى اليه من تدخل مسلح ٠٠ ولو وقع المثل لكولفن اذ ذاك ، لتفوديت جميع المتاعب التى قدر لها أن تتوالى فيما بعد ٠٠

وذهبت لتناول الغداء مع «بتون» فوجدت لديه اللورد ديلاوار ، وهو من أقطاب اللوردات المحافظين ، وكان يملك ضيعة مجاورة لضيعتى فى «سسكس» ،

كما قام فى العام السابق برحلة الى تونس ، عاد منها وقد اكتسب عطفا على العرب . وقد عملنا معا فيما بعد فى القضية المصرية ، وأثبت أنه كان عظيم العون فى هذا الصدد ، عندما وقعت أزمة يوليو .

وبعد ظهر ذلك اليوم زرت هاميلتون ، وكان ثمة مقال مثير فى «البال مال» بعنوان «نيران بلا لهب فى مصر» ، كانت لحمته الانباء المغرضة الخبيثة ضد الوطنيين . وقد اضطرنى هذا الى أن أشرح لهاميلتون مركز كولفن بالنسبة لمورلى ، اذ رأيت أن الصمت عما يفعله وماليت لن ينتج الا ضررا ، فعولت على أن أفضى الى جلادستون بكل الحقائق عنهما ..

غير أن الضرر المقصود وقع — على أية حال — اذ جاء النشر سابقا مباشرة لمناقشة اثارها السير جورج كامبل عن مصر فى مجلس العموم ، وكان جوشن هو المتكلم عن الحكومة فسلك مسلكا معتدلا مهدئا . ومع أنه لم يصل الى درجة ان يكون وديا بالنسبة للحركة الوطنية المصرية ، الا انه انقذنا من تصريح يسىء الى القضية ..

عقلية الانجليز الاستعماريين

◆ وتحدثت فى ١٤ مارس الى السير هنرى رولينسن — الوزير المفوض السابق فى فارس — وكان حجة فى التاريخ الشرقى ، ولكنه كان مثالا متطرفا للرسميين الانجليز فى الهند من حيث آرائه .. فقال ان المصريين كانوا دائما مستعبدين ، ويجب ان يظلوا مستعبدين ، اذ لابد لانجلترا أو لروسيا من أن تبتلع بلادهم مع بقية آسيا ، وقال أنه يعرف الاسيويين معرفة تجعله يوقن من انهم لم يؤتوا أى ادراك للحكم الذاتى !

كذلك تحدثت الى «وولتر» — صاحب «التايمز» — فوعدنى بأن يوفد مراسلا خاصا الى القاهرة للحصول على أنباء صحيحة محايدة .. ولكن مدير الصحيفة مالبث ان اقنعه بأن لا مبرر لنفقات لا ضرورة لها !

وفى ١٥ مارس زرت السير جارنيت ولسلى ودار بيننا حديث طويل أكدت فيه أنهم اذا حاربوا فى مصر فلن يحاربوا الجيش فقط ، بل انهم سينازلون الشعب أيضا ، وكان لا يصدق أن الجيش سيقاوم .. وقد تطوع فأخبرنى بأنه استشير مرتين أو ثلاثا خلال الشتاء فى مسألة الاحتلال ، وقال ان احتلال مصر لا يلقى تحمسا من الجيش ، وانه نفسه سيذهب آسفا اذا أمر بذلك .. وذهب الى أن من الخير أن يحل المصريون جيشهم ويركنوا الى الحماية الاوربية .. وتحدث عن مسالك الغزو بما جعلنى أوقن من أنه لو حدث غزو فسيكون انزال الجنود فى الصحراء بين قناة السويس والدلتا .. وكان الاثر الذى تركه ولسلى فى نفسى أنه « عسكرى حاذق ، ايرلندى ، على شىء من الاعتداد والخشونة » .. ولا حاجة بى الى القول بأننى بادرت

بتكليف سكرتيرى ـ صابونجى ـ بالكتابة الى الشيخ محمد عبده أنذره بالخطر الذى قد يتأتى ـ فى حالة التدخل ـ من الهجوم الذى قد يوجه من ناحية الاسماعيلية . وأعتقد أن هذا هو الذى دعا الى المبادرة بتقوية خطوط التل الكبير بأمر من عرابى .

وتناولت العشاء مع السكرتيرين الخاصين لجلادستون ـ هاملتون و «جودلى» ـ فأطلعتهما على مسودة رسالة أعددتها وأبلغت جرانفيل فيها رسميا الرسالة التى حملنيها عرابى ، مؤكدا حسن نواياه نحو الحكومة الانجليزية وشكواه من كولفين وماليت ، فحبذها الاثنان .. وقد أشرت فى نهايتها الى وجوب ايفاد بعثة تحقيق رسمية الى القاهرة لفحص الحقائق بصفة ودية .. كما أوضحت بجلاء الدور السياسى الذى قام به كولفن فى الثورة بما أدى للخديو السابق من نصائح أثارت رجال الجيش ..

وكتبت الى عرابى فى ١٦ مارس خطابا طويلا أظهرته فيه على الاقتراح الخاص بلجنة التحقيق ، وناشدته أن يكون على حذر .. وكان المجلس النيابى فى مصر قد أصر على حقه فى مناقشة نصف الميزانية الذى لا شأن له بالديون .. كما صدق الخديو على لائحة جديدة نصت على منح البلاد دستورا على نسق أوربى .. كذلك قدم الوزراء لمجلس النواب قائمة باصلاحات عملية ، أقرها الاعضاء .. ثم ارجئت الجلسات الى الخريف التالى ، وعادت السكينة التامة تسود مصر .

وفى ٢٠ مارس تناولت الغداء على مائدة « بتون » مع عمه « روبرت بروك » الذى كان يعتزم اثارة المسألة المصرية فى البرلمان رسميا فى الاسبوع التالى .. وحضر معنا أيضا صديقه ـ وزميله فى عضوية البرلمان وحزب المحافظين ـ مونتاج جيست .. وفى المساء تناولت العشاء مع « ويلسن » ، فتناقشنا نقاشا حادا ، عنيفا ، بشأن مصر .. اذ أصر على أن الحركة الوطنية برمتها من صنع الخديو السابق ، الذى يرمى من ورائها الى استرداد عرشه !

والتقيت بعد العشاء بليدى سالسبيرى التى انتحت بى جانبا وأغرقتنى فى سيل من الاسئلة عن القضية المصرية ، فتحدثت بكل طلاقة وأنا واثق من أنها ستحمل أقوالى الى زوجها ، مع علمى أن المحافظين لم يكونوا ـ فى رأيى ـ ليأبهوا لحرية مصر ، لولا أنهم يجدون فيها مادة لاحراج الحكومة وهم فى المعارضة !

حديث مع جلادستون عن زعماء مصر

◆ **وكان** يوم ٢٢ مارس من الايام الهامة ، اذ حظيت فيه بلقاء جلادستون الذى تلقانى فى حفاوة ، وعلى مكتبه رأيت الخطاب الذى أرسلته

الى جرانفيل .. وكانت عليه سيماء التشجيع فانطلقت أروى له كل شىء بلباقة وبلاغة وهو ينصت فى اهتمام باد ، لمدة ربع الساعة .. وكنت أعرف ارتيابه فى الدور الذى يلعبه الجيش فى الحركة القومية المصرية ، فشرحته بجلاء ، وبينت تباعد الجيش عن التدخل فى الشئون العامة ، وان الاستعدادات التى يتخذها ليس لها من سبب سوى الخوف من التدخل الاجنبى .. كما أوضحت له شعور الحزب الوطنى نحو السلطان ونحو الاسرة الخديوية ونحو الخديوين السابق والحالى .. فسألنى عما اذا كنت أفضيت بهذا كله لجرانفيل ، فأجبت بأنه أوقفنى عن الحديث متشبثا بأن عرابى كان صنيعة الخديو !.. وتصادف أن أقبل جرانفيل فى تلك الاثناء يرجو لقاء رئيس الوزراء ، فنهض فى غضب وغادر الحجرة ليصرفه ثم عاد يفرك يديه وكأنه تخلص من سمج ثقيل ..

ومضيت أبلغه ما حملنى اياه عرابى من تأكيدات .. ثم أخذت أحدثه ـ استجابة لرغبته ـ عن الزعماء المدنيين فى الحركة القومية : الشيخ محمد عبده ، وأحمد محمود ، وسعد الله حلابى ، وحسن الشريعى ، وعبد الله نديم .. وقد دامت المقابلة أربعين دقيقة ، وفيما كنت أتهيأ للخروج ، خطر لى أن أسأله عما اذا كان يرجو أن أبلغ عرابى رسالة فى مقابل رسالته ، فقال : « لاأظن » .. ثم أردف فى تلكؤ : « ولكن لك الحرية فىأن توضح له ما لمست من مشاعرى » .. وعاد يقول بصوت السياسى الذى يدلى بتصريح أمام مجلس العموم : « اذا شاءوا أن يحكموا على مشاعرى فليقرأوا ما نقول فى البرلمان ، وخاصة ما أقوله أنا ، فاننى لا ألقى الكلام جزافا فى البرلمان .. اننا فى رسائلنا العامة مقيدون بالرأى الاوربى الذى لابد لنا من مراعاته ، والذى لاينظر فى رضى الى الاتجاهات الحرة فى مصر .. ولكن عليهم أن يقرأوا خطبنا »

هكذا كان جلادستون ، الانسان ذو المبادىء الانسانية .. غير أنه كان يملك شخصية أخرى للاسف ، الى جانب شخصيته الانسانية : شخصية رجل الحكم ، الانتهازى الذى يجيد خداع نفسه اذا ما اضطر الى سياسة بغيضة ، وبذلك يتفادى وخز الضمير !

على اننى لم أفطن الى هذه الشخصية الاخيرة فى بادىء الامر ، فأخذت فى الايام التالية أكتب الى أصدقائى فى القاهرة عن تفصيلات ما جرى بينى وبينه ، وأناشدهم أن يتذرعوا بالصبر ريثما تفد اليهم لجنة التحقيق التى طالبت بها .. سيما وان جرانفيل شرع يبدى اهتماما بها ـ وان لم أدر ه فى قلبه ـ حتى لقد أرسل لى فى ٢٤ مارس يدعونى الى الغداء فى أى يوم

يروق لى كى نتباحث فى مسألة اللجنة .. لكن حادثا – وربما لم يكن حادثا طارئا – حال دون وصول الرسالة فى موعدها ! وقبل أن تنقضى بضعة أسابيع ، تمكن الدساسون فى القاهرة من خدمة غرضهم باثارة متاعب جديدة زادت من صعوبات التوفيق السلمى بين البلدين ..

الفصل الثانى عشر

المؤامرة الشركسية

◆ **ونستطيع** أن نتبين مدى الامل الذى كان متوافرا فى مصر فى الاسبوع الاول من ابريل – رغم شائعات الاضطرابات – من رسالتين تسلمتهما من عرابى ، وثالثة من الشيخ محمد عبده ، الذى كان فى ذلك الربيع مديرا للجريدة الرسمية ومراقبا للصحافة فى مصر

وكانت أولى رسالتى عرابى مؤرخة فى أول ابريل سنة ١٨٨٢ ، وقد استهلها بقوله : « الى صديقنا المحترم ، المخلص . الحر الرأى . مستر ويلفريد بلنت . وفق الله مشروعاته الطيبة » .. وقد أعرب فيها عن اغتباطه بما أوردته فى الخطاب الذى كتبته له فى ١٠ مارس عن اتصالاتى الاولى ، وأكد أن كل شىء هادىء فى مصر ، وان السلام يسود البلاد ، و « **اننا واخوتنا فى الوطن نبذل كل مافى وسعنا لندافع عن حقوق أولئك الذين يقيمون على أرضنا ، دون نظر الى أية أمة ينتمون اليها .. وكل المعاهدات والالتزامات الدولية مرعية ، ولن نسمح لأحد بأن يمسها ، طالما حافظت الدول الاوربية على ارتباطاتها وعلى علاقاتها الودية بنا..أما عن انذارات «البنكيرات» الكبار والماليين الاوربيين ، فسنتحملها فى حكمة وحزم ، وفى رأينا أن انذاراتهم لن تسىء الى أحد سواهم ، وستضر تلك الدول التى ستنساق لهم عن خطأ .. ان هدفنا الاوحد هو أن نخلص البلاد من العبودية ، والظلم ، والجهل ، وأن نرفع قومنا الى المكانة التى تمكنهم من أن يمنعوا عودة الاستبداد الذى أفقر مصر فى الماضى ..** »

أما رسالته الثانية فكتبت فى ٦ ابريل ، وصدرها بقوله : « الى صديقنا الصادق » .. ومما جاء فيها : « **اننا شديدو الرغبة فى الوصول الى تفاهم بصدد صداقتنا والمصالح المتبادلة بيننا وبين الدول التى نرتبط بها ، فبالصداقة وحدها يتاح لاولئك الذين أوتوا حقوقا فى وطننا أن يستمتعوا بثمار المعاهدات والاتفاقات التى نرى أن واجبنا يقتضينا أن نحترمها ونحميها** » .. ثم أكد أن شيئا لن يعرقل الرقابة عن أداء واجبها طبقا لما كفلته لها المعاهدات الدولية من حقوق ، ثم استطرد قائلا : « **لقد عقدنا**

العزم على أن نفعل كل مانستطيع لنتيح لامتنا مركزا بين الامم المتمدينة بنشر التعليم فى البلاد ، وحفظ الوحدة والنظام ، ولن يردنا شىء عن عزمنا هذا بوصة واحدة الى الوراء .. ولن تثنينا عن تصميمنا وعود ولا تهديدات ، فنحن لا نتأثر الا بالمشاعر الودية ، اذ تلقى هذه منا أعظم تقدير» .. وأكد أن كل الاشاعات التى نشرت فى أوربا عن الاسراف فى الانفاق على الاستعدادات العسكرية بنيت على غير أساس ..

ثورة ايرلندا تعرقل قضية مصر

◆ **ولقد** ترجمت هاتين الرسالتين فورا وقدمتهما لتعرضا على المستر جلادستون ، وقد كانتا كفيلتين بأن تلقيا منه اهتماما لولا أنه لم يكن فى لندن اذ ذاك ، وكان غارقا فى مسألة أهم ، هددت كيان وزارته .. تلك هى نذر الثورة فى ايرلندا .. ولم يتح لى أن أراه هو أو هاميلتون حتى انتهت عطلات الفصح مع نهاية الشهر .. وفى تلك الاثناء تعرضت مصر لاحداث حرجة ، عرفت فى التاريخ باسم «المؤامرة الشركسية» ووصلت أنباؤها الى لندن فى الاسبوع الثالث من أبريل ، وما لبثت أن غدت ذات خطورة ، سيما وانها أتاحت لدبلوماسيتنا الفرصة التى كانت ترجوها لاقامة نزاع سافر بين الخديو ووزرائه .. وكان « ماليت » اذ ذاك قد غدا مطية لكولفن ، يسوقه بأفكاره الانجلو ـ هندية !

ولا مراء فى أن الخديو السابق اسماعيل كان مبتدع المؤامرة ، وقد علمت ذلك من سكرتيره فى ذلك الحين «ابراهيم بك المويلحى» ، فقد كان اسماعيل يمسك من نابولى أعنة حزبه فى القاهرة ، ويرسل اليهم آراءه عن طريق ابنه.. وكان جاسوسه الاكبر رجل يدعى راتب باشا،كنت قد علمت أنه من ألد أعداء الوطنيين ، وعن طريق هذا الرجل نفذت المؤامرة التى كانت تقوم على بث حركة رجعية بين الضباط الشراكسة فى الجيش ضد الفلاحين .. وذلك باغتيال عرابى ـ زعيم الضباط الفلاحين ـ واحداث انقلاب .. وكان اسماعيل يطمع فى أن يعود فى غمرة الاحداث الى الحكم !.. والواقع أن توفيق كان لضعفه ، حائرا بين التعاون مع الوزارة الدستورية وعرابى ـ وقد غدا يغار منه أشد الغيرة ـ وبين التعاون مع الرجعية التركية التى تنطوى على خطر اعادة أبيه .. وكان شريف وماليت يعملان معا ، من ناحية أخرى ، حتى صار بيت شريف مركزا للتآمر الديبلوماسى ضد الوزارة بايحاء من كولفن .. ولست أقول ان أحدا منهم كان على علم بالضربة المرسومة وعواقبها ، ولكن ثلاثتهم كانوا على استعداد لتأييد أى فريق ينجح في قلب الوزارة ، وهذا مما شد أزر المتآمرين ..

على أن المؤامرة وصلت الى سمع عرابى قبل اكتمالها ، وان كان المتآمرون لم يعتقلوا ويسجنوا الا بعد محاولة فاشلة لاغتيال عبد العال بك.. وقد كتب لى الشيخ محمد عبده تفصيلاتها فى خطاب بتاريخ ٢٥ أبريل ، أكد فيه أن الترقيات التى حدثت فى الجيش وخاضت فيها الصحف الاوربية لم تكن برغبة من عرابى وحده ، ولا رشوة منه لكسب ولاء الضباط ، وانما جاءت نتيجة قانون عسكرى جديد - بدىء فى تنفيذه فى عهد وزارة شريف - حدد مدة الخدمة ، أو نوع المرض أو العجز الذى يحال بمقتضاه الضابط الى الاستيداع .. وقد بلغ عدد الضباط الذين أحيلوا الى الاستيداع أو غادروا الخدمة بسببه ٧٥٤ ، فكان لابد من اجراء حركة ترقيات لملء الرتب الشاغرة .. أما لقب « الباشا » الذى منح لعرابى فلم يكن من السلطان ، وانما من الخديو الذى أصر على أن يكون وزراؤه باشوات ..**وأسهب الشيخ محمد عبده فى وصف كراهية المصريين جميعا للاتراك ، مؤكدا أن ليس من مصرى ، عالما كان أو فلاحا ، صانعا أو تاجرا ، عسكريا أومدنيا ، سياسيا أو غير سياسى ، يقبل عودة نفوذ الاتراك .. و « ان رجال حكومتنا الرشيدة ليرقبون كل حركة تصدر عن السياسة التركية فى بلادنا ، لقمعها فى اللحظة التى تتجاوز فيها حدودها .. »**

رأى محمد عبده فى أسرة محمد على

◆ ثم شرح المؤامرة الشركسية ، بقوله : **« لقد ظل الخديو السابق - ألد عدو منيت به مصر ، وأكثر الناس حسدا لهنائها - يصلينا بالمؤامرات لينسف حكومتنا الحاضرة ، ظنا منه أنه بذلك يمهد لعودته » .. وذكر كيف أن اسماعيل أوفد راتب باشا - فى عهد وزارة شريف - فانضم الى أخيه البكباشى محمود طلعت ، واجتذب لخدمته يوسف بك نجاتى ، ومحمود بك فؤاد ، ابن أخت خسرو باشا ، وعثمان باشا رفقى - وكلهم من الشراكسة - وراحوا يرسمون خططهم للقضاء على الوزارة القومية ، على أن يبدأوا باغتيال كبار ضباط الجيش من المصريين .. وعلى رأسهم عرابى !**

وكان محمود سامى باشا - مذ كان وزيرا للحربية فى حكومة شريف - قد سعى لاقصاء راتب باشا ، اذ ارتاب فى مغادرته خدمة الخديو السابق فى منفاه ، لكن شريف رفض ذلك متحملا مسئولية وجوده ، فقد كان راتب زوج ابنة شريف .. « ولعله أيضا كان شريكا له فى التآمر لاعادة اسماعيل ! »

وكان من الممكن أن ينتهى أمر المؤامرة عند حد اخمادها ، لولا تصرف « ماليت » الذى أولى عطفه للمتآمرين بدلا من أن يؤيد الحكومة .. فعندما قضت المحكمة العسكرية بنفيهم الى مديرية النيل الابيض ، كتب ماليت الى وزارة خارجيتنا بأن العقاب « فظيع » مع أنه كان مألوفا حتى فى عهد الرقابة

الثنائية .. كذلك نشر مراسل « التايمز » فرية زعم فيها أن عرابى زار المتآمرين فى السجن وأمر بأن يعذبوا بمشهد منه !.. وقد عزز ماليت هذه القصة فى تقاريره الرسمية رغم وضوح كذبها واتخذها حجة لدى الخديو ليشجعه على أن يختلف مع وزرائه ، وأن يأخذ القضية بين يديه .. وهو تصرف تجاوز فيه الحقوق التى حددها له الدستور الجديد !

سلطان تركيا يفكر فى شنق عرابى !

◆ **وذهبت** الى هاميلتون فى دوننج ستريت ، فى ٢٨ أبريل ، فذكر لى ان اقتراحى بايفاد لجنة للتحقيق موضوع دراسته .. كما هنأنى «بيتون» فى اليوم التالى لنجاحى ، وقال أن أزمة حادة قد نشأت بسبب مصر .. « **فالسلطان كان يفكر فى ارسال جنود لخلع توفيق وتنصيب حليم وشنق عرابى .. ولكن الحكومتين الفرنسية والانجليزية حالتا دون ذلك ورأتا تأييد عرابى ، وايفاد بعثة** » .. **وكان من المنتظر أن تلقى الحكومة بيانا فى مجلس اللوردات فى يوم الثلاثاء التالى عن سياستها فى مصر ، فان أنباء تدخل السلطان أحدثت أزمة خلقها آل روتشيلد بمعونة بسمارك .. وكانت العلاقات بين الحزب الوطنى المصرى وبين الباب العالى قد ازدادت توترا فى الاسابيع الاخيرة ، نتيجة ظروف حان الوقت لايضاحها ، ونتيجة رسائل تبودلت بين عرابى والسلطان فى شهر فبراير ، تبين نمو مركز عرابى السياسى فوق مراكز زملائه الوزراء ..**

ولعلنا نذكر المقابلة التى جرت فى القطار فى خريف سنة ١٨٨١ بين عرابى واحمد راتب باشا ، أحد مبعوثى السلطان ــ وهو غير راتب صنيعة الخديو اسماعيل ــ وقد ترتبت على المقابلة رسائل تبودلت بينهما ، أمتلك أصول اثنتين منها كتبتا خلال الثلاثة الاسابيع التى تلت تأليف وزارة محمود سامى : وأولى الرسالتين من راتب باشا ذكر فيها اغتباط السلطان بما حمله اليه من حديث عرابى فى القطار ، واقتناعه بولائه .. وكدليل على ذلك ، كلفه بأن يؤكد لعرابى أن السلطان لا يهمه من يكون خديوا على مصر ، طالما أنه يحرص على مستقبلها ويصون سيادة الخليفة وحقوق البلاد .. وان اسماعيل استطاع بالرشوة أن يغمض أبصار الخونة من ممثلى الباب العالى ، فيستبد بالمصريين ، ويسرف فى الديون التى جعلت مصر ترزح تحت عبء فادح .. واستطرد راتب يتكلم بلسان السلطان : « لذلك عليكم اليوم ــ قبل كل شىء ــ أن تحولوا دون أى شىء يؤدى الى التدخل الاجنبى ، ولا تحيدوا أبدا عن طريق العدل والحق ، ولا تنصتوا الى ترهات الغادرين »

وكانت هذه الرسالة بتاريخ ٢٢ فبراير .. وبنفس التاريخ كانت ثمة رسالة من الشيخ محمد ظافر ــ من كبار علماء القسطنطينية ــ وكان بدوره

يذكر أنه أخبر السلطان بوطنية عرابى ويقظته ومشاعره ، وأن السلطان أمره بأن يعرب له عن اغتباطه ورضاه ، وعن رغبته فى أن لا تنتقل مصر من يد الخليفة ـ كما حدث لتونس ـ الى قبضة الاجانب ، حرصا على تضامن الخلافة ووحدتها .. واستطرد ذاكرا أن مصر ذات أهمية عظمى لانجلترا وفرنسا ، وللاولى بوجه خاص .. « وأن جلالته ليرغب فى أن توجه عينا يقظة » الى المتآمرين والدساسين الساعين لخدمة الحكومتين الانجليزية والفرنسية ..

انجلترا تحمى ظهر توفيق

◆ **وترجع** الاهمية العظمى لهذين الخطابين الى أنهما يوضحان الكثير مما حدث فيما بعد فى شهر يونيو ـ أثناء حملة الدراويش .. ويثبتان أن عرابى لو أخذ على عاتقه اذ ذاك ، وخلال شهور الحرب ، مسئولية العمل كديكتاتور فى مصر ـ الى حد ما ـ لما كان ذلك بدون مبرر من الناحية الاسلامية ، لأنه كان مزودا بأوامر من الخليفة ـ بوصفه الرئيس الدينى الاعلى ـ بحماية الولاية من أطماع المسيحيين .. كما انهما يبينان كيف أن السلطان عبد الحميد كان موغر الصدر حين أعلن فى شهر أغسطس أن عرابى متمرد ، وهو الاتهام الذى استغل ضده عند محاكمته ..

وفى الوقت ذاته يجب ألا يتبادر الى الذهن أن عرابى جعل نفسه أداة فى يد السلطان ، فقد كان موقفه فى هذا الصدد ثابتا : كان يكره الاتراك ، وما كان ليحجم عن مقاومة أى تدخل مسلح من القسطنطينية بحد السيف .. وقد رأينا فى خطاب الشيخ محمد عبده الدليل .. كما أن القبض على عثمان رفقى وبعض الاتراك ذوى المكانة ، مع من قبض عليهم فى مؤامرة الشراكسة ، أحنق السلطان عليه . ولكن هذا الحنق لم يطل مذ بدأت مقاومة عرابى للتدخل الاوربى .. وما كان عطف الخليفة ليحتار بين توفيق وعرابى المدافع المنافح ضد الدولتين المسيحيتين عن استقلال ولاية مسلمة !

ومن ناحية أخرى ، ما كان عرابى ليعارض تدخل السلطان لو انه خلع توفيق وولى « حليم » ـ بعد ان تبين عرابى ان توفيق قد انحاز للانجليز ضده ـ سيما اذا كان التدخل سلميا .. وعلى العموم فقد كان من المحتمل ان يكون هذا خير حل .. غير ان الحكومة الفرنسية كانت تعارض بشدة أى تدخل من السلطان فى شئون مصر ، كما كانت الديبلوماسية الانجليزية تزداد كل يوم تحيزا لتوفيق .. وكان كل ذلك سببا فى أن بعثة التحقيق التى وعدت بها لم توفد .. بل ان شيئا مما قيل لى فى دوننج ستريت ان أتوقعه ، لم يحدث .. ومن الصدف ـ السيئة لمصر ـ أن أزمة القاهرة التى طال امد العمل لها وقعت فى الوقت الذى وقعت فيه ازمة خطيرة اخرى فى

ايرلندا ٠٠ فان حكم الارهاب والعنف والاستبداد الذى ساد طيلة الشتاء ، لم يخفف من حدة التمرد هناك ، مما حدا بجلادستون الى ان يقنع مجلس وزرائه باقرار سياسة تنطوى على شىء من المسالمة ٠٠ فحدا هذا بحاكم ايرلندا الانجليزى الى الاستقالة ! ٠٠ وبدلا من ان يلقى جلادستون بيانه الموعود عن مصر بمجلس اللوردات فى ٢ مايو - ردا على استجواب من اللورد ديلاوار - فوجئت به يعلن للمجلس استقالة « فورستر » من منصبه فى ايرلندا ٠٠ وطغت مسألة ايرلندا بعد ذلك على مسألة مصر ٠٠ ففى السابع من مايو اغتالت جماعة سرية اللورد « فردريك كافنديش » - الذى خلف فورستر فى ايرلندا لينفذ سياسة اللين الجديدة ، وكان كبيرا للموظفين الانجليز هناك - ومع ما ثبت من ان الجماعة السرية لم تكن ذات علاقة بحزب بارنيل البرلمانى - الذى كان يتزعم حركة استقلال ايرلندا - الا ان الرأى العام فى انجلترا لم يشأ ان يفرق بين الاثنين ، وانطلقت الصيحة عامة باتخاذ الشدة مع المتمردين ! ٠ ٠ وراح جلادستون يكافح هذا الاتجاه ، لكن العوامل كانت تتجمع ضده ، سيما وان « هارتينجتن » كان شقيقا لكافنديش ، وحمل مقتله على محمل شخصى فراح يطالب بالثأر ، وانقلب الى واحد من غلاة أعداء الحركة الوطنية الايرلندية !

وغدا جلادستون أمام أمرين : اما أن يستقيل ٠٠ واما أن يتحول عن سياسة الملاينة ٠ وقد اختار الامر الاخير ، ازاء تكتل أغلبية وزرائه ضده ، وارتضى سياسة الشدة ٠٠ وهكذا غدت مصر بين مخالب الذئاب !

التفكير فى خلع الخديو !

◆ وفى ١١ مايو ، كتبت فى مذكراتى اننى تلقيت عن مصر انباء سيئة : **فقد رفض الخديو توقيع الحكم على المتآمرين الشراكسة ، وبدأ عرابى ومجلس الاعيان يتحدثون عن « خلع توفيق » ! ٠٠ وبادرت لفورى الى دوننج ستريت ، فوجدت ان جلادستون متغيب لتشييع جنازة « كافنديش » ، وكنت متلهفا على ان احصل على التصريح الذى كان جلادستون قد وعدنى بأننى سأجده فى البيان الذى لم يلق فى مجلس اللوردات .. وبدا لى أن من المحزن حقا أن يتوقف مصير أمة بأسرها ، وأمة من امجد الامم فى التاريخ ، على السعى لكسب اهتمام رجل فرد عجوز لنصف الساعة ٠٠ اذ كنت موقنا من اننى اذا خلوت الى جلادستون نصف الساعة لاستطعت ان اقنعه !**

وفى ١٢ مايو ، تبينت ان روتشيلد كان يبذل جهدا شديدا لدى « فريسينيه » - رئيس الوزارة الفرنسية - ليحمل حكومته على العمل لتنصيب حليم باشا فى مكان توفيق ٠٠ وان الحكومة البريطانية قد امرت بتجهيز أسطول بحيث يكون معدا فى خلال أسبوعين فى بلايموث !٠٠ وفى ١٣ مايو

تلقيت من جلادستون أنه لا يستطيع ان يدلى بتفصيلات ، ولكن جرانفيل سيتحدث الى مجلس اللوردات بعد يومين .. وكان كل ما وعد به هو ان سياسة الأحرار ستبقى وفقا لمبادىء حزبهم ..

وكانت تفصيلات الازمة التى حدثت فى القاهرة فى النصف الأول من شهر مايو تتلخص فى ان الخديو حين وجد نفسه مسوقا الى توقيع قرار نفى الشراكسة الذين كان بينهم اصدقاء له ، لجأ الى مشورة ماليت الذى زين له ان يرفض التوقيع ووعده بتأييد انجلترا ، ويمكن القول بأن هذه هى اللحظة التى قرر توفيق فيها ان يلقى بنفسه فى حمى انجلترا فى صراعه مع وزرائه ..

وزاد من خطورة الرفض ان اتضح ان قنصل انجلترا هو الذى اشار به ، فغضب رئيس الوزارة المصرية ، وارسل لاعضاء المجلس النيابى يدعوهم للاجتماع ـ مع ان الدستور يقصر حق الدعوة على الخديو ـ على ان عددا كبيرا منهم لبى الدعوة وعقدوا اجتماعا فى دار سلطان باشا انتهوا فيه بأغلبية ٤٠ صوتا الى ٣٠ الى تأييد الوزارة ، والى أن لا مناص من خلع توفيق اذا هو ظل على تآمره مع قنصلى انجلترا وفرنسا ضد الوزراء .. وفى تلك الاثناء ، تلقى ماليت برقية من وزارة الخارجية باستحسان خطته وتأييدها ، فلما خشى ان يتزحزح الخديو عن موقفه ، أخبره بأن أسطولين من انجلترا وفرنسا سيتجهان الى الاسكندرية بحجة حماية الرعايا الاوربيين.. واذ ذاك أرسل توفيق الى سلطان باشا وراح يذكى مخاوفه من التدخل الاوربى ، حتى أغراه على أن يناصره .. كما كسب تعضيد ستة نواب آخرين . وفى هذا الموقف الحرج وصلت برقيتى الى عرابى ، ويبدو أنه اطلع ((سلطان)) عليها .. ومع ذلك ظهرت الصحف الانجليزية فى يوم ١٣ مايو وفيها أن المجلس انضم الى الخديو ضد عرابى .. ثم نشرت فى ١٥ مايو أن محمود سامى استقال .. وفى ذلك اليوم بالذات نوقشت المسألة المصرية فى مجلس اللوردات ، فاذا بيان جرانفيل لا يخرج فى معناه عن أن يكون تكرارا للمذكرة الثنائية التى صدرت أيام جامبيتا .. وزعم جرانفيل أن البلاد كلها كانت تؤيد الخديو ضد وزرائه .. اذن فهذه هى سياسة الاحرار التى وعد بها جلادستون ! ؟

برقياتى الى زعماء مصر

◆ **اذ ذاك** شعرت بأننى فى حل من كل التزام يربطنى بجلادستون الذى بدا لى أنه غرر بى .. وقضيت الليل طوله أفكر .. وما أن فتحت مكاتب التلغراف ابوابها فى صباح ١٦ مايو ، حتى ابرقت الى عرابى بأن جرانفيل صرح فى البرلمان بأن « سلطان » انضم الى الخديو ضده ، وطلبت أن يبرق لى سلطان بالنفى ان لم يكن ذلك صحيحا ، ونصحتهم بالاتحاد .. كذلك ابرقت

الى سلطان وأنذرته بالخطر ، وأبرقت الى النواب الوطنيين : «بطرس باشا» ، و « ابو يوسف » ، و « محمود باشا الفلكى » انذرهم بأنهم ان تخلوا عن الاتحاد مع الجيش فان « اوربا ستضم بلادكم » ٠٠ وأبرقت ايضا بنفس المعنى الأخير الى المشايخ محمد عبده ، والهجرسى ، وعبد الله نديم ٠٠ وكنت أدرك أن أمر هذه البرقيات سيثير غضب وزارة الخارجية ، ان لم يغضب جلادستون ايضا ٠٠ فقد كانت البرقيـــات التى ترسل عن طريق شركة « ايسترن تليجراف » مباحة للوكالة الانجليزية بالقــاهرة ٠٠ ولم يطـل انتظارى ، فما لبثت ان تلقيت برقية من سلطان باشا يؤكد ان الخلاف بين الخديو والوزراء قد زال وأن الهدوء مسيطر ٠٠ فبادرت ، لفرحتى ، بالابراق الى جلادستون والى « التايمز » بنصهذه البرقية ٠٠ وفى ١٧ مايو تلقيت برقية من شيخ الاسلام « الامبابى » يؤكد زوال الخلاف ، ورضى الحـزب الوطنى عن عرابى ، ووحدة الامة والجيش ٠٠ ثم برقية من مجهول تؤكد أن الامة ببدوها وفلاحيها وعلمائها وحدة وراء عرابى والوزراء ٠٠ وبرقيـــة من الشيخ محمد عبده بالمعنى ذاته ٠٠ ونشرت الصحف فىذلك اليوم أن الخديو قد صفح عن وزرائه نتيجة وساطة من سلطان باشا ٠٠ فذهبت مغتبطا الى دوننج ستريت واطلعت «هاميلتون» و «جودلى» على البرقيات التى اعتبرتها نصرا ديبلوماسيا ٠٠ وتقبلاها بابتهاج دلنى على أن فريق جلادستون كان يحبذ انتصارى على وزارة الخارجية ٠٠

وعد كاذب بعدم ضرب الاسكندرية !

◆ على أن الصباح التالى حمل أنباء كانت فى حكم الهزيمة : فقد نشرت الصحف برقية لرويتر تضمنت نص برقيتى الى النواب وما ورد فيها عن ان « اوربا ستضم بلادكم » ٠٠ وقال مراسل « ستاندارد » القاهرى انه مخول من سلطان باشا بأن ينفى ان البرقية التى نشرتها فى « التايمز » صادرة منه ! ٠٠ وكنت قد اعددت رسالة الى جلادستون اتهم فيها وزارة الخارجية بأنها تبنى خططها على معلومات زائفة ٠٠ فأرفقت بها رسالة اخرى أنفى فيها ما زعمه مراسل « ستاندارد » ، وانبأت هاميلتون بأننى سأنشر الرسالتين فى « التايمز » ٠٠ على ان الرسالتين لم تنشرا ، اذ اتصل بى هاميلتون فى المساء وسألنى أن لا أنشر برقية شيخ الاسلام فى مقابل الوعد بأن الاسطول لن يرتكب اى عنف فى الاسكندرية ، وان ابحاره الى هناك انما قصد به حماية الرعايا البريطانيين ، وأنه لا يرى احتمال نزول أى جنود الى البر المصرى ٠٠

وكان قبولى عدم النشر خطأ نتج عنه فيما بعد ضرر بالغ ، اذ ما لبثت وزارة الخارجية أن تنكرت لكل هذه الوعود !

الفصل الثانى عشر

دسائس ، ومقاومة للدسائس !

◆ **كان** تاريخ الاسابيع الستة التى انقضت بين وصول الاسطولين الانجليزى والفرنسى الى الاسكندرية ، وبين ضرب المدينة بالمدافع، تاريخ جهود مستيئسة من ديبلوماسيتنا لاستعادة نفوذها المفقود ٠٠ بل تاريخا للمحاولات اليائسة العاجزة التى راحت تبذلها وزارة الخارجية لدفع جلادستون الى الاقدام على انتهاج سياسة العنف ٠٠ مما تحول بالمسألة من عواملها السياسية أو المالية ، الى عوامل شخصية بحتة !

كانت فرنسا قد عدلت عن سياسة جامبيتا العدوانية ٠٠ فى حين أن ألمانيا والنمسا كانتا تهتمان بمصالح مالية ـ لا سيما تلك الخاصة بآل روتشيلد ـ فكانتا تريان الاكتفاء بتدخل السلطان لخلع توفيق وتنصيب حليم خديوا على مصر ٠٠ ومع ان هذا لم يكن الحل الذى يقنع الزعماء الوطنيين ، الا أنهم كانوا خليقين بأن يقبلوه لانهاء الازمة ٠ وكانت دول أوربا تعطف على الحركة الوطنية ، لا سيما سويسرا وبلجيكا وايطاليا ، بل على الرغم من أن حكومة ايطاليا كانت تؤيد السياسة الانجليزية ، فان فيلقا من المتطوعين انتظم تحت قيادة غاريبالدى لمعاونة عرابى عند الحاجة !٠٠ ولم يكن من متحمس للعنف سوى الرأى العام فى انجلترا ، بتأثير تحريض الديبلوماسية والصحافة !

وكان العنصر الشخصى فى النزاع واضحا ٠٠ فقد أظهر ماليت وكولفن عداءهما للوطنيين عندما حدث التغيير الوزارى فى شهر فبراير ، وكانا يريان أن بقاء هؤلاء فى الحكم عار عليهما !٠٠ كذلك كانت لوزارة الخارجية عواطفها الخاصة ، وكان ديلكه رجلا طموحا لا يرتضى الفشل ٠٠ لذلك شهدت

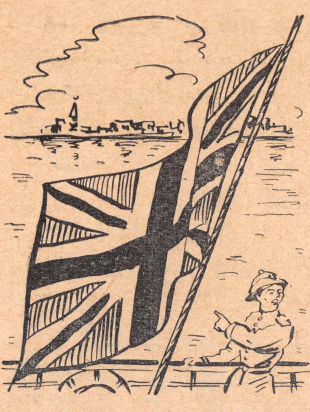
الفتـــــرة من منتصف مايو حتى ١١ يوليو ـ تاريخ ضرب الاسكندرية ـ سلسلة من المناورات الديبلوماسية التى كانت تستند الى التعلل بحكم الضرورة ، والتى كانت على النقيض تماما من كل مبادىء جلادستون ٠٠

عرابى يتوجس شرا !

◆ **ومن** ناحية أخرى نجد أن الحزب الوطنى، فى اللحظة التى أتاح فيها للبلاد حكومة قومية مســـــتقلة ، وكفل الحريات الشخصية والمدنية ، وفى اللحظة التى كان مشغولا فيهـــا بالاصلاح راغبا فى الوئام مع العالم كله ٠٠ فى هذه اللحظة ، ألفى نفسه محوطا بالمؤامرات والفتن ، تؤيدهما الدســـائس الاجنبية !٠٠ وقد كتب لى عرابى بتـــاريخ ٢١ مايو يقول :

«كل الناس فى استياء من ارسال السفن الفرنسية والانجليزية، ويرون فيها نذيرا بسوء النوايا من ناحية الدولتين ، واعتداء على شئوننا دون داع أو سبب ٠٠ والحقيقة ان المصريين قد قرروا أن لا يلينوا أمام أية دولة ترغب فى التدخل فى ارادتنا الداخلية ، كما أنهم مصممون على الاحتفاظ بحقوقهم التى أقرتها لهم معاهدات الدول ، ولن يسمحوا بأن يسلبوا أية صغيرة منها ما دام فيهم عرق ينبض ! كما أنهم سيسعون بغاية ما فى وسعهم لرعاية المصالح الاوربية وحماية حياة الرعايا الاوربيين وممتلكاتهم وكرامتهم ، ما داموا يلزمون الحدود التى بينها لهم القانون ٠٠ ويحسن ببريطانيا العظمى أن لا تعتمد على مندوبيها فى هذه البلاد ، لانهم من ذوى النزعات الخاصة التى يرغبون فى خدمتها ٠٠ ونعتقد أنهم ، حتى وان نجحوا ، فلن يكون ذلك من صالح حكومتهم !»

كذلك كتب لى جون نينيه السويسرى ـ وهو آخر أوربى فى مصر بقى متحمسا للقضية القومية ـ وترجع أهمية خطابه الى أنه كان بتاريخ ١٩ مايو ، آخر يوم استمتعت فيه مصر وهى



آمنة مطمئنة بحكومتها القومية - اذ وصل الاسطول الى الاسكندرية فى اليوم التالى ! - وقد أكد السويسرى المذكور فى رسالته أن مصر موحدة ، وان عرابى يرقب الحوادث فى حكمة ، ومن حوله الجيش والدولة - ريفها ومدنها - واستنكر وصول الاسطول ، كما اتهم «ماليت» بأنه يبث الخوف بدلا من أن يطمئن الاهالى ٠٠ ثم أضاف : « وليست لديك فكرة عن الاكاذيب الفظيعة التى ترسل فى كل يوم الى « التايمز » و « ستاندارد » و « الديلى نيوز » عن طريق الوكالات التلغرافية » ٠٠ ثم أكد ان الاوربيين لم يتعرضوا لأية اساءة أو اهانة ٠٠ »

حكمة المصريين تفسد خطط الانجليز !

◆ **وكان** يضاعف من سخط القوم أن الظلم الهائل الذى أحاق بهم كان على يدى انجلترا ، وهى التى كانت تتزعم سواها فى الحرية والمذاهب الانسانية !٠٠ وتحت التهديد المستمر بالعنف لم يعودوا يثقون بأحد ، وأصبحوا يتوقعون الغدر والخيانة من كل ناحية ٠٠ ومع ذلك فان ثباتهم وهدوءهم كانا عجيبين ، مما جعل ماليت وكولفن يشعران بهزيمة ديبلوماسية حفزتهما للسعى الى حل عنيف ، بمدافع الاسطول !٠٠ وكان هذا هو الذى أخرج المصريين أخيرا عن مسلكهم الهادىء ، ومكن وزارة خارجيتنا من أن تزعم لنفسها نصرا عليهم !

وما كان على مسلك عرابى أى غبار .. فلو انه لم يتشبث بموقفه ، ولم يرفض ما بذل له من وعيد أو ما لوح له به من رشوة كى يغادر مصر .. وبالتالى ، لو ان المصريين لم يخوضوا القتال ، لارتد الفلاحون الى عبودية تفوق أضعاف ما كانوا فيه فى سنة ١٨٨٠ .. ولصاروا « عبيدا » للسادة الاتراك ، ولاوربا .. بل ولعاد الحكم التركى الشركسى فى أسوأ أشكاله ، ولعززت الرقابة المالية بسلطات سياسية تمارس من أجل مصلحة أوربا المالية فحسب .. ولما كانت ثمة حرية مدنية أو شخصية ، ولا صار لحقوق الاهالى أى اعتبار .. ولكن عرابى أنقذ بنى وطنه من كل هذا ـ على الاقل ـ فقد نجاهم من عار القعود عن الجهاد فى الفرصة الوحيدة التى سنحت لهم فى تاريخهم كى يحاربوا من أجل حريتهم !

سلطان باشا يذعن للانجليز !

◆ على أن الازمة لم تكد تنتهى بين الخديو والوزراء ، حتى عادت الغيوم تتلبد من جديد: فقد علم ماليت بماكان من برقياتى للزعماء الوطنيين ، فاستدعى سلطان باشا، واستطاع بالتهديد بالاسطول حينا، وبالوعود حينا آخر ، أن يغريه على أن ينضم الى الجانب الذى تشايعه الرقابة الاوربية .. ولقد ندم سلطان باشا فيما بعد أشد الندم ، حتى ليقال انه ظل محسورا الى أن واتته منيته .. اذ كان ماليت ـ فى تلك اللحظة الحرجة ـ قد وعده بشرفه بأن حقوق البرلمان المصرى ستظل موضع احترام . على أن أحدا آخر من النواب ذوى المكانة لم يسمح لنفسه بأن يتخلى عن نصرة الوطنية .. وانتهت الضربة الديبلوماسية التى استعان ماليت بالاسطول لاحرازها ، الى أن تكشفت عن أنها مجرد خدعة للتهويش .. فقد أساء تقدير قوة الشعور الوطنى ، واذ تبين فشله الديبلوماسى انصاع نهائيا الى كولفن فى وجوب انتهاج القوة .. وفى ٢٥ مايو ،

أصدر ماليت وسينكيفيتش انذارهما الذى قررا فيه انهما باصداره يستجيبان لاقتراح سلطان باشا ، والذى طالبا فيه باستقالة الوزارة ومغادرة عرابى للبلاد !٠٠ وكان أن استقالت الوزارة فى ٢٧ مايو ، فاذا القاهرة تهب عن بكرة أبيها فى اليوم التالى مصرة على بقاء عرابى وزيرا، فأعيد تعيينه وزيرا للحربية، مع منحه سلطات تكاد تكون ديكتاتورية !

وكان الموقف يبدو لى وأنا فى انجلترا حالكا ٠٠ وفى ٢١ مايو ـ وكان يوم أحد ـ التقيت باللورد جرانفيل صدفة فى مأدبة ريفية ، وكان قد نمى الى أنه فى أشد الغضب منى بسبب البرقيات التى أرسلتها أثناء الازمة ٠٠ ولكن خفف من حرجى أن وجدت عطفا من جميع المدعوين ، سيما وان الانباء كانت قد جاءت بأن عرابى رد على وصول الاسطول بالدعوة الى السلاح، فاستجاب له ٤٠٠٠جندى من الاحتياطى (الرديف) ! وبدا جرانفيل مهموما ٠ ومع انه تحدث معى طويلا الا أنه تجنب ذكر مصر ٠٠ بينما كنت أفيض فى الحديث عنها مع بقية المدعوين ! ـ (ومما هو جدير بالذكر أن جرانفيل أرسل الى ماليت بعد هذه الحفلة بيومين ـ ٢٣مايو ـ البرقية الخطيرة التى خولت له أن يتصرف « وفقا لما يقتضيه الموقف » ، مما أدى الى انذار ٢٥ مايو !) ـ وكانت صدمة له أن سلطان باشا أنكر فى غداة اصدار الانذار انه صاحب الاقتراح ٠٠ كما ان الانذار ذاته رفض ، وان استقالت الوزارة على الاثر

تحرج الموقف فى مصر

◆ **وشعرت** بأن الموقف يزداد سوءا فى مصر ، فعولت على الرحيل الى هناك ، وكتبت لهاملتون كى ينبىء جلادستون بذلك ويقول له اننى سأرحل لأكون مع الزعماء الوطنيين ٠٠ **« سأهيب بهم ، أول كل شىء ، بأن يعزفوا عن الخلافات التافهة ليواجهوا الخطر ٠٠ وسأهيب بهم ، كما اعتدت دائما ، بأن**

لا يتخاصموا مع الخديو ، واذا سنحت لى الفرصة فسوف أدعو الخديو الى أن لا ينخدع باغراءات القنصلين فيختصم مع الشعب !٠٠ وسأشجع عرابى فى عزمه على أن يحتفظ بمقاليد الجيش بين يديه ببقائه وزيرا للحربية ، ولكنني سأنصحه بالتخلى عن الوزارات الاخرى للمدنيين ٠٠ وسأدعو المصريين الى أن يحتفظوا بحسن العلاقات مع السلطان ــ الذى يوشك أن يرسل جنوده الى البلاد ــ ومع الدول الاوربية ، كى تسلم بحقوقهم الدستورية ٠٠ وفى الوقت ذاته سأنصحهم بكل قوة أن يلينوا بعض الشىء مع المراقبين فى موقفهم الراهن ازاء الميزانية ، فيرجئوا التشبث بحقوقهم الى العام المقبل ٠٠

« على أنني سأهيب بهم أن يقاوموا الغزو الذى يوجه اليهم من أية ناحية ٠٠ »

اسطورة تعلق الشعب بالخديو !

◆ **وكانت** تقارير « ماليت » قد حملت وزارة الخارجية على الاعتقاد بأن عرابى لم يكن يلقى تأييدا خارج نطاق الجيش ، وان الشعب كان متعلقا بالخديو ٠٠ وأخذت « البال مال » تضرب على نفس النغمة ، حتى زعمت أن الخديو بات فى قصر الاسماعيلية مساء ٢٧ مايو محوطا باثنى عشر ألفا من البدو المخلصين له ، فاذا تعرض الجيش لهؤلاء البدو نشبت حرب أهلية !

بيد أن أسطورة تعلق الشعب بالخديو لم تدم أكثر من ثمان وأربعين ساعة ، وفى ٣٠ مايو نشرت « البال مال » تقول « آن الاوان لعمل سريع فى مصر ، فان الخديو سجين قصره ، والاثنا عشر ألف بدوى الذين قيل انهم يحيطون بالقصر قد تلاشوا فى الهواء » !

وفى تلك الاثناء كنت أتأهب للسفر لمصر ٠٠ لكنى فوجئت ببرقية من هاميلتون ، قابلته على أثرها بعد ظهر يوم ٣١ مايو ،

فراح يناشدنى أن لا أسافر الى مصر ، اذ قد يساء فهم موقفى نظرا لاتصالى بجلادستون ، ووعدنى بأنه لن تنزل أية جنود الى الاراضى المصرية ، ولن يكون ثمة تدخل على الاطلاق . وازاء هذا التأكيد وافقت على العدول عن السفر ، على أن أوفد سكرتيرى « صابونجى » بدلا منى ليرقب الموقف ويكون رسولا بينى وبين الوطنيين

اكذوبة رسمية لرئيس الوزارة الانجليزية !

◆ وفى أول يونيو استمعت الى جلادستون وهو يعلن فى مجلس العموم أن انجلترا لن تنزل جنودا الى أرض مصر ، لانه يرى أن مثل هذا العمل يعرض أرواح الاوربيين للخطر .. ولكنه ما لبث أن ألقى بقنبلة غريبة اذ قال ان عرابى « قد كشف القناع » ، وانه هدد بخلع الخديو وتنصيب حليم خديوا على مصر !.. وعلمت ان جلادستون بنى فريته هذه على برقية من ماليت قال فيها أن الخديو استدعاه وسيتكيفيتش وأنبأهما انه « نمى الى علمه ان الجيش يعتزم بعد ظهر ذلك اليوم ـ أول يونيو ـ خلعه واعلان حليم باشا خديوا على مصر .. وقال الخديو انه لا يكاد يصدق صحة هذا » .. ومع ذلك ، فقد أقدم جلادستون ـ بناء على مثل هذه التكهنات التافهة ـ على اتهام عرابى واستثارة مجلس العموم ! ولقد فقدت ثقتى فيه بعد هذا .. فلم أعد اطمئن اليه قط !

واتفق « بتون » مع صابونجى قبل سفره على أن يسمح للتايمز بنشر كل ذى بال من برقياته ، واتفقنا على شفرة خاصة .. ثم سافر صابونجى مزودا منى برسائل الى الزعماء الوطنيين ..

(اقرأ مأساة ضرب الاسكندرية وبدء الاحتلال في القسم الاخير من الكتاب فى العدد القادم)

الخالدون



عظماء .. فى غير السياسة

عزيزى القارىء ...

فى الاعداد السابقة قدمت لك فى هذا الباب على التوالى قصص حياة : « ديفاليرا » .. و « غاريبالدى » .. و «لويس باستير» .. و«اميل زولا» .. و«ماركونى» .. و«تشايكوفسكى» .. «فمصطفى كمال» .. ثم «شوبان» .. و«جى دى موباسان» و«مختار» و « تشارلس ديكنز » و « بيتهوفن » و « موسولينى » و « شيللى » و«بلزاك» و « بودلير » واخيرا « دستويفسكى » .. وهم أولئك العظماء فى السياسة ، والطب ، والادب، والاختراع، والموسيقى .. والفنون .. الخ

واليوم أقدم لك فيما يلى حياة زعيم الادب الكوميدى الفرنسى « موليير » ، كما أرخها زميله الاديب العظيم « فولتير »

وفى الاعداد التالية اعرفك باذن الله بهؤلاء الذين تشتاق الى معرفتهم منذ بعيد : لورد بيرون ، براونتج ، شوبرت .. فولتير ، شوبنهاور ، نيتشة، أرسطو .. بوذا، كونفشيوس .. داروين ، اينشتين .. شكسبير ، جوته ، اديسون ، فورد . . والتر سكوت ، ديماس .. كولمبوس ، الاسكندر المقدونى ، بطرس الاكبر ، فردريك ، بسمارك .. مايكل أنجلو ، رفاييل ، ليوناردو دى فنشى ، وغيرهم



معجزة المسرح الكوميدى

موليير

قصة حياته وكفاحه الأدبى

الرسم مأخوذ عن صورة لموليير ، للفنان منيار (المسرح الفرنسى)

ابن صانع سجاد ٠٠!

◆ **من** الظواهر الغريبة فى حياة أولئـك الذين برزوا فى دنيا الفن والادب ، ان معظمهـــم ـ ان لم نقل كلهم ـ قد اتجهوا الى الفن والادب على الرغم من أهلهم ، بدوافع من غرائز فطرية أودعتها الطبيعة نفوسهم ، فاذا الطبيعة تثبت انها أقوى من كل توجيه وتربية ، وان رغبتها هى التى تسود فى النهاية!

وهكذا كان « موليير » ـ أو « بوكلان جان بابتسيت » كما كان اسمه الاصلى ـ وقد ولد « بوكلان » فى باريس فى سـنة ١٦٢٠ ، (أو سنة ١٦٢٢ فى الاغلب) ، لوالد يدعى « جان بابتيست بوكلان » ، كان فى خدمة الملك ، يصنع السـجاد لقصوره ٠٠ وتعهدته أمه « آن بوتيه » منذ حداثته بالتربية والتعليم الملائمين للوسط الذى كانت الاسرة تنتمى اليـه ٠ علمته الحرفة التى كانت الاسرة تقتات منهـا ، وعلمته القراءة والكتابة ، أو بالاحرى « فك الخط » فحسب ، وظنت أن هذا يكفيه عدة فى الحياة ، سيما وقد وفقت وأبوه فى أن يضماه اليهما فى خدمة البلاط الملكى ٠٠

ولكن الفتى أوتى عبقرية كانت تنمو ، فتكبر معها الحوافز ٠٠ حتى اذا بلغ الرابعة عشرة ، كانت عبقريتـــه قد قويت واشتدت ، فدفعته الى أن لا يرتضى لنفسه ما أراده له أبواه !

وكان له جد أولع بالتردد على المسرح ، فكان يصحبه معه ، واذا المسرح يرهف عبقرية الفتى ويشحذها ، حتى لتوحى اليه فى هذه السن المبكرة بنفور شديد من حرفة والديه ، وبرغبة جامحة فى أن يدرس ويتفقه وينمى مداركه ٠٠ ووجد فى جده العون الذى توسل به ليحمل أبويه على أن يرســلاه الى المدرسة ٠٠ وقبل الاب تحت ضغط الجد فأرسله الى مدرسة

داخلية كان يديرها اليسوعيون « الجزويت » ٠٠ أرسله وهو كاره ، كأى عصامى كسب مكانة رغم جهله ، فبات يخال ان التعليم كفيل بأن يفسد على ابنه السبيل الى اتقـــــان حرفته والسير على نهجه !

وبرز « بوكلان » فى المدرسة ، وأظهر من الذكاء والتفوق ما يعادل الرغبة الجامحة التى كانت تدفعه الى طلب العلم ٠٠ وقضى فى المدرسة خمس سنوات ، زامل خلالهـــا « ارمان دوبوربون » الذى قدر له فيما بعد أن يصبح « أمير كونتى » ، وراعى الادب ـ وراعى « موليير » بالذات ونصيره !٠٠ كما كان من زملاء الفتى طالبان آخران ، أحدهما « بيرنييه » الذى اشتهر فيما بعد برحلاته فى الهند وبالكتاب الذى ألفه عنها ٠٠ و « شابيل » الذى لمع نجمه بين الشعراء ، وزاده تألقا انه كان شاعرا بالفطرة ، وانه لم يسع الى الشهرة بين الشعراء ٠٠

وكان « شابيل » ابنا غير شرعى لرجل واسع الثراء ، لم يضن بمال كى يوفر له دراسة وافية ، فأرسله للدراســـة مع « بيرنييه » ٠٠ ثم لم يشـــأ أن يكتفى بذلك ، فكفل له دراسة خاصة ـ غير المنهج المدرسى ـ مع « بيرنييه » على يد أستاذ قدير ذاع صيته فى ذلك الحين ، هو « جاسندى » ، الذى لم يلبث أن أخذ بذكاء « بوكلان » وعبقريته ، فلم يحجم عن أن يضمه الى تلميذيه ، فيتعهد ثلاثتهم فى عناية ورعاية ، يسقيهم سواسية من مناهل علمـــــه ، ويفيض عليهم من فلسفته ٠٠

فى بلاط لويس الثالث عشر

◆ **وأقبل** « بوكلان » على الدرس بشغف ، حتى اذا تخرج فى المدرسة ، آثره « جاسندى » بدراسات أدبية وأخلاقية أبلغ أثرا من كل ما درس ـ بحيث ظل يحرص عليها طوال عمره ـ على أنه وجد عند تخرجه أن السن والمرض قد أقعدا أباه عن خدمة الملك ، فاضطر الى أن يحل محله ، ويضطلع بواجباته ٠٠ حتى

اذا عاد « لويس الثالث عشر » الى باريس ، عاد « بوكلان » فى ركابه ٠٠ فاذا الشغف بالمسرح يذكو من جديد فى أعماقه ، وكما أوحى اليه فى صباه بالاتجاه الى الدرس والتعلم ، أخذ يوحى اليه فى صدر شبابه باتجاهات جديدة ٠٠

وكان المسرح قد بدأ فى تلك الفترة ينتعش ، وأخذ الادب المسرحى يتجه الى أداء دوره فى الوصول بالدولة الى مراقى المجد والكمال ٠٠ ولم تكن باريس قد شهدت قبل سنة ١٦٢٥ فرقة مسرحية مستقرة ، تعمل باستمرار ، وانما كان ثمة ممثلون - لم يتقنوا الفن - يتنقلون من مدينة الى مدينة ، ويمثلون مسرحيات « هاردى » و « مونكرستيان » و « بلتازار باور » ٠٠ وكان المؤلف من هؤلاء ، يبيع الفرقة مسرحياته لقاء عشرة جنيهات للواحدة !

ثم برز « بيير كورنى » فأخذ بيد المسرح وانتشله حوالى سنة ١٦٣٠ من وهدته ٠٠ وكان لمسرحياته الفكاهية الفضل فى ظهور أول فرقة تمثيلية دائمة فى باريس ٠٠ ثم ازداد المسرح عزة وانتعاشا حين ولى « ريشيليو » الحكم ، وأولع بالتمثيل والمسرحيات ، فازداد عدد الفرق المسرحية ، وكثرت المسارح ٠٠

يمثل ويؤلف فى آن واحد !

◆ **وضمت** احدى هذه الفرق « بوكلان » وعددا من الشبان الموهوبين ، فما لبثت أن ظهرت على زميلاتها ، واشتهرت باسم « المسرح الفخم » - « اللوسترتياتر » - وفى أحضان هذه الفرقة وعلى مسرحها فطن « بوكلان » الى مواهبه ، فقرر أن يكرس نفسه للتمثيل والمسرح ، وأن يسعى الى المجد ممثلا ومؤلفا مسرحيا ٠٠ فى آن واحد !

وما كان هذا بالشىء الجديد فى تاريخ التمثيل ، بل ان كثيرا من شعراء اثينا كانوا يشتركون فى أداء التمثيليات التى كانوا يؤلفونها ، وقد وجد « بوكلان » فى هذا ما شجعه وأذكى حوافزه ٠٠

وكان من التقاليد المتبعة فى ذلك الحين ، أن ينتحل الممثل لنفسه اسما غير اسمه الاصلى ٠٠ بل ان منهم من كان يتخذ لنفسه أكثر من اسم ، وفقا لنوع الادوار التى يؤديها ٠٠ فهو فى « التراجيدى » يحمل اسما غير ذاك الذى يحمله اذا اشترك فى مسرحية هزلية « كوميدى » ٠٠ وعلى هذا النسق اختار « بوكلان جان بابتيست » لنفسه اسم « موليير » الذى قدر له أن يخلد به فى التاريخ ٠٠ (مع انه لم يكن أول من حمله ، اذ سبقه اليه فى الماضى ممثل وضع تراجيدية باسم « بوليكسين »)

واستطاع « موليير » الجديد أن يكتسب لنفسه صيتا فى فترة الحروب الاهلية التى اجتاحت فرنسا فى أواسط القرن السابع عشر ٠٠ وعكف فى تلك السنوات على شحذ مواهبه ، وصقل مؤهلاته ، ووضع مسرحيات جديدة اتسمت بطابع الفكاهة ، وكانت مسرحياته الاولى مجهودات فجة ، اقتبست عن المسرح الايطالى ، وأعدت لتعرض فى الاقاليم والريف ٠٠
ولم يبق منها اليوم سوى مجرد « أسماء » بعضها ، ومنها : « الدكتور العاشق » ، « الاطباء الثلاثة المتنافسون » ، « معلم المدرسة » ٠٠ وسوى مسرحيتين وضعتا شعرا ، وتألفتا من مجرد حوار ، هما « الطبيب الطائر » ، و « غيرة باربوييه »٠٠ وقد اقتبس موليير فيما بعد قسطا من حوار وأحداث الاولى فى مسرحية « طبيب بالرغم منه » ٠٠ كما اقتبس الثانية ــ بعد أن هذبها وصقلها ــ فى الفصل الثالث من مسرحية « جورج داندان » ٠٠

يسخر من سيدات الطبقة الراقية والبلاط !

◆ **وكانت** أول مسرحية منسقة من خمسة فصول وضعها « موليير » هى : « الطائش » ، التى أخرجها للمرة الاولى فى « ليون » فى سنة ١٦٥٨ ٠٠ وفى تلك الاثناء ، أعاد تنظيم فرقته ، وعززها ببعض عناصر من فرقة ريفية كانت فى «ليون»، ثم انطلق بها الى اقليم « اللانجدوك » ٠٠ وهناك ، التقى بزميله فى الدراسة « أمير كونتى » الذى كان يحكم بعض مناطق الاقليم ، فسرعان ما تذكره الامير الحاكم ، ومنحه رعاية خاصة ٠٠ وفى ظلال هذه الرعاية ، أخرج موليير ومثل مسرحيات : « الطائش » ، و « العاشق الغاضب » ، و «الغاليات الجديرات بالسخرية » ٠٠ **وكان موليير قد كتب المسرحية الاخيرة أثناء طوافه بالاقاليم منتقدا بها سيدات الطبقة الراقية فى الريف ، ولكنه لم يلبث أن تبين أن من الممكن ببعض تعديلات طفيفة أن يصب النقد الذى تضمنته على ما كان يسيطر على البلاط الملكى والمجتمعات فى المدن من فساد ولهو عابث !**

٠٠ وكان موليير فى تلك الاثناء قد بلغ الرابعة والثلاثين من عمره ، وهى سن لا يواتى المؤلف المسرحى النجاح قبلها فى الغالب ، لما يتطلبه فن كتابة المسرحيات من خبرة ومعرفة واسعتين ، ومن دراية دقيقة بكوامن قلب الانسان ٠٠

ولقد حاول أمير كونتى اذ ذاك أن يغرى موليير على أن يقبل أن يكون سكرتيرا له ، ولكن القدر كان قد ادخر الاديب الفنان الشاب ليحقق على يديه للمسرح مجدا وازدهارا ، فأوحى اليه أن يرفض منصبا كهذا يضفى عليه رفعة وشرفا ، وأن يؤثر عليه المضى فى تنمية مواهبه الادبية والفنية ، والعمل فى الميدان المسرحى !

لذلك لم يلبث أن تابع تنقله فى الاقاليم ، عارضا مسرحياته فى « جرينول » و « روان » و « ليون » ، حتى انتهى به الطواف أخيرا الى باريس فى سنة ١٦٥٨ ، مزودا بتوصيات

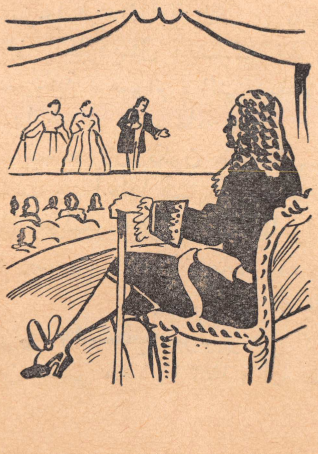
من أمير « كونتى » الى « مسيو » ـ أو السيد ـ وهو اللقب الذى كان يطلق على الشقيق الاوحد للملك لويس الرابع عشر، دون أن يردف بأى اسم !

وأجدت التوصيات خيرا .. فقد بادر « مسيو » الى تقديم « موليير » الى أخيه الملك ، والى الملكة الوالدة ، فأولياه شرف التمثيل أمامهما فى العام ذاته ، على مسرح خاص أمر الملك باقامته فى قاعة الحرس بقصر « اللوفر » ..

يستقر بفرقته فى باريس

◆ **واختار** موليير مسرحية « نيكوميد » لعرضها على المسرح الملكى ، كما انتخب فرقة لتمثيلها من أعضاء الفرقة المنتظمة التى كانت تحتل مسرح « أوتيل دو بورجونى » ـ أول مسرح تعرف فيه موليير على الفن التمثيلى الذى حفزه على الدراسة ، ثم على الاتجاه الذى اختاره لنفسه فى الحياة ..

وكانت الحفلة ناجحة ، فلماأسدلت الستار عقب الفصل الاخير من « نيكوميد » ، استباح موليير لنفسه أن يظهر على المسرح ، فيلقى كلمة يشكر فيها للملك ما أولاه من رعاية ، ويمتدح فيها من استعان بهم من ممثلى « أوتيل دو بورجونى » اتقاء لغيرتهم وحسدهم ، ثم استأذن فىأن يعرض على الانظار الملكية مسرحية من فصل واحد لقيت نجاحا فى طوافه بالريف ..



وكان تقليد عرض مسرحيـــــات قصيرة عقب المسرحيات الطويلة قد اندثر ، اذ عدل عنه مسرح « أوتيل دو بورجونى »، الذى كان قدوة لفرق ذلك العهد التمثيلية ٠٠ ولكن الملك أذن لموليير ، فمثلت الفرقة مسرحية « الطبيب العاشق » ٠٠ ومن ذلك الحين ، أصبحت عادة تقليدية أن تعرض عقب الدرامات ذات الفصول الخمسة مسرحيات خفيفة من فصل واحد أو ثلاثة فصول ٠٠

وكان من جراء النجـاح الذى لقيه موليير أمام الملك ، أن استقر بفرقته فى باريس ، فكان يعرض مسرحياته على مسرح « بيتى بوربون » فى أيام الثلاثاء والخميس والسبت من كل اسبوع ، اذ كانت ثمة فرقة ايطالية تشغل المسرح فى الأيام الباقية من الاسبوع ٠٠ وكانت فرقة « أوتيل دو بورجونى » تعرض مسرحياتها هى الاخرى ثلاثة أيام فى الاسبوع ٠٠

ونجح موليير نجاحا باهرا ، جعل شقيق الملك يضفى عليه مزيدا من رعايته ، حتى لقد سمح له بأن يطلق لقبه الخاص على الفرقة ، فأصبحت تعرف باسم « فرقة مسيو » ٠٠ ثم سمح للفرقة فى سنة ١٦٦٠ ـ أى بعد عامين ـ بأن تتخذ لها مسرحا فى القاعة الكبرى بالقصر الملكى ٠٠ وهى الغرفة التى كان الكاردينال ريشيليو قد شيدها خصيصا لتمثل فيهـــا مسرحية « ميرام » التى ساهم بنفسه فى تأليفها ، وكان قسطه فيها حوالى خمسمائة سطر ٠٠ على أن القاعة فى الواقع كانت لا تصلح لان تكون مسرحا ـ تماما كما كانت المسرحية التى بنيت من أجلها ضعيفة ـ وكانت تباح لفرق الاوبرا ، ومع ذلك فان موليير وفرقته استطاعوا أن يستغلوا القاعـــة الى أقصى ما وسعهم ، الى أن مات راعيهم ومحتضنهم ٠

يفشل فى تمثيل « التراجيديا »

◆ **واستطاع** موليير فى الاعوام الخمسة عشر التى انقضت بين سنتى ١٦٥٨و١٦٧٣ أن يضع ويخرج من المسرحيات ما رفع

انتاجه الى ثلاثين مسرحية ، ولم يكن يعكر عليه سعادته بما بلغ من آماله الطامحة سوى انه لم يكن ناجحا فى تمثيل « التراجيديات » ، اذ كان رغم لباقته وحسن القائه ، مصابا بغصة لا تمكنه من الالقاء الذى يناسب الادوار المؤثرة ، وان ساعدته على أن يتقن التمثيل الهزلى ٠٠

وقد وصفته زوجة أحد ممثلى العصر بخير ما يرسم أصدق صورة له ، اذ قالت : « **لم يكن بدينا ، ولا كان نحيلا ٠٠ وكان أقرب الى الطول منه الى القصر ، وقد أوتى طباعا نبيلة، وساقين متسقتين ، وكان يسير فى خطوة جدية ، ناشرا حوله جوا يوحى بخطورة شأنه ٠ وكانت أنفه ضخمة ، كفمه ذى الشفتين الغليظتين ٠٠ كما كانت بشرته سمراء ، وحاجباه اسودين كثيفين ، يحركهما بطريقة تضفى على ملامحه شكلا مضحكا للغاية ٠٠ أما فيما يتعلق بأخلاقه فقد كان لطيفا ، سمحا ، سخيا ٠٠ وكان مشغوفا كل الشغف بالخطابة ٠٠ وكان عندما يقرأ مسرحياته على أعضاء فرقته ، يسألهم أن يحضروا أطفالهم معهم ليقرأ فيما يخالجهم من مشاعر غير مصطنعة مدى تأثيره على سامعيه !** »

واستطاع موليير أثناء وجوده فى باريس أن يجمع حوله كثيرا من الاصدقاء ٠٠ ولكنه منى فى الوقت ذاته بكثير من الاعداء ، كما أنه عود جمهوره على تذوق خير أنواع المسرحيات الهزلية ، وعلمهم كيف يذهبون فى انتقاده الى درجة القسوة٠ فكان أولئك الذين اعتادوا أن يصفقوا للمسرحيات التافهة التى يضعها المؤلفون الآخرون ، هم أنفسهم الذين يثيرون أقسى الاحتجاجات على أى تقصير يبدر من موليير ٠٠ فان الناس تحكم على أعمالنا على هدى ما نبعثه فيهم من توقع وما نوحى اليهم بأن يرتقبوه منا ٠٠ ومن ثم فان أى تقصير يصدر عن

كاتب مشهور ، يكفى اذا ما اجتمع مع استياء الرأى العام ، لان يقضى على خير المؤلفات بالفشل !٠٠ ولعل هذا يفسر لنا السر فى أن مسرحيات « البخيل » و « عدو الناس » و « النساء العالمات » و « مدرسة النساء » لم تلق حين أخرجت للمـــرة الاولى نجاحا كبيرا ٠٠

حساده يشنون عليه الحملات

◆ **وكان** للويس الرابع عشر ذوق طيب بطبعه ، وادراك متزن ، رغم أنه لم يؤت ثقافة كافية ٠٠ وكثيرا ما كان يدعو الحاشية وكبار الاعيان لمشاهدة مسرحيات موليير التى يعجب بها ٠٠ ولكن موليير لم يكن يفيد من هؤلاء النظارة ، اذ أنهم كانوا لا يبدون سوى الاعجاب والاستحسان ، تملقا منهـم للملك ورياء ٠٠ غير ان أعداء موليير ـ ولا سيما الكتاب الذين كانوا يقلون عنه شأنا ـ كانوا يقسون فى انتقاده ، يؤيدهم فى ذلك أنصارهم ٠ كما أن موليير أثار بمؤلفاته الاتقياء الذين كانوا يتهمونه بتأليف الكتب ذات الطابع الفاحش ٠٠ بل انه اتهم بالتعريض ببعض الشخصيات من ذوى السلطان والنفوذ ، اذ كان يصورهم فى مسرحياته فى أدوار تغض من قدرهم ٠٠ ولكنه فى الواقع لم يكن يرمى الى أكثر من تصوير الرذائل فى صور تحمل الناس على استهجانها ٠٠

وكان من المحتمل ، أن يتعرض موليير للاذى والعقاب نتيجة ما كان يلصقه به مناوئوه من اتهـــامات ، لولا أن الملك كان يبسط عليه حمايته !٠٠ ليس هذا فحسب ، بل ان الملك كان يمنحه ألف جنيه فى العام ، ويمنح فرقته سبعة آلاف جنيه ٠٠ على أن الارباح التى كانت تدرها عليه مسرحياته لم تكن بالقليلة، وكان دخله من فرقته ، مع ما كان يعود عليــــه من نواحى الاستغلال الاخرى ، يرقى الى ثلاثين ألف جنيه فى العام ، وهو مبلغ كان فى ذلك الحين يمثل قوة شرائية ضخمة ٠٠

وأكثر من هذا وأهم ، أن موليير اكتسب مكانة كبيرة لدى الملك ، تتجلى لنا فيما استطاعه من الحصول على مركز قضائى لابن طبيبه ٠٠ وكانا يجلسان الى مائدة العشاء حين التمس من الملك أن يعين ابن الطبيب ، فسأله الملك : « أو لك طبيب خاص ؟٠٠ وماذا يفعل لك هذا الطبيب ؟ »

فأجاب موليير : « اننا يا مولاى نتبادل الحديث ، وكل منا يحاول أن يقنع الآخر ٠٠ فهو يصف لى من الادوية ما لا أتناوله ٠٠ ثم اذا بى أبرأ من علتى » !

وكان جزاء الرد المضحك أن حصل ابن الطبيب على المنصب المنشود ٠٠

كريم ، سخى ، محبوب من العظماء !

◆ **وكان** موليير حكيما فى التصرف فى أمواله ٠٠ كما كان يدعو الى مآدبه وحفلاته أعظم رجال عصره مكانة واحتراما ، ممن يستمرئون المتع الذهنية ، ويستطيبون المسرات المادية ٠٠ كما أنه أقام لنفسه منزلا ريفيا فى « أوتوين » ، اعتاد أن يلوذ به فى كثير من الاحيان طلبا للاستجمام والراحة من عناء مهنته ٠٠ وكان من بين العظماء من أحبوه وحرصوا على صداقته ، مثل « كونديه » العظيم الذى كان يلح عليه فى أن يكثر من زيارته ، وكان يصرح بأنه لا يعدم قسطا من المعرفة كلما تحدث مع موليير ٠٠ ومثل الماريشـــال دو فيفون الذى كان لا يمل صحبته ٠٠ الخ

وكان موليير يذهب فى سخائه الى ما هو أسمى وأكرم من مجرد الاحسان والصدقات ٠٠ فكثيرا ما كان يغدق المكافآت الثمينة لتشجيع الكتاب الناشئين الذين يلمح فيهـــم بوادر الموهبة والنبوغ ٠٠ ولعل فرنسا مدينة لموليير بظهور «راسين» وتألق نجمه ، فقد احتضنه وهو فى التاسعة عشرة من عمره ، حين كان يسعى كى يعمل فى الوسط المسرحى ، وحفزه على

أن يضع مسرحية « تياجين مكاريكيليه » ٠٠ ومع انها لم تكن قوية ، الا أنه منحه لقاءها مائة « لوى » ، وأهداه الفكرة التى بنى عليها مسرحية « الاخوان المتعاديان » ٠٠ وكان من نكد حظ الادب حقا ، أن ينتهى تعاون مثل هـذين العبقريين الى خلاف وشقاق ، رغم ما كان لاحدهما من أياد طولى على الآخر !

وقد رعى موليير نابغة آخر أوتى بالفطرة مواهب راقية وعبقرية فذة ، فتعهده وشحذ نبوغه ، حتى جعل منه ممثلا لا يبارى فى الادوار المضحكة والادوار المحزنة على السواء ٠٠ ذلك هو الممثل « بارون » الذى كان موليير ينزله من نفسه منزلة الابن ٠٠

ولقد سأله « بارون » ذات يوم أن يقرضه مبلغا من المال يرسله الى ممثل ريفى كان الفقر يحول بينه وبين القدوم الى باريس ليلتحق بفرقته ٠٠ واذ علم موليير اسم الرجل ، تذكر أنه كان زميلا له يوما ما ، فقدم الى « بارون » المبلغ قائلا : « اعطه هذا منى » ، ثم دفع اليه بخمسة أمثاله ، وقال :«واعطه هذا باسمك » ٠٠ وأضاف الى هذا كله ثوبا يليق بالوسط المسرحى الذى كان الممثل الريفى مقبلا عليه !



ومن النوادر التى تنم عن شخصية موليير انه منح متسولا يوما « لوى » ـ وهو عملة فرنسية قديمة ـ من الذهب ٠٠ فجرى المتسول خلفه وقال : « انك ولا بد لم تبغ أن تعطينى « لوى » ذهبيا ياسيدى ، ومن ثم هرعت خلفك لأرده اليك »

فقال موليير : « لا بأس يا صديقى .. هاك « لوى » آخر .. اذ ينبغى أن يكون للفضيلة جزاء » !

وهذا الحادث يكفى كى يبين لنا أن موليير كان يستوعب كل ما يصادفه ، وأن هذا الشخص الذى كان يحاول أن يصور الطبيعة ، كان يدرسها فى كل شخص ، وفى كل المناسبات..

تعاسته .. الزوجية !

◆ **على** أن كل هذا الحظ وكل هذه السعادة اللذين حظى بهما موليير فى حياته الفنية ، لم يمتدا الى حياته الخاصة ، فكان شقيا فى حياته الزوجية .. اذ كان قد تزوج فى سنة ١٦٦١ من فتاة فى مقتبل الشباب .. وقد قيل انه كان فى الواقع أباها ، وقد لقى الكثيرون متاعب جمة فى سبيل تكذيب هذه الشائعة ، فى حين انه فى الحقيقة لم يكن قد تعرف على أمها الا بعد مولدها .. بيد أن الفارق الكبير بين عمره وعمر تلك الشابة ، والمتاعب والعراقيل التى اعترضتها فى حياتها الفنية كممثلة ــ رغم شبابها وجمالها الرائع ــ جعلت زواجهما مصدر تعاسة وشقاء لكليهما ..

ومن أغرب المتناقضات فى حياة « موليير » انه رغم حكمته وخبرته ، كان يشكو في داره وحياته العائلية من عين المشكلات والحالات المثبطة المريرة التى كثيرا ما تعرض لتصويرها في مسرحياته .. ولعل هذا دليل على أن ذوى المواهب السامية كثيرا ما يعانون من نواحى النقص ما يعانيه أى شخص عادي، ولا يسلمون مما يتعرض له الآخرون من ضعف أمام مسائل الحياة ..

حتى النفس الاخير !

◆ **وكانت** آخر مسرحية كتبها موليير هى «المريض الموهوم» .. اذ كانت رئتاه قد وهنتا قبل ذلك بزمن ، فأخذ السل ينشب فيهما مخالبه ، حتى انه كان يبصق دما أثناء السعال

فى بعض الاحيان ٠٠ ولكنه ظل صامدا حتى استفحل به الداء فى الليلة الثالثة لعرض المسرحية ، فنصحه المشفقون عليه بأن لا يشترك فى التمثيل ، اذ كانت قواه لا تساعده على المجهود الشاق الذى يتطلبه أداء دوره ، ولكنه أصر وتشبث ٠٠ فكلفه هذا حياته ٠٠ اذ أصيب أثناء المشهد الراقص الذى يمثل استقبال المريض الموهوم ـ فى المسرحية ـ بنوبة لم يستطع معها المضى فى الدور ، فحمل الى بيته وهو أقرب الى الموت منه الى الحياة ٠٠

وعنيت به راهبتان كانتا فى زيارة باريس ونزلتا ضيفتين عليه ، ولكن المنية لم تمهله ، اذ مات بسبب نزيف رئوى فى ١٧ فبراير سنة ١٦٧٣ ، وهو فى الثالثة والخمسين من عمره ٠٠ وخلف وراءه ابنة أوتيت قدرا كبيرا من الذكاء ٠٠

وكان من أحزن المآسى التى اقترنت بوفاته ، ان الكنيسة رفضت دفنه فى مقابر المسيحيين ، اذ لم يتح له أن يحظى باتمام « واجباته الدينية » ـ وهى الطقوس التى تقام عند الاحتضار ـ كما ان الكنيسة كانت موغرة الصدر ضده ٠٠ وقد كان هذا مبعث أسى للملك ، فسعى لدى كبير أساقفة باريس للتسامح فى شأنه ٠٠ ولكن دون جدوى

غير ان المتاعب التى حفت بموليير وهو فى طريقه الى الحياة الثانية ، والجحود الذى أحاط به فى حياته الاولى ، أوحيا الى « الاب بوهور » بمرثية من أروع المراثى التى كتبت فيه ، اذ قال مودعا جثمانه :

« لقد أصلحت المجتمع والبلاط ، فأى جزاء أصبت ؟٠٠ لسوف يخجل الفرنسيون يوما لنكرانهم الفضل ٠٠ كانوا فى حاجة الى ممثل يستغل صيته ومواهبه فى سبيلهم ٠٠ وماكان لينتقص من مجدك يا سيدى لو انك أضفت الى الرذائل التى فضحتها وهدمتها ، ذلك العقوق الذى أبداه لك بنو وطنك ! »

وبعد وفاته ٠٠ لم تلبث أرملته أن تزوجت من أحد الممثلين!

منك ياهاجر ..

منك يا هاجر دائى ... وبكفيك دوائى
يا منى روحى ودنيا ... ى وسؤلى ورجائى
انت ان شئت نعيمى ... واذا شئت شقائى
ليس من عمرى يوم ... لا ترى فيه لقائى
وحياتى فى التدانى ... ومماتى فى التنائى
نم على نسيان سهدى ... فيك واضحك من بكائى
كل ما ترضاه يا مو ... لاى يرضاه ولائى
وكما تعلم حبى ... وكما تدرى وفائى
فيك يا راحة روحى ... طال بالواشى عنائى
وتواريت بدمعى ... عن عيون الرقباء
انا أهواك ولا أر ... ضى الهوى من شركائى
غرت حتى لترى أر ... ضى غيرى (١) من سمائى

(١) بفتح الراء (أى مشتقة من الغيرة)

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى الاعداد الماضية المسرحيات العالمية الآتية :

- خطايا الحب : لاوسكار وايلد
- الحب الآثم : تولستوى
- نزاهة الحكم : جوجول
- سلاح المرأة : اريستوفان
- فولبون : بن جونسون
- جيوكندا : دانونزيو
- كلام الناس : جوزيه اشيجاراى
- مدرسة الفضائح : شيريدان
- سيرانو دى برجراك : روستان
- لعبة الحب والموت : رومان رولان
- مروحة الليدى وندرمير : وايلد
- فاوست : جيته
- أوديب الملك : سوفوكل
- فى سبيل الحب : جون درايدن
- وليم تل : شيللر
- الأم : مكسيم جوركى
- الملك يلهو : فيكتور هوجو
- الذبيحة : اندريه اوبيه
- الجنس الآلى : كاريل كابيك
- الابن الاكبر : جالزورثى
- هرنانى : فيكتور هوجو
- ترويض النمرة : شكسبير
- الحياة نفاق : لويجى بيراندللو
- اغلال الحب : ستيف باسير

واليوم أقدم لك فيما يلى هذه المسرحية الخالدة من أدب عميد الكوميديا الفرنسية « موليير »

عندما ترفع الستار..



روائع المسرح العالمى (التمثيلى... والغنائى)



المنافق!

(طرطوف)

القصة التمثيلية الخالدة **لموليير**

شكسبير فرنسا

١٦٢٢ - ١٦٧٣

◆ كانت حياة موليير - كما قرأت فى الصفحات السابقة - مليئة بعنصر المأساة كقصة أية مسرحية من رواياته !.. فان ابن « منجد » القصر الملكى الميسور الحال قد اضطرته نزعته الفنية الى الفرار من بيت أبيه كى ينضم الى فرقة مسرحية جائلة ، ضاربا «بمجد» البلاط الملكى عرض الحائط !.. لكن الممثل الجائل صار مع الايام يؤلف الروايات التى يمثلها ، ويرعى شؤون فرقته ، حتى استقر بها فى باريس وجعل منها الفرقة المسرحية الاولى فى العاصمة الفرنسية ، كما جعل من نفسه « شكسبير فرنسا » !.. ثم بسط عليه الملك لويس الرابع عشر رعايته ، وأغدق عليه المال والنياشين .. لكنه ضن عليه بتقديره الادبى و « احترامه » ، فظل ينظر اليه لا باعتباره كاتبا مسرحيا موهوبا ، وانما باعتباره « مهرجا » ، مهمته أن يضحك الملك !

وأحب موليير الممثلة الاولى فى فرقته - « أرماند بيجار » - ثم تزوج منها .. وكانت تلك مأساة حياته ، فقد كان فى عمر أبيها .. بل لقد قال البعض انه كان أباها بالفعل ، فقد كانت أمها « مادلين » خليلته فى شبابه الباكر !.. وأيا كانت حقيقة الصلة بين الزوجين ، فالمؤكد أنهما لم يعرفا السعادة الزوجية فى حياتهما المشتركة .. واذا كانت مسرحيات موليير مليئة بمشاهد الخلافات والشجار بين الازواج ، فقد كانت تلك المشاهد مستوحاة من واقع حياته البيتية ذاتها !

وهكذا ، مثل « المهرج » فى أوبرا « بلياتشى » ، عاش موليير يتألم ويضحك .. وكلما ازدادت حياته كآبة ، علا ضجيج ضحكاته وتألق ! .. ومات ثلاثة من أولاده الاربعة .. وفى الليلة السابقة لوفاة ابنه الثالث، حدث شجار فى المسرح ألقيت فيه الاحجار على الممثلين وأصيب موليير نفسه بأذى .. ثم فقد حظوته لدى الملك .. وأشاع خصومه أن زوجته كانت على صلة بشقيق الملك !.. فانهارت صحته نتيجة لكل هذه الكوارث .. ثم كانت النهاية الفاجعة لحياته الفاجعة !

شخصيات الرواية

طرطوف : أحد رجال الدين	Tartuffe
أورجون : صديق له يضيفه فى بيته	Orgon
المير : زوجة أورجون	Elmire
دامى : ابن أورجون	Damis
ماريان : ابنة أورجون	Mariane
دورين : خادمة البيت	Dorine
كليانت : شقيق زوجة أورجون	Cléante
فالير : خطيب ماريان	Valère
المحضر : من رجال المحاكم	Bailiff

مكان الرواية : فرنسا

زمان الرواية : القرن السابع عشر

- ١ -

◆ **ترفع** الستار عن الفصل الاول ، فاذا رب الاسرة المدعو « أورجون » قد أنزل « طرطوف » من نفسه ومن بيته منزلة رجل الدين « القديس » !٠٠ فهو يثق فيه ثقة عمياء ، ويثور على أهل بيته غاضبا اذا مس أحدهم « طرطوف » بكلمة أو قال فيه قولة سوء !

لكن أهل البيت جميعا لا يشاطرون عميدهم مع ذلك رأيه ٠٠ فان زوجته « المير » ، وابنه « دامى » ، وابنته « ماريان » ، وشقيق الزوجة المدعو «كليانت » ٠٠ كلهم يرون فى طرطوف منافقا زنديقا !٠٠ حتى خادمة البيت « دورين » تعلم حقيقة خلق الضيف الكبير ـ وقد كان لديها من الاسـباب ما يبرر هذا العلم !!

وخلال فترة غياب أورجون عن المدينة لبعض أعماله ، يجيد طرطوف تمثيل شخصيتيه المتناقضتين : شـخصية الواعظ الذى يرتدى مسوح القديسين الاطهار ٠٠ وهو فى حقيقته رجل متهالك على متع الدنيا فى شراهة ونهم !

فاذا عاد رب البيت من سفره رأيناه يبـادر الخادمة حين يراها بالسؤال عن أفراد الاسرة جميعا ، وفى مقدمتهم ضيفه العزيز طرطوف :

أورجون : كيف حال الجميع ؟

دورين : كانت زوجتك أول أمس مصابة بحمى وصداع شديد ٠٠

أورجون : وكيف حال طـرطوف ؟

دورين : طرطوف ؟ انه كعهدنا به قوى سمين !

أورجون : يا للرجل المسكين !

دورين : لقد كانت سيدتى تشكو ألما فى رأسها ، ولم تستطع أن تتناول طعاما على الاطلاق طيلة النهار ..

أورجون : وطرطوف ؟

دورين : التهم فى عشائه فخذ ضأن وزوجين من طيـــور القطـــا !

أورجون : يا للرجل المسكين !

دورين : لم تستطع سيدتى أن تنام أو يغمض لها جفن طول الليلة من فرط الحمى التى أصابتها ..

أورجون : وطرطوف ؟

دورين : غادر مائدة العشاء الى مخـــدعه حيث ظل يردد شخيره العالى حتى الصباح !

أورجون : يا للرجل المسكين !

دورين : وأخيرا لجأ الطبيب الى فصد كميـــة من الدم من سيدتى، وعندئذ فقط استراحت ..

أورجون : وطرطوف ؟

دورين : لكى يعوض الدم الذى فقدته سيدتى ، جرع مع افطاره أربع (فياسكات) ضخمة من النبيذ !

أورجون : يا للرجل المسكين !

دورين : أرجو أن يأذن لى ســيدى بالذهاب لابلاغ سيدتى بمدى غبطته لاستردادها عافيتها من جديد !

◆ **ولا يتنبه** الغرير الى السخرية التى تنطوى عليها عبارة الخادم .. فيمضى فى تمجيد ضيفه طرطوف ، موجها الحديث الى شقيق زوجته المدعو كليانت : « آه لو عرفته فقط أيهـــا العزيز ! انه رجل من أولئك الذين .. أعنى انه .. رجل ! لقد نفرتنى أحاديثه من كل حب دنيوى ، بحيث بت أستطيع أن أرى أخى ، وأولادى ، وزوجتى ، وأمى ، يموتون جميعا أمام عينى دون أن أذرف عليهم دمعة !.. عندما رأيته لاول مرة ،

فى الكنيسة أحسست اننى أمام رجل الهى . كان راكعا على كلا ركبتيه يصلى بحرارة استرعت انتباه الحاضرين جميعا .. وحين غادرت الكنيسة هرع يتقدمنى كى يباركنى بالماء المقدس عند الباب !.. وعندما نفحته بعطائى وزع جزءا منه على الفقراء والمعوزين .. ثم دعوته الى الاقامة فى منزلى ـ وكان ذلك الهاما من السماء ! ـ ومنذ ذلك اليوم سارت أمورنا جميعا على خير ما يرام .. بل انه يجعل من نفسه رقيبا يسهر على عفة زوجتى ، حتى ليغار عليها أضعاف غيرتى أنا !.. انك لاتستطيع أن تتصور مبلغ تزمته فى تدينه وتقواه .. هل تصدق اننى سمعته يوما يوبخ نفسه لانه قتل برغوثة صغيرة !؟

كليانت : انك يا أخى توقره الى درجة الجنون !

أورجون : وأنت تكفر به الى درجة الالحاد !

كليانت : لست ملحدا .. انما أنا أفرق فقط بين التقوى الحقيقية والنفاق .. ان طرطوف قد اتخذ من الدين تجارة .. انه يبيع صلواته المزيفة بالذهب الخالص !

أورجون : أو جاد أنت ؟

كليانت : كل الجد !

أورجون : اذن طاب يومك !

- ٢ -

◆ **فاذا** كان الفصل الثانى علمنا ان ابنة أورجون ، المدعوة « ماريان » ، غارقة فى حب الفتى « فالير » .. لكن أباها يزمع أن يزوجها من طرطوف !.. وبدافع من اخلاص الخادم «دورين» لسيدتها الصغيرة تعمد الى الاختباء فى دولاب بالغرفة كى تنصت الى حديث الاب والابنة :

أورجون : يا ابنتى ، لقد اعتزمت أن أضم طرطوف الى شجرة عائلتى .. انه سوف يصبح زوجا لك

ماريان : انك تمزح يا أبى ؟

أورجون : بل انى لم أكن جادا يوما مثلى الآن ..
ماريان : لكنك وعدت يا أبى بتزويجى من فالير !؟
أورجون : هذا صحيح يا ماريان ، لكنى لا أميل الى فالير ، انه لا يتردد على الكنيسة بانتظام
دورين (الخـــادم ، تخرج من مخبئها) : تعنى انه ليس منافقا !
أورجون : كيف تجرئين على التجسس علينا ؟
دورين : وكيف تجرؤ أنت على التضحية بابنتك ؟
أورجون : لست أطلب رأيك فى الموضوع !
دورين : انى أتكلم من أجل صالحك يا سيدى
أورجون : آمرك أن تمسكى لسانك !
دورين : انها تكون خطيئة منك أن تزوجها لطرطوف
أورجون : ولا كلمة أخرى ، أتسمعين ؟
دورين : حسنا جدا يا سيدى ، من الآن فصاعدا ســوف أضمر احتقارى فى نفسى بدلا من الافصاح عنه !

◆ **ولكن** ، بالرغم من كل ما قد تقوله دورين أو تفكر فيه ، فقد صح عزم أورجون وانتهى الامر : سوف تتزوج ماريان من طرطوف .. وليست لدى ماريان الشجاعة على الرفض ، فلا تكاد تنفرد بخادمتها دورين حتى توبخها هذه على جبنها :

دورين : أو تطيعين أباك حتى لو طلب اليك الزواج من قرد؟
ماريان : وماذا فى وسعى أن أفعل ؟
دورين (فى احتقار) : ماذا تفعلين ؟ لا شىء .. ارضخى للامر الواقع وصيرى زوجة لطرطوف !
ماريان : بربك كفى عن اغاظتى يا دوريـــن .. اخبرينى كيف أخرج من هذه الورطة !
دورين : لا تقلقى يا طفلتى ، فسوف نجد وسيلة للخلاص. انى واثقة من ذلك .. ولكن ، ها هو فالير قادم

◆ **يدخل** فالير غاضبا ، فقد سمع لتوه ان ماريان وعدت أباها بأن تتزوج من طرطوف ! وينشب شجار مفعم بالحنق بين الحبيبين ، فاذا فالير يهدد بهجر ماريان ، وماريان تودعه على هذه النية !

فالير : تذكرى انك أنت التى ألجأتنى الى هذه القطيعة **(يتأهب للرحيل)**

ماريان : لا شك فى ذلك ٠٠ حذار أن تنسى

فالير (يستدير اليها) : انى انما أطيع رغباتك ٠٠

ماريان : أعلم ذلك

فالير (يتجه الى الباب) : هذا هو لقاؤنا الاخير ٠٠ وداعا !

ماريان : وداعا !

فالير (يستدير) : ماذا تقولين ؟

ماريان : أنا ؟ لم أقل شيئا !

فالير : حسبتك ناديتنى ثانية ٠٠

ماريان : لا بد انك كنت تحلم !

فالير : حسنا ٠٠ اذن ،فقد انتهى كل شىء **(يتجه فى بطء نحو الباب)**



دورين : أعتقد أنكما كليكما قد أصبتما بالجنون ٠٠

◆ **وتقبض** على ذراعى العاشقين ، فيتظاهران بمقاومتها جديا ، حتى تضطر الى جذب كل منهما بدوره نحو الآخر ٠٠ وأخيرا ، تفلح فى جعلهما يتصافحان ٠٠ ثم يذوب خلافهما ويتبخر على حرارة عناق العاشقين !

دورين : يا لهما من شابين غريبى الاطوار ! منذ برهة كنت عاجزة عن التقريب بينهما ٠٠ والآن أنا عاجزة عن تفريقهما !

- ٣ -

◆ **فاذا** كان الفصل التالى رأينا « دامى » ـ ابن أورجـون من زواج سابق ـ مشوقا الى فضح نفاق طرطوف !٠٠ ولكى يصل الى غايته ويحصل على البرهان الكافى لهذا الغرض ، نراه يعمد الى الاختفاء فى دولاب كى يرقب غريمه :

ويدخل طرطوف الحجرة ، فيجد « دورين » فيها ٠٠ واذ ذاك يتناول منديلا من جيبه ويقول لها بصوت يقطر خبثا :

طرطوف : غطى ثدييك بهذا المنديل ٠٠ فان منظرا آثمـــا كهذا يصدم روحى !

دورين : أوهكذا أنت قابل للغواية ؟ أما أنا فلست ضعيفة الى هذا الحد ٠٠ ففى وسعى أن أراك عاريا من قمة رأسك الى اخمص قدمك دون أن تراودنى الغواية !

طرطوف : لن أبدد مزيدا من الكلمات مع مخلوقة عـــديمة الحياء مثلك ٠٠ وانما أنا أبغى أن أتحدث الى سيدتك « المير »

دورين : انها قادمة حالا لتراك وتحدثك فى شأن ماريان٠٠

◆ **وحين** تدخل المير ، تغادر دورين الحجرة ٠٠ لكن دامى يظل مختبئا فى الدولاب :

طرطوف : هل أبللت من مرضك ؟

المير : تماما ، أشكرك ٠٠ لقد جئت أتحدث اليك ، عـــلى انفراد

طرطوف : سيدتى ، انه ليسعدنى ويستخفنى أن أجد نفسى وحيدا معك !

◆ **ويجلس** بجوارها ويضع راحته على ركبتها :

المير : ماذا تفعل يدك هنا ؟

طرطوف : تبدى اعجابها بثوبك ٠٠ ان قماشه ناعم للغاية !

الميز : ارفع يدك ، أرجوك ، فانى شديدة الحساسية ٠٠

طرطوف (يصلح من وضع طرف ثوبها) : يا لها من بضاعة رائعة !

الميز : نعم ، رائعة للغاية ٠٠ لكننى جئت أحدثك بشـأن ماريان ٠ هل صحيح انك تدبر الامر كى تتزوج منها ؟

طرطوف (يغمز لها) : أوه ، كلا يا سـيدتى ٠٠ ان قلبى متعلق بهدف آخر !

الميز : أفهم قصدك جيدا ٠ ان قلبك متجه الى السماء

طرطوف : لقد وجدت على الارض صورة مطابقة للسماء ٠٠ ٠٠ آواه يا سيدتى ، اننى أسير حسنك السماوى !

الميز : يا للعار !٠٠ من رجل تقى مثلك !

طرطوف : رغم تقواى ، فأنا آخر الامر بشر !

الميز : وماذا لو وشيت بك لزوجى ؟

طرطوف : انك أكرم من أن تفعلى ٠٠ حسبك أن تنظرى الى صورتك فى المرآة كى تقدرى مبلغ اغرائك ، وتعذرينى !

◆ **وتقبل** الميز أن تخفى هذا السر عن زوجهـــا ، بشرط واحد : أن يعاونها طرطوف بكل ما فى وسعه علىاتمام زواج ماريان من فالير !

لكن « دامى » ـ الذى رأى المشهد بأكمله من مخبئه داخـل الدولاب ـ يوطن النفس على أن يبوح بالقصة كلها لأبيه ، بغير ابطاء !

ويصغى أورجون لابنه وهو يروى القصة ، ثم يطرده من البيت ٠٠ فانه لا يصدق سوءا فى « القديس » طرطوف !

طرطوف (يخر راكعا على ركبتيه) : اغفر لابنك ، استحلفك ٠٠ انه لا يعلم ماذا يفعل !

دامى : لا تدع هذا الكلام المعسول يخدعك يا أبى

أورجون : أغرب عن وجهى حالا ! انى أحرمك من الميراث

وأطردك محملا بلعناتى ٠٠ ومنذ هذه اللحظة صار طرطوف ابنى ووريثى !

طرطوف (فى تعبد وخشوع) : فلتكن مشيئة السماء ، فى كل شىء !

- ٤ -

◆ **ويحاول** كليانت أن يهيب بطبيعة طرطوف الافضل :

كليانت : كيف تسمح لاورجون بأن يطرد ابنه من البيت ؟ اذا استمعت لنصيحتى فلتعمل على اعـــادة « دامى » الى بيت أبيه ، وبذلك تتجنب فضيحة كبرى !

طرطوف : بودى من كل قلبى لو استطعت أن أخدمه ٠٠ لولا أن ذلك ضد مشيئة السماء !

كليانت : ولم تضع على عاتقك الاضطلاع بقضية السماء ؟

طرطوف : وهل أنا غير آلة متواضعة فى يد الله ؟ لقد ناطت بى السماء أن أنقذ ضيعة أورجون من الايدى الملوثة ٠٠

كليانت : ان لك لطريقة « دينية » فى سرقة الناس !

طرطوف : استأذنك يا سيدى فى الانصراف ، فقـــد حان وقت واجباتى المسائية !

- ٥ -

◆ **ويفشل** كليانت فى جهوده لزحزحة طرطوف عن موقفه ٠٠ كما تفشل « المير » فىمحاولتها التأثير على زوجها أورجون، وان أفلحت فى اقناعه مع ذلك ــ على الرغم منه ــ بأن يراعى مزيدا من التدقيق فى مراقبة طرطوف عن كثب !

المير : وماذا لو وجدت وسيلة أثبت لك بها أن طرطوف وغد دنىء ؟

أورجون : هراء ! لا شىء يمكن أن يثبت لى ذلك !

المير : لقد وصمتنى بالكذب المرة بعد المرة ٠٠ والآن آن أن ترى الحقيقة بنفسك : اختبىء تحت هذه المائدة وسترى كيف

يسلك قديسك طرطوف فى حضرتى حين يحسب نفسه وحيدا معى !

◆ **ويرضخ** الزوج ، فيندس تحت المائدة ٠٠ بينما يدخل طرطوف :

طرطوف : لقد قالوا لى انك أردت مقابلتى هنا ؟

المير : نعم ، لقد فكرت فى تلك الكلمات الملتهبة التى قلتها لى ٠٠

طرطوف : آه يا سيدتى، هل أنت مستعدة لأن تصغى اليها الآن ؟

المير : ربما

طرطوف : ان حبك يا سيدتى هو الفكرة الوحيدة التى تغمر قلبى بالغبطة ٠٠ فما أسعد هذا القلب لو أعطيتنى دليلا ايجابيا على حبك !

المير : ولكن كيف أمنحك ما تطلب دون اغضاب السماء ؟

طرطوف : لا تخشى شيئا فى هذا الشأن ، فانى عليم بأساليب السماء : اذا ظل حبنا سرا ، فان السماء نفسها سوف تغمض عينيها !٠٠ ان الخطيئة التى ترتكب سرا لا تحسب خطيئة على الاطلاق ٠٠



المير : ولكن ، ما قولك فى زوجى ؟

طرطوف : انه رجل يستطيع كلانا أن يقوده من أنفه !٠٠ والآن ، حان لنفسى المنتشية أن ٠٠٠

◆ **ويهم** المنافق بتقبيل الزوجة ، حين يخرج له الزوج من مخبئه :

أورجون : حنانيك يا قديسى العزيز !٠٠ اذن فقد رسمت خطتك على أن تتزوج من ابنتى ، وتنال زوجتى ؟!

طرطوف : ماذا ؟ أو صدقت حقا انى ٠٠٠

أورجون : كفاك نفاقا ، أرجوك ٠٠ ولتغادر هـــذا البيت فى التو واللحظة دون اثارة ضجيج !

طرطوف : انك أنت المطالب بأن تغادر هذا البيت ٠٠ فانه الآن مملوك لى !

◆ **وفى** جرأة وتحد يبرح الغرفة ، بينما يتهالك أورجون على أحد المقاعد وقد حطمته الصدمة : فانه فى نوبة غضبه على ابنه « دامى » قد وهب طـــرطوف ملكية البيت وجميـــــع ملحقاته !٠٠ وليت هذا كان كل شىء ، فهناك سبب آخر يفزع أورجون ويدخل على قلبه الذعر المروع :

المير : وما هو ؟

أورجون : سأذكره لك فيما بعد ٠٠ أما الآن فدعينى أرى ما اذا كان ثمة صندوق صغير ما يزال موجـودا فى الطابق العلوى ؟

◆ **كلا** ، فلقد اختفى الصندوق !٠٠ وهو مملوك لصديق أورجون المنفى « ارجاس » ، ويحتوى على مستندات هـــامة تتوقف عليها حياة ارجاس وثروته ! وكان ارجاس قد عهـــد بالصندوق الى أورجون ، فتركه هذا فى غباء فى يد طرطوف ٠٠ وهكذا أصبح الاخير الآن فى وضع يسمح له ليس فقط بتجريد أسرة أورجون من أملاكها ، بل وباتهامه لدى الملك بأنه قدم العون والمساعدة الى رجل من الثوريين !

- ٦ -

◆ **ويستغل** طرطوف الموقف الى أقصى حدوده ٠٠ فيبـدأ بارسال محضر قضائى الى بيت أورجون :

المحضر : لا تزعجوا أنفسكم أيها السادة ، على الاقـل لا تزعجوا أنفسكم اليوم ٠٠ ولكن عليكم أن تخلوا البيت غدا ٠٠ فاذا تكرمتم الآن بتسليمى مفاتيحه ، سمحت لكم بأن تأووا الى مضاجعكم ٠٠ وتمنيت لكم جميعا أطيب الاحلام

أورجون : انى على استعداد لان أدفع مائة « لويس » من الفضة اذا استطعت أن أسدد اليك لكمة واحدة على أنفك !

المحضر : لا تنسى يا سيدى اننى من رجال الضـــبطية القضائية ٠٠ والآن ، طابت ليلتك يا سيدى ، ولتحفظك السماء من الدمار ٠٠

◆ **لكن** المصائب تتلاحق واحدة فى اثر الاخرى ٠٠ فلا يكاد المحضر يمضى ، حتى يدخل فالير حاملا أنباء سيئة :

فالير (الى أورجون) : سيدى ، انك معرض لخطر بالغ ، فلقد اتهمك طرطوف لدى الملك ، والضابط فى طريقه الآن الى هنا ليلقى القبض عليك !

أورجون : حقا ان الانسان حيوان شرير ٠٠ أعترف بذلك

فالير : ان السبيل الوحيدة الى نجاتك هى أن تلوذ فورا بالفرار !

◆ **ولكن** قبل أن يتمكن أورجون من مغادرة البيت ، يصل طرطوف مصحوبا بضابط الملك :

أورجون (الى طرطوف) : أيها الخائن !

طرطوف : انى أغفر لك اهاناتك ، فلقد علمتنى السماء أن أكون صبورا متسامحا فى جميع المواقف (الى الضابط) أرجوك يا سيدى ، أد واجبك !

الضابط (الى طرطوف) : حسنا يا سيدى ، فهلا تكرمت بأن تتبعنى الى السجن ؟

طرطوف : من ؟ أنا ؟

الضابط : نعم ، أنت !٠٠ (الى أورجون) أما أنت يا سيدى فتستطيع أن تبدد مخاوفك جميعا ، فلقد أضحت للملك عيون حادة مدققة ٠٠ وقد لمس مبلغ نفاق هذا النذل ٠٠ وباتهامه اياك ، انما دان طرطوف نفسه ٠٠ وقد أمر الملك باعادة أملاكك جميعا اليك ، وبمنحك عفوا كاملا عن مساعدتك لصديقك الثورى الذى فى المنفى !

أورجون : شكرا ٠٠ وهنيئـــا لزوج ابنتى « فالير » !٠٠ ولعل طرطوف التعس يعدل عن غيــــه ، ويعلم أن الخداع الوضيع لا يجدى ولا يثمر !

(ستار)

إقرأ معى



كتاب الشهر

عزيزى القارىء ...

قدمت لك فى هذا الباب فى أعداد سابقة من (كتابى) الكتب الشائقة التالية :

- آراء جريئة فى الحياة للفيلسوف الانجليزى المعاصر « جود »
- آراء جريئة فى السياسة : لبرنارد شو
- كيف نجحوا فى الحياة : لديل كارنيجى
- الحياة فى موسكو : هارولد ليكوك
- مراهق : البرتو مورافيا
- آلهة ومقابر وعلماء : سيرام
- الالمان ، شعبا وعباقرة : اميل لودفيج
- مستقبل زوجك فى يدك : مسز ديل كارنيجى

واليوم تقرأ معى فيما يلى هذا الكتاب القيم الذى صدر حديثا منذ أسابيع والذى حضر مؤلفه الى مصر فى منتصف الشهر المنصرم ، فالقى محاضرة قدمه فيها الى الشعوب العربية بوصفه اول كتاب يؤلفه يهودى فيهاجم فيه الصهيونية ويؤيد الدول العربية !

وفى الاعداد القادمة أزمع أن أقدم لك فى هذا الباب مزيدا من الكتب الممتعة ..

الفريد
ليلينتال

ثمن.. إسرائيل!



وشهد شاهد من أهلها !

◆ عندما أصدر ((ألفريد ليلنتال)) كتابه هـــذا ، كتب ناقد صحيفة (نيويورك تايمس) الامريكية المشهورة يقول : « مما لا شك فيه ان هذا الكتاب سيزيد ((ضغط الدم)) عند الكثيرين من قرائه اليهود !! »

ذلك أن مؤلفه ـ وهو يهودى ـ قد عالج فيه مشكلة فلسطين ، والصهيونية ، والاضرار الجسيمة التى أصابت يهود العالم من انشاء دولة اسرائيل ، بصراحة فائقة ونزاهة أثارتا عليه ثائرة أبناء جلدته اليهود فى كافة أقطار العالم .. وأثارتا فى الوقت نفسه اعجاب الدوائر العربية التى تلقت الكتاب بالترحيب الفائق ، واحتفت بالمؤلف حين زار مصر فى أوائل أغسطس المنصرم وعقد مؤتمرا صحفيا فى دار نقابة الصحفيين ، شرح فيه آراءه وأجاب على أسئلة الحاضرين بشأنها . ويسر ((كتابى)) أن يقدم لقرائه فيما يلى أول خلاصة للكتاب تنشر بالعربية :

مقـــــدمة

◆ **لقد** أثر الاضطراب الذى أعقب مولد « اسرائيل » على مركز العالم الحر فى الشرق الاوسط تأثيرا عظيما ، وعقـــد الحياة ـ بشكل خطير ـ بالنسبة لليهود فى كل مكان ، حتى أصبح يهدد اليهودية ذاتها ، وهى أقدم العقائد الداعية الى الوحدانية ٠٠ ذلك أن قدرة اليهودية على البقاء قامت على عدم ارتباطها بأية حدود جغرافية معينة ، فالدول قد تأتى أو تروح، لكن العقائد ، اذا بعـــدت عن مصادفات الاحداث الموقوتة ، تستطيع أن تبقى الى الابد ٠٠

ولقد ظلت اليهودية عقيدة عالمية شـــاملة ، يستطيع أن يعتنقها أبناء أية دولة ٠٠ أما الصهيونية فعلى النقيض ، حركة قومية نظمت لاقرار اليهود كأمة ذات وطن منفصل وسيادة ٠٠ ومن ثم فان انشاء دولة « اسرائيل » أطلق يد اليهـــود كى

« يفعلوا ما لم يكونوا يملكون أن يفعلوه من قبل » ٠٠ وأصبحت كلمة « يهودى » تستعمل الآن للدلالة على عقيدة عامة، وللاشارة الى جنسية معينة فى آن واحد٠٠ واختلط الولاء للدين بالولاء للدولة ٠٠ ولو افترضنا أن اسرائيل انضمت مثلا الى الكتلة السوفيتية ، أى الى دول الستار الحديدى ــ وهو أمر كان يبدو محتملا لعدة سنوات ــ لما كان من العسير أن نتصور مركز يهود الولايات المتحدة أنفسهم اذ ذاك !٠٠ ولو ظلت مشكلات اسرائيل السياسية تثقل عاتق يهود الولايات المتحدة، لحقت النكبة ٠٠ فان ظروفا لا حصر لها لن تلبث أن تقحم اسرائيل فى سياسات ومواقف سياسية، لا يقرها رعايا أية دولة أخرى ٠٠ وقد لا يكون عدو اسرائيل فى الازمة التالية عدوا للولايات المتحدة !

الفصل الاول

الازدواج التاريخى

◆ **ان** أب دولة اسرائيل الجديدة يرقد فى قبر مجهول ، فما كانت لتقوم اليوم قائمة لدولة يهودية لولا ذاك الشاعر المجهول الذى نظم المزمور السابع والثلاثين بعد المائة ٠٠ فان مبدأ الوطن القومى لليهودية ظل حيا خلال ذلك المزمور بعد اجتياح الاشوريين لمملكة اسرائيل الشمالية فى سنة ٧٢١ قبل الميلاد ، وبعد أن قضى الرومان على الدولة اليهودية الثانية فى سنة ٧٠ بعد الميلاد ٠٠ اذ ورد فى ذلك المزمور :

« على ضفاف أنهار بابل جلسنا ، وبكينا حين تذكرنا صهيون ٠٠ كيف ننشد ترانيم الرب فى أرض غريبة ٠٠ ان نسيتك يا أورشليم تنس يمينى مهارتها ٠٠ ويلتصق لسانى بسقف فمى اذا لم أتذكرك ، واذا لم أضعك يا أورشليم فوق كل أفراحى »

هذه هي بذرة التفكير القومي الصهيوني ‏..‏ بيد أن ثمة فكرة عريقة أخرى كانت تتغلغل فى أذهان أتبـــاع يهوذا ‏..‏ فقـد قال لهم النبي « ارميـا » وهـم فى أسر « نبوخذ نصر » ـ البابلي ـ فى سنة ٥٨٦ قبل الميلاد :

« ابنوا منازلكم وعمروها ، وازرعوا الحـدائق وكلوا من ثمرها ، واتخذوا الزوجات وأنجبوا أبناء وبنات ‏..‏ وانشدوا سلام المدينة التى تسببت في اقصائكم عنها أسرى ، وصلوا لله من أجل تلك المدينة ، فبالسلام هناك نحظى بالســلام والطمأنينة ‏..‏ »

هذه هى فلسفة التكامل التى بنيت حولها مبادىء العقيدة اليهودية ‏..‏ فان أنبياء اليهود لم يهتمـوا باستعادة السلطة السياسية ، وانما كانوا يعكفون على الاهتمام بمـا كان فى عهدهم من مظالم كانوا يؤمنون بأن لا علاج لها الا بالايمان برب رحيم ، عادل للكون كله ‏..‏ وكان الله يطلب من الناس أن يلتزموا قانونا من المبادىء الخلقية لا يحيدون عنه ‏..‏

وقد ظل تاريخ اليهود أجيالا عديدة حافلا بالصراع المستمر بين المذاهب المتضاربة : مذهب الامة ضد مذهب العقيدة ‏..‏ ومذهب الشعب المختار ضد مذهب العالمية الشـاملة ـ الذى يقول ان الدين للعالم كله ولا يتعلق بوطن ‏..‏ ومذهب انفصال اليهود عن المجتمعـــات التى يعيشون فيها ، ضـــد مذهب الاندماج ‏..‏ الخ

على أن توالى السيادة الاجنبية ، والفرار من الاضطهادات ، عرض اليهود لمبادىء وطرق معيشة غير التى ألفوهـــا ‏..‏ وأثبتت الايام أن كثيــرا من اليهود قد اندمجوا فى المجتمعات التى هاجروا اليها واستوطنوها ‏..‏

الصراع بين اليهودية والمسيحية

◆ **وكانت** اليهودية ـ كدين ـ آخذة فى الانتشار ، حتى لقد دخلت فيها شعوب بأسرها ، على تباين أجناسها وعناصرها ‏..‏ وكان لهجرة اليهود أثر رئيسى فى التبشير بها ، لدرجـة

أن أصبح اتباعها فى العالم يفوقون فى العدد أتباعها فى أورشليم والارض المقدسة ٠٠ بيد أن قيام المسيحية وضع حدا للتبشير باليهودية ، وتولى حواريو المسيح ـ ومن بعدهم أقطاب الاسلام ـ هداية عبدة الاوثان الى الايمان بالله ٠٠ واقتصر هم اليهودية على الاحتفاظ بأتباعها الذين ما لبثوا أن نزحوا الى بابل ـ فرارا من الاضطهاد الرومانى ـ حيث لحقوا باليهود الذين كانوا قد بقوا فيها من قبل ، والذين استقلوا فى معيشتهم عن المجتمع الذى كانوا يعيشون فيه ، وأقاموا لطائفتهم أميرا يحكم بما ورد فى كتابهم الدينى « التلمود » ، ويتولى الزعامة الدنيوية والروحية فيهم ٠٠ **وكان من جراء الصراع الذى قام بين اليهودية والمسيحية ، أن حارب زعماء اليهود مبدأ اندماجهم فى الاوساط التى كانوا يعيشون فيها ، وأقاموا أسوارا بينهم وبين الشعوب التى استوطنوا بينها ٠٠ وكان اليهود فى أوربا الغربية يعيشون فى أحياء خاصة فى المدن ، ولكن هذا لم يحل دون اندماجهم فى شئون البلاد ، وخاصة فى اسبانيا ، حيث ساعدوا المسلمين على السيطرة على شبه الجزيرة ، وتولوا مناصب رفيعة فى حكوماتهم** ٠٠ بل ان كثيرا منهم آثروا ـ فى بعض فترات الاضطهاد ـ اعتناق الاسلام ، لأنه لم يكن يختلف عن عقيدتهم فى التوحيد ٠٠ فلما أجلى الحكام المسيحيون المسلمين عن أسبانيا ، بسطوا حمايتهم على الجالية اليهودية فى البداية ، ولكن التعصب الدينى لم يلبث أن اضطر بعض هؤلاء الى الخروج عن عاداتهم ومجتمعهم اليهودى ، والى التظاهر باعتناق المسيحية ، وان ظلوا فى الخفاء على دينهم ٠٠ وفر البعض الى أرجاء أخرى من أوربا ، والى شمال افريقيا ومصر ، والى أمريكا الوسطى والجنوبية ٠ ٠على أنهم فى أوربا لم يكونوا يحظون بمشاطرة المجتمعات التى يعيشون فيها حقوقها الثقافية والاجتماعية والسياسية ، الا اذا نزلوا عن دينهم ٠٠ والا كان عليهم أن يعيشوا فى جاليات منفصلة ٠٠

ولكن « موسى مندلسون » ـ الذى ساهم فى المناداة بحقوق الانسان ، قبل الثورة الفرنسية ـ اتخذ نحوا آخر ، اذ اندمج فى الحياة المسيحية فى برلين ، مع احتفاظه بعقيدته ٠٠ وآمن بأن من الممكن التغلب على الفوارق اذا تكلم اليهود لغة الدولة التى يقيمون فيها ، وأرسلوا أبناءهم الى المدارس العامة ٠٠ ولكن هذا الاتجاه قوبل بالرفض من اليهود الربانيين

واذ قامت الثورة الفرنسية ، دعا قادتها الفكريون الى اتاحة « المساواة » و « الاخاء » لليهود ، اذا هم آمنوا بفرنسا وطنا ، واعتبروا أنفسهم فرنسيين ٠٠ وهكذا انمحت القوميـــة اليهودية من فرنسا ٠٠ كما ان بقية يهود أوربا الغربية لم يلبثوا أن فازوا بالحقوق التى كانت فى مجتمعات تلك الدول ، وبحق ممارسة شعائرهم الدينية كمواطنين ٠٠

أما فى أوربا الشرقية ـ وخاصة فى بولندا وروسيا ـ فقد كان « الربانيون » يحبطون كل محاولة لتحقيق دعـــــوة « مندلسون » بالاندماج في حياة البلاد ٠٠ بينما اتجه يهوديو الشرق الى القومية اليهودية ، وأصبحوا يرون أن لا ســبيل الى التمتع بالحقوق الا فى فلسطين ، فأخذت الصهيونية تحيل الآمال الدينيـــة والحنين الى الحقوق الفردية ، الى برنامج سياسى قومي ضـخم ٠٠ وكان « موسى هس » أول من شرح « الصهيونية » فى سنة ١٨٦٢ ، وتلاه ـ بعد عشرين سنة ـ « ليو بنسكر » الذى دعا الى أن يكون لليهود وطن خاص ، وان لم يشترط أن تكون الارض المقدسة هى هــذا الوطن ، ونظم أول مؤتمر قومي يهودى فى سنة ١٨٨٤ ٠٠ أى قبـل أن يعقد « تيودور هرشل » أول مؤتمر صهيونى ـ فى « بال » بسويسرا ـ بثلاث عشرة سنة ٠٠

أول من دعا للوطن القومى لليهود

◆ **وكان** هرشل هذا صحفيا نمسويا ، أثرت فى نفســه محاكمة « دريفوس » فى باريس ، فأصدر كتيبا بعنوان «الدولة

اليهودية » .. ثم عقد مؤتمرا فى (بال) أسفر عن الدعوة الى « الاعتراف علنا وقانونا بفلسطين وطنا لليهود » .. وبدأت من ذاك الحين حركة سياسية منظمة للدعوة الى عودة اليهود الى فلسطين ..

وفى تلك الاثناء ، كانت قوة اليهود قد زحفت غربا .. الى المستعمرات الامريكية ، حيث استمتع اليهود المهاجرون بكافة الحقوق التى كانت لسواهم ، فلم يلبث الذين استوطنوا الولايات المتحدة منهم أن انصرفوا عن العزلة الثقافية ، واندمجوا فى المجتمع ، وان احتفظوا بعقيدتهم ، معتبرين أنفسهم « طائفة دينية » من طوائف المجتمع ، ومعتبرين البلاد التى يعيشون فيها « فلسطينهم » ووطنهم .. حتى أن المؤتمر المركزى لحاخامات أمريكا أعلن بعد حركة هرشل باثنى عشر عاما عدم موافقته على أية محاولة لاقامة « دولة يهودية » ، كما أعلنت الجماعات الاصلاحية « معارضة على طول الخط للصهيونية السياسية » .. بيد أن موجة الهجرة اليهودية الثالثة ـ فيما بين سنتى ١٨٨١ و١٩٢٤ ـ حملت الى أمريكا مليونين ونصف المليون من يهود أوربا الوسطى والشرقية ، الذين استقروا فى المدن الشرقية بأمريكا ، والذين كان معظمهم من غلاة اليهود الميالين للصهيونية .. اذ كانوا معتادين حياة الاقليات فى مجتمعاتهم الاوربية ـ فى حين أن القانون الامريكى لا يعرف أكثريات ولا أقليات ولا حقوقا خاصة لفريق دون فريق ـ فجاءوا الى أمريكا ومعهم مركب النقص الذى يوحى اليهم بفكرة الوطن الخاص .. وسرعان ما بدأوا يسيطرون على أبناء دينهم الامريكيين ..

على أن دعاة الاصلاح اليهودى ظلوا يكافحون فى أمريكا ضد الصهيونية السياسية ، حتى انهم عارضوا « تصريح بلفور » عند صدوره ، بحجة ان الصبغة العالمية للرسالة الدينية

تتنافى مع العودة الجماعية ، وأعلنوا انهم على استعداد للتعاون مع الصهيونيين ، على أن تكون فلسطين ملاذا ومركزا روحيا فحسب ٠٠ وفيما عدا ذلك فالعالم كله وطن يهودى ٠٠ وغدا الاتجاه الذى نحا اليه يهود أمريكا هو أن يتخذوا موقفا لا صهيونيا ٠٠ وليس معاديا للصهيونية ٠٠ حتى ان عدد الصهيونيين في أمريكا لم يتجاوز ٥ فى المائة من مجموع يهودها فى سنة ١٩٣٤ ٠٠ بيد أن ما لاقاه اليهود فى أوربا أثار المشاعر ، وأذكى الدعوة الى الوحدة اليهودية ، مما أدى الى اقبال آلاف من اللاصهيونيين - من يهود أمريكا - على مؤازرة الصهيونيين ، دون أن يفطنوا الى أنهم بذلك يربطون أنفسهم بجنسية أجنبية ، وأن الصهيونية السياسية تعرقل جهودهم للاندماج فى أمريكا ٠٠!

الفصل الثانى

مأوى ٠٠ أو دولة ؟

◆ **وقد** قام بعض زعماء الصهيونية فى باكورة الحرب العالمية الاولى بمعارضة عنيفة للحكم القيصرى فى ألمانيا ، محاولين أن يبرموا صفقة تمنح ألمانيا بمقتضاها - حين تنتصر - فلسطين للصهيونية ٠ ولكن المفاوضات أخفقت ، فحولوا وجوههم فى سنة ١٩١٦ الى وزارة الخارجية البريطانية ٠٠

وقد ذكر عن لويد جورج - رئيس الوزراء اذ ذاك - فى تقرير اللجنة الملكية لفلسطين فى سنة ١٩٣٧ ، أنه قال ان الزعماء الصهيونيين وعدوا وعدا قاطعا باستثارة الشعور اليهودى ، وحشد تأييد يهود العالم بأسره لقضية الحلفاء ، اذا وعد الحلفاء بدورهم بأن يقدموا التسهيلات لانشاء وطن قومى لليهود في فلسطين !٠٠ **وكان لويد جورج يشعر بأن بلاده مدينة لحايم وايزمان ، لنبوغه فى ابتكار مادة**

« الترينيتروتولول » التى كانت الحاجة ماسة اليها لصنع المتفجرات القوية .. كما أن بريطانيا كانت فى أشد الحاجة الى تأييد اليهود لها فى كفاحها الشديد ضد ألمانيا .. وهناك أدلة كافية على أن الحكومة البريطانية أصدرت تصريح بلفور لاسباب أهم من انصاف اليهود ، فقد كانت قناة السويس بحاجة الى قاعدة فى أراض قريبة لحمايتها ..

وأيا كانت البواعث ، فان حكومة لويد جورج أطلقت يد اليهود لاستعمار فلسطين ، وان كانت قد تفادت الاعتراف الواضح بالبلاد كوطن لليهود ، مقتصرة على القول بأنها « تنظر بعين العطف الى انشاء وطن قومى فى فلسطين للشعب اليهودى » .. وقد أثارت هذه الصيغة معارضة الصهيونيين واستياءهم ، اذ رأوا أن التصريح لم يكن « شيكا على بياض » ، وانما جاء « قرضا مشروطا » .. لكن اليهود الانجليز الذين كانوا يؤازرون وايزمان ، كانوا أحرص من أن يعرضوا ولاءهم لبريطانيا لاقل شائبة ، فعارضوا بلفور معارضة جعلته يعلن أن المعنى المقصود بـ « وطن قومى » ليس سوى « مركز روحى »، و « محمية بريطانية أو أمريكية أو أية محمية تتيح لليهود مركزا حقيقيا للثقافة القومية ، وتتطور الهيئة التى تحكمه بما يتفق والقوانين العادية للرقى السياسى »

اليهود كانوا عشر سكان فلسطين !

◆ **وأكد** تشرشل هذا المعنى فى « الكتاب الابيض » حين كان وزيرا للمستعمرات فى سنة ١٩٢٢ ، كما أكد لوفد عربى أن الوطن القومى اليهودى لم يكن يعنى « حكومة يهودية تسود العرب » .. وقد تضمنت وثيقة الانتداب نصوصا تصون حقوق العرب وغير الصهيونيين ، لكن بعض أعضاء الحكومتين البريطانية والامريكية كانوا يعتقدون أن اليهود لن يلبثوا أن يصبحوا أغلبية فى فلسطين ، ومن ثم تغدو فى النهاية دولة

لليهود من تلقاء نفسها ، نتيجة لتصريح بلفور . لكن اليهود لم يكونوا يؤلفون فى الواقع ، فى سنة ١٩١٩ ، أكثر من عشر سكان فلسطين !.. وقد أوفد الرئيس الامريكى « وودرو ولسن » فى ذلك العام ، لجنة « كنج ـ كرين » لتفقد الاحوال فى البلاد التى كانت من قبل تابعة للامبراطورية العثمانية ، فصرحت اللجنة عند عودتها بأن « اقامة وطن قومى لليهود فى فلسطين لا يعنى جعل فلسطين دولة يهودية ، اذ لا سبيل لاقامة هذه الدولة دون عدوان خطير على الحقوق المدنية والدينية للطوائف غير اليهودية الموجودة فى فلسطين » .. وكان هذا هو التقرير الامريكى الرسمى الوحيد عن فلسطين حتى سنة ١٩٤٦

بيد أن الضمانات التى بذلت لحماية عرب فلسطين لم تلبث أن انمحت ، وانتهى الامر بالامم المتحدة فى سنة ١٩٤٧، الى تحقيق ما كان قد أملاه وايزمان على بلفور فى الصيغة الاولى لتصريحه ، أى الاعتراف ب « فلسطين كوطن قومى للشعب اليهودى » .. ولم يساعد على الاقدام على خرق الوعود الديبلوماسية العكسية التى بذلت للعرب ، قدر مشكلة يهود أوربا المشردين ، الذين بلغ عددهم ٢٢٦٫٠٠٠ !

وقد استغرق تحقيق هذا « الاعتراف » عدة مراحل :

ففى ٣١ أغسطس سنة ١٩٤٥ ، كتب الرئيس ترومان الى كليمنت اتلى ـ رئيس وزراء بريطانيا ـ يقول ان اصدار ١٠٠٫٠٠٠ تصريح بالهجرة الى فلسطين يساعد على تخفيف مشكلة اللاجئين المشردين .. فاقترحت الحكومة البريطانية تأليف لجنة انجلو ـ أمريكية لتحرى مدى ملاءمة الاحوال السياسية والاقتصادية والاجتماعية فى البلاد لاستقبال هذا العدد ، ولفحص مركز اليهود الاوربيين على ضوء تقدير الهجرة المحتملة الى فلسطين أو غيرها من البلدان غير الاوربية ..

وكان أهم ما أوصت به اللجنة ، الدعوة الى المبادرة باصدار شهادات للهجرة الى فلسطين لمائة ألف يهودى « ممن كانوا ضحايا للنازية والفاشية » •• ثم تضمن التقرير ان « اليهود لن يسيطروا على العرب ، كما لن يسيطر العرب على اليهود فى فلسطين ، التى لن تكون دولة يهودية ولا دولة عربية •• ففلسطين أرض مقدسة لدى المسيحيين واليهود والمسلمين على السواء •• »

ومع ذلك فان الصهيونيين الامريكيين والبريطانيين ، والوكالة اليهودية فى القدس ، رفضوا المقترحات الانسانية فى تقرير اللجنة ، وأبوا أن يقبلوا شيئا أقل من « دولة يهودية » !

ارتفاع نسبة اليهود من ١١ الى ٣٢ فى المائة !

◆ **ومع** ان الكونجرس فى علاجه لمشكلة المشردين ، أوشك أن يفتح أبواب أمريكا لليهود ، الا أن الصهيونيين أبوا أن تمزج قضية المشردين بقضية الصهيونية •• ولم تفلح صيحات ذوى العقل والحكمة من يهود أمريكا ، ازاء جهود صهيونييها المضادة •• على أن العنصرين لم يلبثا أن اتحدا ـ بينما كانت أزمة فلسطين فى تطورها ـ بفضل الحملة التى أثيرت ضد بريطانيا ودعت الى كراهيتها ، رغم ما بذلته من أجل اليهود•• **فعلى الرغم من القلاقل المستمرة التى كان العرب يثيرونها ، فقد ارتفعت نسبة السكان اليهود فى فلسطين من ١١ فى المائة فى سنة ١٩٢٢ ، الى ٣٢ فى المائة فى سنة ١٩٤٥ ، كما منح البريطانيون يهود فلسطين أسلحة ومعدات ليكونوا متأهبين للدفاع عن أنفسهم •• ومن ناحية أخرى ، فان الجيش الثامن البريطانى أنقذ يهود فلسطين من الابادة بتغلبه على قوات روميل ••**

بيد أن الحكومة البريطانية لم تكن تملك أن تنزل عند طلب الصهيونيين بجعل فلسطين دولة يهودية •• وأدى

الاحتكاك بين القوميين اليهود وحكومة الانتداب ـ عقب الحرب العالمية الثانية ـ الى الهجرة غير المشروعة ، والعنف والتخريب .. وسرعان ما تحولت الارض المقدسة الى معسكر مسلح .. وقامت فى أوربا حركة منظمة لتهريب اليهود الى فلسطين ، مستعينة بمساهمات مالية من موارد صهيونية .. وكانت نسبة كبيرة جدا من هذه « الشحنات الانسانية » تجتلب من دول تحت سلطان الشيوعية فى أوربا الشرقية ، اذ كان الكرملين قد بدأ لعبته فى الشرق الاوسط ، لاثارة الفتن فى العالم العربى وطرد بريطانيا منه ..

على أن الصراع الفلسطينى فى رأى معظم الامريكيين كان مجرد مأساة مشردين يكافحون للحصول على مأوى .. وكان الكفاح فى هذه المرة موجها ضد الانجليز ، فلما منعت بريطانيا الهجرة الى فلسطين ، اشتد الشعور ضدها فى أمريكا ، ووجهت اليهودية الامريكية المنظمة أعظم ضغط على الرأى العام والسياسيين .. ولسوء الطالع ، كان ارنست بيفن وزيرا لخارجية بريطانيا فى تلك الفترة الحرجة ، فحاول أن يحمل على الاستغلال السياسى للعواطف الانسانية ، بأن اتهم أمريكا ـ فى اجتماع لحزب العمال ببورنماوث فى سنة ١٩٤٦ ـ بالضغط على بريطانيا لتسمح لمزيد من اليهود بدخول فلسطين ، فأدى ذلك الى اتهامه بالعداء للعنصر السامى .. وأفضى تهوره الى عرقلة جهوده ..

عندما تضطر بريطانيا للجلاء !

◆ **وأدت** تطورات الاحداث فى باكورة سنة ١٩٤٧ ، الى ضرورة التدخل الدولى .. وكانت نسبة كبيرة من الرأى العام الامريكى تؤيد الهجرة غير المشروعة ، وراحت الهيئات الصهيونية تجمع الاكتتابات لتمد عصاباتها الارهابية فى

فلسطين ، ولبث الدعاية ، دفاعا عن الارهاب الذى كان يجرى هناك ٠٠

ثم قررت بريطانيا أن تنفض يديها من كابوس فلسطين ، وأن تطرح المشكلة على الامم المتحدة٠٠ واتهم «بيفن» سياسيي أمريكا - فى مجلس العموم - بالقضاء على كل فرصة لتحقيق حل ودى للمشكلة ٠٠ وذكر أنه كان على وشك الوصول الى هدنة مع الصهيونيين ، لولا أن أصدر ترومان فى تلك اللحظة الدقيقة تصريحه بوجوب اصدار شـهادات للهجرة لمائة ألف يهودى ٠٠ رغم انه وأتلى أهابا به أن يرجىء هذا التصريح ٠٠ وكان المعتقد انه انما أصدره ليعين « ميد » و « لهمـان » - مرشحى حزبه لمقعدى حاكم نيويورك وممثلهـا فى مجلس الشيوخ - فى الحملة الانتخابية ٠٠

المهم ان تلك الفترة امتازت بالاتجاه السياسى الذى كانت الحكومة الامريكية تتخذه فى كل ما يتعلق باسرائيل والشرق الاوسط ٠٠ وكانت ظروف السياســة الداخلية الامريكية لا تدع لوجهة النظر الاسلامية سبيلا لدى الرأى العام الامريكى٠٠ سيما وان معركة الدعاية التى دارت بين حكومة الانتـداب والوكالة اليهودية كانت تصم الآذان عما سواها ٠٠ وكانت حكومة الانتداب تصر على القيام بحفظ الامن ريثما تتخذ الامم المتحدة قرارا٠٠ بينما واصل الصهيونيون أعمال العنف، بحيث كانت تبدو للرأى العام العالمى تحت أضواء « انسانية » !٠٠ وراحت هيئاتهم تضلل الرأى العام الامريكى ، حتى أصبح كل فرد يدعو الى اباحة الهجرة الى الارض المقدسة دون حدود أو قيود ٠٠ وأخذت الصحف تبرز أنباءهم بالشكل الذى يستثير عطف الرأى العام عليهم ٠٠ كما أخذ الضغط الصـهيونى يؤثر على السياسيين ويخدرهم بالتلويح ب « أصوات اليهود » فى الانتخابات !

الفصل الثالث

التقسيم « غير المقدس » للاراضى المقدسة !

◆ **لم يدخر** الصهيونيون ضغطا الا وجهوه خـلال الدورة الخاصة التى عقدتها الجمعية العامة للامم المتحدة ـ من ٢٨ ابريل سنة ١٩٤٧ ـ وراحت الهيئات اليهودية الامريكية تثير ضجة لتتخذ الامم المتحدة قرارا فى صالح اليهود ٠٠ وتحمست اليانور روزفلت ـ أرملة روزفلت ـ لنفس الغرض ٠٠ وعرف اليهود كيف يعدون المسرح ، ويلعبون أدوارهم ، ويؤثرون على الرأى العام العالمى ٠٠ ولم يرتفع وسط الارهاب العملى والادبى سوى صوت يهودى واحد متزن ، هو صوت الدكتور « يودا ماجنس » رئيس مجلس ادارة الجامعة العبرية فى فلسطين ، الذى أثبت طيلة حياته نفورا من السلطان السياسى ، والذى راح يدعو الى قيام دولة ثنائية فى فلسطين ـ بدلا من تقسيمها ـ والى « التعاون والتفاهم بين اليهود والعرب ، بدلا من الحرب والموت ! » ٠٠ ولكن لم يطل الوقت بالرجـــل حتى نزح الى الولايات المتحدة ، اذ أبت عليه أسرته وأصدقاؤه أن يبقى فى فلسطين معرضا لرصاص الارهابيين الصهيونيين !

وفى هذا الجو الذى يبعث على الاشمئزاز ، أتمت لجنة الامم المتحدة الخاصة بفلسطين دراستها ، وقدمت تقريرها فى الدورة الثانية للجمعية العامة للامم المتحدة ، وقد اقترحت الاغلبيـــة فيه تقسيم فلسطين ٠٠ بينما اقترحت أقلية مكونة من الهند وايران ويوغوسلافيا ، اقامة دولة للعرب وأخرى لليهـــود ، تجمعهما حكومة اتحادية ٠٠ فألفت الجمعية العـــامة فى ٣ سبتمبر سنة ١٩٤٧ ، لجنة أخرى لدراسة الاقتراحين ٠٠ انتهت الى أن « أى حل لمشكلة فلسطين لا يمكن أن يعتبر حلا لمشكلة اليهود عامة » ٠٠ وهـــو قرار انبرى لمعارضته منـــدوب (جواتيمالا) ومندوب (أوروجواى) ، اللذان راحا يدعوان

لقضية الصهيونية ـ وفى اسرائيل اليوم شوارع تحمـل اسميهما !

وأعلنت بريطانيا انها لا تعتزم أن تسخر قواتها لتنفيذ أى مشروع للامم المتحدة فى فلسطين ما لم يقبل طرفا النزاع هذا المشروع ٠٠ واذا « هرشل جونسون » ـ مندوب الولايات المتحدة ـ يتحدث عن حشـد قوات من المتطوعين لتنفيـذ التقسيم ! وكان السيد محمد ظفر الله خان ـ وزير خارجيـة الباكستان ـ هو حامل لواء العرب فى المعـركة ، التى انتهت بالمشروع الذى تحمست له الجمعية العامة فى نوفمبر سـنة ١٩٤٧ ٠٠ ولم يكن يقتصر على التقسيم ، بل أردفه بوجوب قيام اتحاد اقتصادى بين القسمين ٠٠ ولعبت المنـاورات السياسية والديبلوماسية أدوارا خطيرة ، حتى اذا اقترحت لجنة الامم المتحدة أن يعاد المشردون اليهود الى أوطانهم الاولى ، وأن يسـتوطن من لا يريدون العودة منهم دولا أخرى غير فلسطين ، صوتت الولايات المتحدة ضد الاقتراح ٠٠ وصوت معها الاتحاد السـوفييتى ٠٠ وكان لا بد من توفر ثلثى الاصوات فى أحد الجانبين !

وأعيد التصويت فى ٢٩ نوفمبر ٠٠ ولعبت المنـاورات السياسية دورها من جديد ، فاذا التقسيم يقرر بأغلبية ٣٣ الى ١٣ ، وامتناع ١٠ عن التصويت ، وتغيب واحد ٠٠ ولم يكد أحد يفطن وسط هذا الضجيج الى قرار الدول العربية بعـدم التزامها بقرار الامم المتحدة ٠٠ بيد أن الهوة أخذت تتسـع بين الغرب والعالمين العربى والاسلامى ٠٠

الدور الذى لعبته « مسز روزفلت » !

◆ **والواقع** ان توفر الاغلبية جاء نتيجة مناورات وضغط غير مباشرين من الصهيونيين الذين كونوا لجنة لادارة المعركة ، ذات نفوذ دولى عظيم ، وتتألف من قاضى نيويورك « جوزيف بروسكاور » رئيس اللجنة اليهودية الامريكية ـ وروبرت ناثان

ـ وهو اقتصادى معروف بواشنطن ـ ودافيد نايلز المختص بشئون الاقليات فى « البيت الابيض » ٠٠ فراحوا يتحدثون الى الحكومات والديبلوماسيين حـــديث الفرد الى الفرد ، مستغلين علاقاتهم الطيبة بالشئون العامة ، ولا ســيما مركز « نايلز » ٠٠

وكانت اليانور روزفلت تعمل دائبة ، ولا تنى ، تهيب بخليفة زوجها ـ ترومان ـ أن يضغط على وزارة خارجيته ٠٠ ولما تحرج موقف التقسيم ، سلط « برنارد باروخ » على فرنسا ، التى كان يهمها أن لا تحرم من الافادة من مشروع مارشـــال للمساعدات ٠٠ كما استخدمت شخصيات أخرى فى التأثير على بعض الدول مثل هايتى واثيوبيا والفلبين وبارجـــواى ولكسمبورج وغيرها من الدول التى تعتمد على معونة أمريكا ٠٠ ومن أدعى حوادث الضغط للاسى ، أن الفلبين ســحبت مندوبها « الجنرال رومولو » بعد أن ألقى خطابا ناريا ضـد التقسيم ٠٠ اذ اتصل سفيرها لدى أمريكا تليفونيـــا برئيس جمهوريتها وقال له ان التقسيم رغم مجافاته للحكمة ، موضوع اصرار من حكومة أمريكا ، فمن الحماقة التصويت ضـده فى الوقت الذى ينظر فيه الكونجرس عدة تشريعات ذات أهمية للفلبين ٠٠ وكانت برقية مشتركة من ستة وعشرين عضـوا بمجلس الشيوخ الامريكى ـ من الموالين للصهـــيونية ـ من العوامل الهامة فى تغيرموقف الفلبين وأربع دول أخـرى ، فتحولت أصواتها فى صف التقسيم ٠٠ وتحول ســبعة من الرافضين للقرار الى ممتنعين عن التصويت ٠٠ وبقيت اليونان وحدها رافضة للقرار غير حافلة بغضب أمريكا !

وقد صرح « دين رسك » ـ مدير قسم الامم المتحدة بوزارة الخارجية الامريكية اذ ذاك ، ورئيس مؤسسة روكفلر الآن ـ بعد شهور ، بأن الحكومة الامريكية لم تمارس أى ضغط عـلى أعضاء الامم المتحدة فى تلك المسألة ، ولكن « بعض الموظفين

ذوى السلطان » تجاوزوا القانون فى ممارسة الضغط ٠٠ وكان وايزمان على اتصال وثيق بترومان طيلة الوقت ٠٠

وكان تقسيم فلسطين أول موضوع مهم – بل الموضوع الاوحد – الذى عملت فيه أمريكا وروسيا معا فى تعاون وانسجام ، داخل الامم المتحدة ٠٠ فقد كانت روسيا تبغى التعجيل بسحب قوات الانتداب من فلسطين ، لتسود الموقف، خلال فترة الانتقال ، ومن ثم تسنح الفرص للاغراض الشيوعية ٠٠ ولم تفطن أمريكا الى هذه الاغراض ، لان سحابة من الجهل وسوء الادراك لشئون الشرق رانت على بصرها ٠٠ والواقع أن الامم المتحدة أنزلت بهيبة القانون الدولى ضربة قاصمة بقرارها هذا ٠٠ وها هى ذى اسرائيل تقوم دولة مستقلة ، فى ضائقة اقتصادية ٠٠ وهناك خطوط للهدنة ، ومدينة مقدسة تشطرها منطقة عزلاء ، لا تتجاوز خمسين قدما ٠٠ وحوالى مليون لاجىء جديد ٠٠ أولئك هم اللاجئون العرب المشتتون فى الشرق الاوسط ، أشد ما يكونون عرضة لوباء الشيوعية ٠٠

الفصل الرابع

مولد دولة

◆ عاد الاصطدام بين العرب واليهود فى فلسطين على أشده بعد قرار التقسيم ٠٠ فان الجمعية العامة وصفت الدواء لفلسطين وعجزت عن ان تصف طريقة تركيبه ! ٠٠ وتشبث العرب بتجاهل القرار ٠٠ وأخذ المتحمسون للتقسيم فى امريكا يدعون الى التدخل المسلح ، ان لم يكن من جانب الامم المتحدة ، فليكن من جانب أمريكا وحدها ! وراحت مسز روزفلت ، وسومنر وليز ، وهربرت ليهمان ، والبرت توماس ، ينادون باستخدام القوة ٠٠ واقترح تافت انشاء جيش لفلسطين ٠

أما الحكومة الامريكية ، فكان من رأيها أن ميثاق الامم المتحدة لم يخول مجلس الامن حق فرض التقسيم بالقوة ، وأنه لا يستطيع التدخل المسلح الا اذا قرر قيام حالة تهدد السلام فى الارض المقدسة ٠٠ وقد دعا «أوستن» –

سفير أمريكا لدى الامم المتحدة ـ مجلس الامن فى ١٩ مارس سنة ١٩٤٨ ، الى ايقاف كل مجهود يبذل للتقسيم ، والسعى الى عقد هدنة فى فلسطين ، وعقد دورة خاصة للجمعية العامة لاقرار وصاية الامم المتحـدة على فلسطين .. **وكان هذا التحول فى سياسة أمريكا مفاجأة ، وقيل أن « أوستن » تصرف دون علم البيت الابيض ، غير أنه ثبت أن تصريح « أوستن » أرسل الى البيت الابيض فعلا ، ثم رد اليـه على أنه قد أجيـز ، دون أن يعرض على ترومان !**

وتعرض البيت الابيض لحملة قوية على أثر هذا التصريح ، وهدد رئيس المنظمة الصهيونية الامريكية بأن اى تراجع من الامم المتحدة عن التقسيم لن يؤدى الا الى المطالبة بفلسطين كلها لليهود .. فاذا ترومان يؤكد بعد يومين أن لا نكوص عن التقسـيم وأن الوصاية موقوتة ! .. ولـكن هذا لم يقنع اليهود ، وعمل الضغط الصهيوني ـ مع النجاح الذى احرزه الجيش اليهودى الارهابى ، « الهاجاناه » ، فى البداية ـ على احباط مشروع الوصاية .. كما ابدت الجمعية الامريكية للامم المتحدة ـ وهى هيئة عامة ذات تأثير كبير على الرأى العام فى أمريكا ـ عونا كبيرا للصهيونيين ..

وباقتراب يوم انتهاء الانتـداب ، اشتـد الصراع المسلح فى فلسطين ، وازداد تهوس الرأى العام فى امريكا .. وقويت الدعايات الصهيونية للدعوة الى التطوع فى الجيش اليهودى والاكتتاب للحركة الصهيونية .. ثم جاء تعيين الجنرال جون هلدرينج كمساعد خاص لوزير الخارجيـة فى شئون فلسطين ، دلالة على اتجاه السياسة الامريكية ، لمجاهرته بالتشيع للتقسيم !

وأخذ « وايزمان » يتصل بترومان ، ليحصل على اعتراف أمريكا بالدولة اليهودية بمجرد انشائها .. وفى ١٤ مايو سنة ١٩٤٨ ، أفلح كلارك كليفورد ـ مستشار ترومان الذى كان على اتصـال دائم بزعماء الحزب الديمقراطى والصهيونيين ـ فى اقناع الرئيس الامريكى بأن التشبث بالوصاية جدير بأن يؤدى الى هزيمته وهزيمة حزبه فى الانتخابات .. وتوالت على ترومان النذر من الحزب ذاته .. وأبرق « سول بلوم » ـ رئيس لجنـة الشئون الخارجية بمجلس النواب الامريكى ـ الى ترومان ينصحه بالمبادرة الى الاعتراف بالدولة اليهودية .. وفى منتصف الساعة الثـانية عشرة من نهار ١٤ مايو ، تلقى « الياهو ابشتين » ـ الذى تسمى باسم « الياهو ايلاث » ، وكان أول سفير لاسرائيل فى أمريكا ـ نبأ من واشنطن بأن أمريكا لا تمانع فى الاعتراف ، على شريطة أن تتلقى التماسا بذلك من الدولة الجديدة .. مع أن حكومتها لم تكن قد قامت بعد رسميا !

ترومان يخفى نياته عن وزير خارجيته !

◆ **واتفق** ترومان ـ مع مساعديه « كليفورد » و « نايلز » ـ على أن لا يطلع « مارشال » وزير الخارجية أو أحد رجاله على النيـة بالاعتراف ، الا فى ساعة متأخرة من بعد ظهر ذلك اليوم .. فلم يخطر مارشال بذلك الا حوالى الساعة الرابعة مساء ، وقيل له أن لا مجال للمعارضة ، وأنه لا يجب أن يخطر «أوستن » أو وفد أمريكا لدى الامم المتحدة !

وفى الساعة السادسة ودقيقة ـ بتوقيت واشنطن ـ ولدت دولة اسرائيل ! .. وبعد عشر دقائق ـ بالضبط ـ اعلن الرئيس ترومان الاعتـــراف بها كـ « أمر واقع » ! .. ولم يعرف الوفد الامريكى لدى الامم المتحدة ـ وكان فى جلسة الجمعية العامة ـ بالنبأ الا بعد الجميع .. حتى أن مندوب كوبا لم يتمالك ان قال اثناء مناقشات الجلسة : « يبدو ان مندوبى روسيا وبولندا أوثق معرفة بأحداث واشنطن من الوفد الامريكى » !

وبعد أربع وعشرين ساعة من هذا التهور الذى أقدم عليه ترومان ، تلقت وزارة الخارجية الامريكية برقية من حكومة اسرائيل « المؤقتة » تطلب الاعتراف بها !

الفصل الخامس

فى سبيل أصوات اليهود !

◆ **كان** روزفلت لبقا فى ازجاء الوعود المطمئنة للعرب ولليهود .. وكان اليهود يرون فيه نصيرا كبيرا ، ويعتقدون أن فى معاداته أو الاساءة اليه ضررا يودى بالقضية الصهيونية ..

أما ترومان ، فكان أسلس قيادا .. وقد اتخذ الاتجاه الصهيونى فى البداية مترددا وتحت ضغط ، ولكنه لم يكد يرتضيه حتى اضطر الى ان يسير فيه الى النهاية فى تصميم وجد .. وعندما اصطدم ببيفن ـ وزير خارجية بريطانيا ـ فى النهاية ، لم يتراجع .. بل مضى فى سبيله مجبرا وزارة خارجيته على ان ترتضى سياسة موالاة الصهيونية !.. وكان اليهود مطمئنين الى أن ثمة حلقات اتصال فى حكومته تكفل لهم استمرار الرئيس ترومان على سياسة الاهتمام بقضيتهم .. وعلى رأس هذه الحلقـــات كان « ديفيد نايلز » ـ الذى كان مستشارا خاصا ذا نفوذ كبير على الرئيس الامريكى ، والذى كان يعتبر السفير اليهودى الاول فى البيت الابيض ! ـ كذلك كان « ادى جاكوبسن » ـ شريك ترومان فى مكتب المحاماة بمدينة (كنساس) قبل ان يدخل البيت الابيض ـ من أنشط المؤمنين بالقومية اليهودية ، ومن غلاة الساعين لتحقيقها ..

تسرب أسرار الجيوش العربية الى اسرائيل !

◆ **وكانت** لنايلز طرق عديدة فى المساعدة على قيام اسرائيل : من ذلك أن أمريكا فطنت الى الخطر السوفييتى على الشرق الاوسط فى أوائل سنة ١٩٥٠ ، فدعت الدول العربية الى موافاتها ببيانات دقيقة عن جيوشها ، ومعداتها ، وغير ذلك من المعلومات العسكرية السرية الخطيرة .. **وكم كانت دهشة مندوبى العرب حين تبينوا - اثناء اجتماع ضم مندوب اسرائيل والجنرال رايلى فى واشنطن - أن المندوب الاسرائيلى كان مزودا بكل تلك البيانات السرية !.. وظهر أنها تسربت من البيت الأبيض . وقد ذهب رئيس هيئة اركان الحرب المشتركة - الجنرال برادلى - بعد ذلك الى ترومان ، وخيره بين أن يبقى فى منصبه أو يبقى نايلز فى البيت الابيض ، فلم يلبث نايلز ان استقال !**

ولقد أوضح « ارنست ليندلى » حقيقة البواعث التى كانت توجه سياسة أمريكا ازاء فلسطين ، اذ قال فى مقال بصحيفة (واشنطن بوست) : « كانت سياسة الولايات المتحدة ومناوراتها فى معركة فلسطين متأثرة الى حد كبير بصهيونيى امريكا ! » .. وهكذا كانت العوامل السياسية الداخلية هى صاحبة السلطان الاكبر . وقد كشف « فورستال » ذلك بجلاء فى يومياته ، وبين كيف كان تملق اليهود للحصول على أصواتهم هو الشعار السائد فى الحملة الانتخابية سنة ١٩٤٦ .. وكان يأبى أن يدع أية طائفة أو جماعة فى امريكا تفرض نفوذها على السياسة الامريكية الى الدرجة التى تهدد سلامة البلاد ومصلحة امريكا فى المركز العسكرى للشرق الاوسط وفى الثروة البترولية فيه .. ولكنه لم يقو على النفوذ الصهيونى !

وقبل المؤتمر العام للحزب الديموقراطى فى سنة ١٩٤٨ ، امر الرئيس ترومان وزارة خارجيته بتعيين «جيمس مكدونالد» وزيرا مفوضا لدى اسرائيل.. **وكان مكدونالد معروفا بنشاطه من اجل الوطن اليهودى ، وقد غضب مارشال لأنه لم يستشر فى تعيينه رغم انه الوزير المسئول ! .. وقد كان مكدونالد فى مركز عجيب : كان منذ بداية حكومة الديموقراطيين فى منزلة السفير لهم لدى الصهيونيين لضمان اصوات اليهود . وقد مر فى طريقه الى تل ابيب بلندن وروما ، فدعا وزيرى خارجيتيهما الى الاعتراف باسرائيل ، وسفه ما قيل من ان هذا يغضب العرب والمسلمين .. وفى الارض المقدسة أثبت مكدونالد أنه كان سفيرا لاسرائيل وليس لامريكا لدى اسرائيل .. وكان يرفع تقاريره الى البيت الابيض مباشرة وليس الى وزارة الخارجية !**

الفصل السادس

سحر وخرافة أصوات اليهود

◆ **ليس** فى الدوائر السياسية فى واشنطن ما يفوق دوائر سماسرة « أصوات اليهود » قوة ونفوذا .. فقد حرص الصهيونيون على أن يتخذوها ذريعة لارهاب السياسيين ، وان لم يكن ثمة ما يؤيد هذا الارهاب .. فالواقع ان وحدة « الشعب اليهودى » ـ التى استغلها دعاة الصهيونية لحمل السياسيين الامريكيين على التسليم بالقومية اليهودية ـ ليست سوى خرافة ! فالسياسى المحترف ، أبعد من أن يكشف خداع « اليهودى المحترف » ، والفرد اليهودى لا يقبل أن يستغل الصهيونيون صوته ويتجرون فيه بالربا ! .. على انه مما يسهل على السياسى الامريكى معركته الانتخابية ، ان يستطيع ابتياع الاصوات الجماعية أو الطائفية .. فان وحدة الاجناس والطوائف فى امريكا تنحسر فى الحملات الانتخابية عن طوائف قومية ودينية مختلفة .. فهناك « الفريق البولندى » و « الفريق الزنجى » و « الفريق اليهودى » .. **ومع ان الأدلة تافهة على ان ثمة قوة تحشد اصوات اليهود وتوجهها لحزب معين او مرشح معين ، الا أن الخرافة تعيش على الايام .. على أن من السهل تصديق هذه الخرافة ، لاسيما اذا كان المرء يتلقى أجرا مقابل التصديق ومقابل الترويج له .** ولقد كان « باركلى » نائب رئيس الجمهورية ـ فى عهد ترومان ، وبعض أعضاء وزارة ترومان ، وكبار موظفى حكومته ، وأعضاء الكونجرس ، يتقاضون اجورا عن الخطب التى يلقونها فى الحملات الانتخابية ، والتى تتناول اغراض الصهيونية ! .. **ومن ثم كان الحزبان الكبيران يتنافسان على بذل التضحيات لاسرائيل للفوز بأصوات اليهود . وعند ما احتاجت لجنة الشئون الخارجية بمجلس الشيوخ الى دراسة فلسطين والدول العربية ، عهدت بالمهمة الى السناتور « جاى جليت » العضو الديمقراطى عن ولاية « ايوا » ومن كبار المتشيعين للصهيونية !.. وعندما احتاجت لجنة الخارجية بمجلس النواب الى تقرير مشابه ، عهدت بالمهمة الى النائب « جاكوب جافيتز » الذى كان من الدعاة للوطن اليهودى ، وهكذا ..**

ولقد اجتاز « جون فوستر داللز » ـ وزير خارجية أمريكا ـ تجربة مريرة فى هذا المجال : كانت عضويته للمجلس القومى للكنائس تبعد به عن التأثر بالصهيونية . وكان المجلس شديد الاهتمام بتدويل (القدس) .. فلما خاض المعركة ضد « ليهمان » على مقعد الشيوخ عن ولاية نيويورك ، رفض أن يؤيد تولى حكومة اسرائيل ادارة شئون القدس ، فكان موقفه هذا من العوامل التى أدت الى فشله فى الانتخابات .. ومن ذلك الحين وهو يذكر الدرس

المرير ! .. ولا ريب انه تذكره وهو يصوغ برنامج السياسة الخارجية لمؤتمر الحزب الجمهورى فى سنة ١٩٥٢، فاذا بهذا الحزب ينافس الحزب الديموقراطى فى السعى وراء اصوات اليهود ، بازجاء الوعود بأن الحكومة الجمهورية ستبذل كل نفوذها لتحقيق السلام بين اسرائيل والدول العربية ، وأنها ترعى باهتمام ودى الجهود الانشائية التى تقوم بها اسرائيل ! .. الخ

حاخام اليهود لا سلطان له على أصوات اليهود !

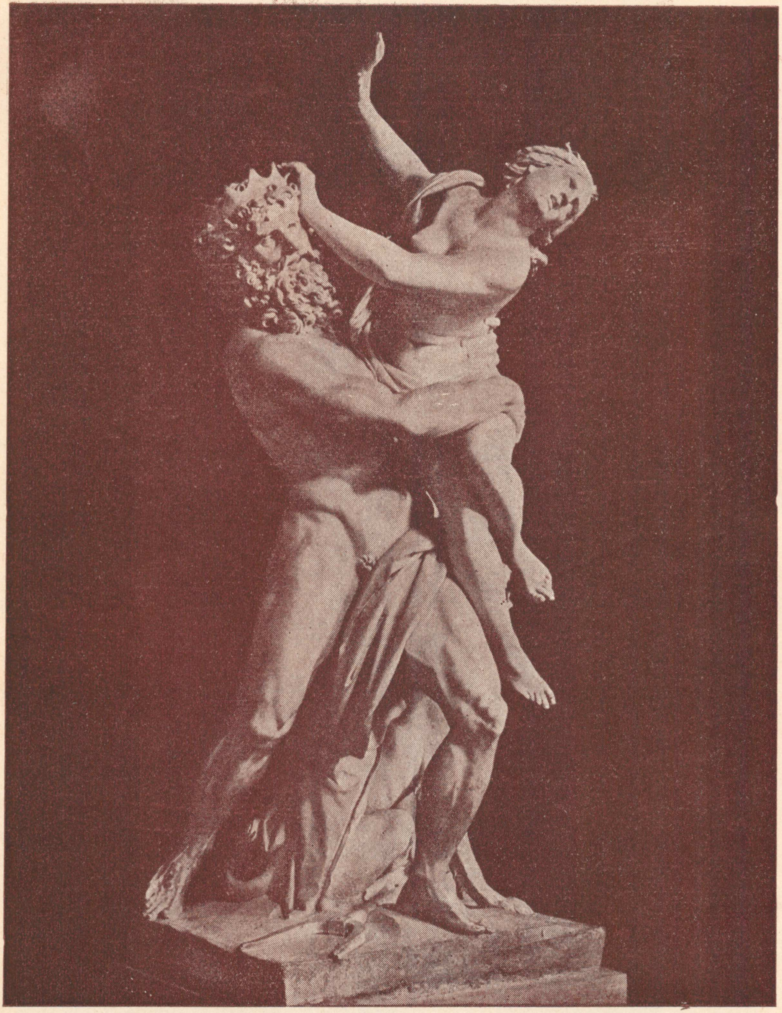
◆ **ومع ذلك** ، فان عدد الأصوات التى فصلت بين الحـــزبين فى سنة ١٩٤٨ ، فى الولايات الخمس الكبرى التى يقال ان اصوات اليهود تتركز فيها ، لم يتجاوز ١٥٠٫٠٠٠ ــ من عشرين مليونا من الأصوات ــ فأى دليل يوحى به هذا عن قيمة أصوات اليهود ؟ .. لا شك انه لو كانت لأصوات اليهود القوة التى تنسب اليها حقا ، لرجحت كفة الحكومة التى خدمت القوميـــة اليهودية خير خدمة ــ اى حكومة ترومان ــ بأغلبية ساحقة .. ولكن الذى حدث ان الديموقراطيين لم يفوزوا بالأغلبية الملمـــوسة الا فى ولايتين من الولايات الخمس !

والواقع انه لم تقم اية ادلة قاطعة على ان اصوات اليهود يمكن ان تقدم كوحدة متماسكة ــ لأى مرشح .. ولقد حدث عندما كان الحاخام « سيلفر اباهليل » يناصر « ديوى » فى انتخابات رئاسة الجمهورية ــ سنة ١٩٤٨ ــ ان اعطت دائرته فى ولاية «اوهايو» اصواتها لترومان بأغلبية ٤٣٫٠٠٠ صوت ! ونفس الدائرة رجحت كفة ايزنهاور على ستيفنسن ــ فى انتخابات ١٩٥٢ ــ بحوالى ٥٢٠٠ صوت « وكان هذا التحول من الديموقراطيين الى الجمهوريين راجعا الى عدم مناصرة العمال لسياسة الديموقراطيين الاقتصادية .. لا الى سلطان الحاخام سيلفر على اصوات اليهود .

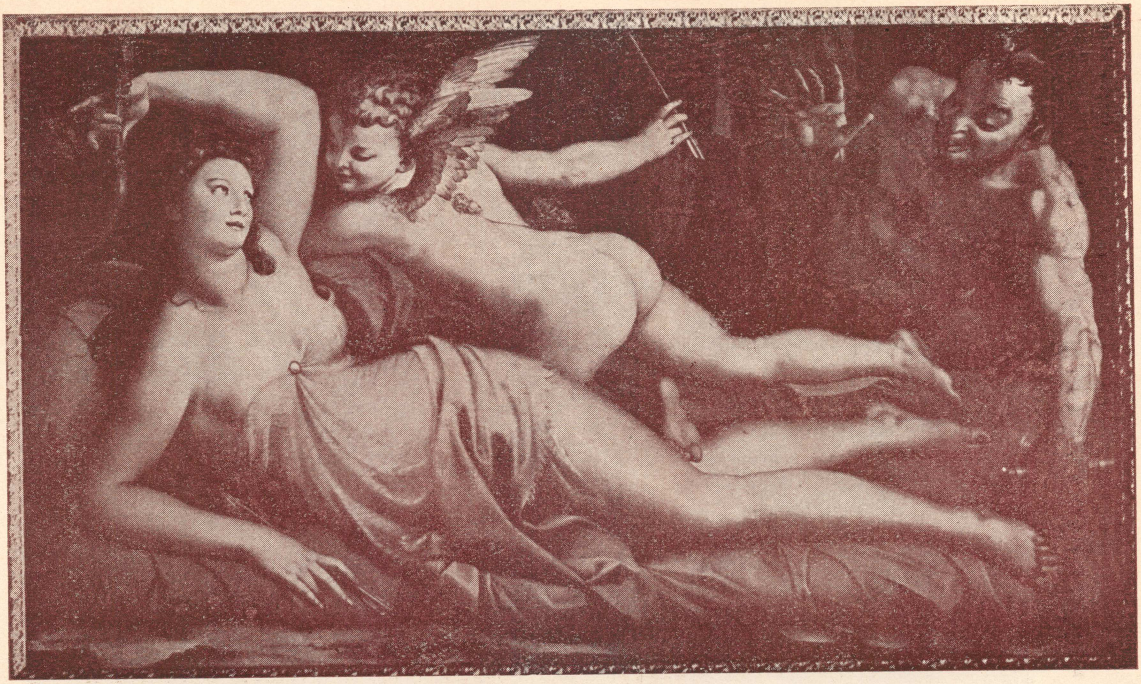
الفصل السابع

وصمات ومخاوف !

◆ **منذ** قيام دولة اسرائيل ، وضعت سياستها ــ وجهود الهيئـــات الامريكية المساعدة لها ــ فوق ابسط انتقاد .. فكان اى ناقد مسيحى يوصم حين يهم بالكلام بأنه من أعداء الجنس السامى ، واى يهودى يعارض الصهيونية لا يلبث ان يصمت خوفا من ان يتهم بـ « خيانة اليهودية » ! .. وهكذا أخذت سياسة امريكا فى الشرق الاوسط ترزح تحت الوصمات والمخاوف .. وتفشى بين اليهود فى امريكا ــ وفى عالمنا المتمدين ــ استعداد فظيع للانحناء امام اسلحة الكلمات ، ولأن يضحى المرء بأفكاره الفردية فى خضم تهوس طائفته



« بلوتون » يخطف « بروسربين » (من أساطير الاغريق)
تمثال من المرمر بمتحف بورجيز ، بروما



فينوس واله الحب !
لوحة للفنان « برونزينو » بمتحف كولونا ، بروما



أو جماعته ، ولأن ينزل الفـرد عن مسئوليته ازاء تحمس المجمـوع ٠٠ وهكذا كسبت الصهيونية عزوها ليهود أمريكا ، لأنها استباحت أن تطلق صفة « الانسانية » على سياسة القـومية اليهودية !

وقد استطاعت القـومية اليهودية ان تسيطر على الصحافة الامريكية سيطرة كاملة ٠ كان أى مقال صهيـونى يعز نقديمه سافرا ، يقدم للقراء تحت ستار « الانسانية » ٠٠ فاذا لم يكن النشر التطوعى كافيا كى يقر فى الاذهان ، سندته الاعلانات اليهودية ! ٠٠ وكان التهديد الاقتصادى من المعلنين اليهود ، الى جانب الاتهام بالعداء العنصرى ،كافيين لحمل أى رئيس تحرير على أن يبذل كل تعاون صحفى ممكن ! ٠٠وكان الضغط يوجه الى أية صحيفـة نيويوركية تنشر شيئا ضد الصهيونية ،ولو كان رسالة من أحد القـراء ٠٠ ولقد صرح ناشر صحيفة النيويورك تايمز « ارثر سلزبرجر » ـ فى نوفمبر سنة ١٩٤٦ ـ بأنه يمقت أساليب القسر الصهيونية ومحاولاتها خنق كل من لا يمالئها ٠٠ فكان هذا التصريح من يهودى وناشر ذى نفوذ ، عمـلا من أعمال الجرأة والشجاعة ، ولكنه لقى من أجله أبشع أنواع الضغط والمقاومة والارهاب !

ولقد ألقى منذ صيف سنة ١٩٤٨ ، بمليون لاجىء عربى الى الجوع والحرمان والغواية الشيوعية ، ولكن الصحافة الامريكية لم تول مشكلاتهم اهتماما يذكر ٠٠ لأنهم عرب ! ٠٠ وكذلك كان الموقف ازاء الكتب : فكانت المجلـدات التى تدافع عن الصهيونية تملأ المكتبات ٠٠ ولكن الكتب التى لا تبدى تحمسـا مشبوبا كاملا ، كانت تلقى كل تشويه فى أبواب النقد بالصحف !٠٠ وكان كل من يجرؤ على ان يرفع صوته ضد هذا العرض المتحيز من جانب واحد لقضية فلسطين ، يتهم بأنه يعمل لحساب الدعاية للعرب فى امريكا ، وبأنه معاد للعنصر السامى !

وهكذا كان كل من يحاول أن يتخذ موقفـا منصفا أو عادلا ، يلقى عنتا ، وتشهيرا ، وضغطا لا قبل له بمثلها ٠٠ على ان المعـاملة القاسية التى كان يلقاها معارضو الدولة اليهودية من غير اليهود ، لا تكاد تذكر بالقياس الى

ما كان يلقاه اليهود غير الصهيونيين ! ٠٠ ولأضرب مثلا بما جرى لى : فأنا لم أر ان الولاء للدولة اليهودية امر ضرورى لتوكيد ايمانى بالدين اليهودى ٠٠ وكرهت - فى اخلاص - الدعاية الصهيونية التى ارادت ان توحى الى مواطنى المسيحيين بأن كل يهود امريكا - متحدين ومتكاتلين - يريدون قيام « شعب يهودى ، منفصل ٠٠ فكتبت فى سنة ١٩٤٩ ، مقالا عن شعورى - وشعور ما لا حصر له من يهود امريكا - وارسلته الى صحيفة « ستردای ايفننج بوست » .. فاذا بها ترده معتذرة عن عدم استطاعتها نشره ، معقبة بقولها : « ومما يؤسف له ان لو كان كل اليهود قد اوتوا ما اوتيه المؤلف من سعة العقل ، لما كانت ثمة مشكلة صهيونية ! »٠٠ ثم رفضت صحف اخرى المقال ، حتى وصل الى « الريدرز دايجست » التى لا تحفل بالاعلانات التجارية ٠٠ ولكنها رغم ذلك شاءت أن تحمى نفسها ، فنشرت مقال الحاخام أباهليل «قضية الصهيونية» فى نفس العدد الذى نشرت فيه مقالى « راية اسرائيل ليست رايتى » ٠٠ وزيادة فى الحيطة دعت المجلة اثنى عشر من ابرز يهود امريكا فكتبوا أن نشر مقال الحاخام خدمة هامة من المجلة !

ومع كل هذا ، فقد تعرضت أنا بعد ذلك لحملة مقذعة انبعثت من منابر المعابد اليهـــودية ، ومن الصحافة اليهودية ، ثم من الصحافة اليهـــودية « الانجليزية اللغة » فى طول البلاد وعرضها ٠٠ كما لقيت « الدايجست » هى الاخرى من الاتهامات الوانا !

الفصل الثـــامن

الشرق الاوسط يفلت !

◆ فى الشرق الاوسط خمسة وأربعون مليونا من العــرب يؤيدهم مائتان وخمسون من المسلمين فى العالم ، اصبحوا يشعرون بالكراهية للغرب ، مما يهدد المصالح الحيوية للولايات المتحدة ، فان أطماع روسيا فى هذه المنطقة - لموقعها الاستراتيجى وثروتها البترولية - معروفة للعالم أجمع !

ولقد ايقظ انتصار الصهيونية الدول العربية ، فاذا بها تتجمع وتتحد . واذا الجامعة العربية تعزز بميثاق للامن الجماعى ٠٠ واذا كتلة محايدة قوية من خمس عشرة دولة افريقية واسيوية فى سبيلها الى القيام !

ولقد كانت الولايات المتحدة الى عهد قريب فى موقف يبشر بمقدرتها على أحباط الستراتيجية السوفيتية ، اذ كانت البعثات التبشيرية ، والمنشئات التعليمية والصحية والاجتماعية فى المنطقة قد بدأت تؤتى ثمــارها ٠٠ لكن سياسة امريكا ازاء فلسطين جرفت كل شىء ٠٠ فلقد تلقت اسرائيل - الحديثة العهد - من المنح الحكومية الامريكية ، والقروض ، ومساعدات النقطة الرابعة ،

والمهمات الزراعية الفائضة عن حاجة امريكا ، حوالى ٢٩٥ مليونا من الدولارات فيما بين نوفمبر ١٩٤٨ ويونيو ١٩٥٣ ، فضلا عن اكثر من ٦٠٠ مليونا من الدولارات من اكتتابات الهيئات الخاصة ، وفضلا عن دخل بيع سندات اسرائيل ٠٠ أما الدول العربية السبع ، التى تملك رقعة قدر رقعة اسرائيل ثلاثمائة مرة ، وسكانا قدر سكانها ثلاثين مرة ، فقد تلقت فى الفترة ذاتها ٨٨ مليونا من الدولارات ، الى جانب ١٥٣ مليونا لنجدة اللاجئين العرب ، (وقد انفقت عليهم بوساطة الهيئة التابعة للامم المتحدة)

ولقد كان من جراء سياسة امريكا ازاء فلسطين ، ان اصبحت كثير من الدول العربية والاسيوية - التى يستند اليها ميزان القوى فى العالم - اعداء للولايات المتحدة ٠٠ وزاد من الهوة بين معسكر الغرب وبين هذه الدول ما لقيته قضيتا مراكش وتونس فى الامم المتحدة من عنت ومهانة ٠٠

اليهودية شيء ٠٠ والصهيونية شيء آخر !

◆ **والواقع** ان كل مشكلات فلسطين تدور حول سؤال واحد : ما هو اليهودى ؟ ٠٠ ان فى اسرائيل قوما يعتنقون اليهودية وينتمون الى الجنسية الاسرائيلية ، ولكن خارج هذه الدولة الصغيرة كثيرين ممن يعتنقون الدين اليهودى ولكنهم لا ينتمون الى هذه الدولة ٠٠ وليس هذا الوضع بالغريب ، ولكن مسلك دولة اسرائيل نحو اليهود فى جميع العالم ، ومسلك هؤلاء نحو تلك الدولة ، يبينان ماهية القومية اليهودية ، لا القومية الاسرائيلية ٠٠ ذلك ان لب القومية اليهودية هو الاعتقاد بأن ثمة يهودا فى جميع أرجاء العالم يكونون الأمة اليهودية ٠٠ ومبعث القومية اليهودية لا يقتصر على الحركة الصهيونية ، بل هو مستمد من عوامل تاريخية ، وعنصرية ، واجتماعية ، ونفسية ، وروحية ٠٠ وليست الصهيونية سوى اداتها السياسية ، وهى تسعى الى تحول اليهودية من دين الى امة بطول العالم وعرضه ، تكون اسرائيل مركزها السياسى ٠٠ وفى ذلك قال الحاخام الدكتور ستيفن وايز ، ذو النفوذ القوى على يهود امريكا : « لست مواطنا امريكيا يعتنق الدين اليهودى ، وانما انا يهودى ٠٠ وانا امريكى ٠٠ لقد عشت امريكيا ثلاثا وستين سنة من اربع وستين من حياتى ، ولكننى كنت يهوديا منذ اربعة آلاف عام ! ٠٠ »

ومع ذلك فان كثيرين من يهود امريكا يبدون راضين عن تشتتهم عن وطن اليهودية ، ولم ينتهز فرصة « العودة الى الوطن فى فلسطين » سوى قلة منهم ٠٠ وحتى الذين ذهبوا منهم - قبل اسرائيل - ذهبوا ليعمروا الارض المقدسة ويستعمروها ، لا لينشئوا دولة ٠٠

وكم فى تاريخ الصهيونية من متحمسين قبلوا ان يكون وطن اليهود ارضا غير فلسطين ، كما قبل هرشل « اوغندا » ، ولكن صهيونيى اوربا الشرقية هم الذين اصروا على ان يكون الوطن هو « فلسطين » بالذات ٠٠ وهم يبنون رأيهم فى الامة على العنصر : فاليهودى ليس هو ذاك الذى يمارس العقيدة اليهودية ، وانما هو الذى « ولد يهوديا » ٠٠ ووراء اعماق رأيهم هذا ايمان بأن العداء للعنصر السامى لا يمكن ان ينمحى من الوجود ، ومن ثم فاليهود لا يستطيعون ان يمارسوا حياة عادية خارج اسرائيل ٠٠

وقد أصبحت هذه الفلسفة اليائسة ـ وظلت ـ فلسفة الصهيونية ٠٠ فاسرائيل من صنع حركة تؤمن بأن لا سبيل لليهود الى حياة كريمة الا اذا استقروا فى ارض يهودية صميمة : لغة ، وعادة ، وثقافة ، وحكومة ٠٠ ولم يسقط الدين من هذه الاعتبارات اعتباطا ، وانما لأن شريعة اليأس رأت ان تسعى الى العالم الغربى وراء ستار « الانسانية » !

ومن العسير ان نرد الصهيونية فى امريكا الى الاضطهاد العنصرى ، فان يهود امريكا لم يتعرضوا لأى اضطهاد فيها ٠٠ ومن ثم كان الزعماء الأولون للصهيونية الامريكية دعاة مثل انسانية ، لا دعاة سياسة وحكم ٠٠ ولقد كان الدكتور جودا ماجنس ، والبروفيسور البرت اينشتين ، ولويس براندیس ـ قاضى المحكمة العليا ـ من اشد المعارضين لليهودية السياسية ٠٠ حتى لقد اجتلب براندیس على نفسه عداوة « وايزمان » ٠٠ وعند ما مات وايزمان ، عرض منصب رئاسة جمهورية اسرائيل على اينشتين بصورة غير رسمية ، ولكن اينشتين كان ينفر دائما من فكرة الدولة اليهودية ، وكان من المناصرين لفكرة اقامة دولة مشتركة يعيش فيها العرب واليهود فى فلسطين ، بل انه طالما قسا فى مهاجمة الارهاب الصهيونى ٠٠

الفصل التاسع

هل « الاسرائيلية » دين جديد ؟

◆ **ليس** لدى اليهودى العادى من المعرفة بدينه سوى النذر اليسير ٠٠ فقد انحصر الميراث الذى وصل اليه أبا عن جد فى عبارة : « أنت لست كسواك ٠٠ انك يهودى ، فيجب أن تساعد غيرك من اليهود » ٠٠ لذلك كان من السهل على الصهيونية أن تبث فى اليهودى مبادئها منذ حداثته ، عن

طريق البرنامج التربوى الصهيونى الذى عبر عنه « لويس فولك » ـ نائب رئيس المنظمة الصهيونية فى أمريكا ـ بقوله : « يجب أن نوسع من نطاق جهودنا التربوية ٠٠ يجب أن ندعم حركة الشباب ، وأن ننشر التربية والتعليم العبرى فى البلاد، وأن نساعد المعاهد التى يسير فيها التعليم وفق روحنا ، وأن نحسن معسكرات الصيف الصهيونية القائمة ونقيم سواها تحت اشراف المنظمة ، وأن ننظم شبكة من الدراسات المسائية فى كافة أرجاء البلاد ٠٠ وأن ندعم الصحافة العبرية وننشىء أقساما لدراسة اللغة العبرية فى الكليات والجامعات الامريكية ٠٠ الخ »

ولعله ليس ثمة ما هو أنسب لبث الفكرة القومية من معسكرات الصيف ، حين يكون الاطفال فى استجمامهم وعطلتهم أكثر استعدادا لتقبل ما يزجى اليهم ، فيدرب الاطفال فيما بين الخامسة والثامنة من أعمارهم على رسم مناظر فلسطين وتلوينها ٠٠ حتى الالغاز والاحاجى تدور حول اسرائيل !٠٠ حتى أوراق اللعب رسم فيها زعماء الصهيونية والمواقع التاريخية فى اسرائيل ٠٠ كما ملئت مكتبات المعسكرات بكل ما يشوق الاطفال الى اسرائيل وفلسطين !

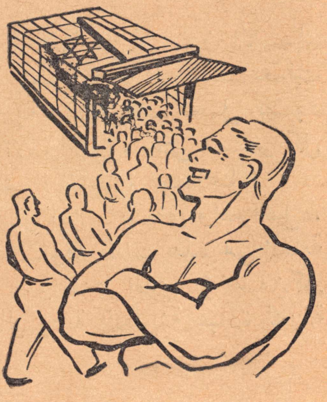
ولقد حرصت الدعاية الصهيونية دائما على أن تقرن التمسك بالعقيدة اليهودية ، بالمعونة المالية لاسرائيل ٠٠ واستعملت كل وسائل الضغط ـ من اقتصادية واعلانية ـ لحمل يهود أمريكا على شراء سندات القرض الاسرائيلى ، حتى شعر كل يهودى ان فى مقاومة القسر على الشراء انتحارا اجتماعيا !

ونادرا ما تفرق الصحافة والراديو بين « يهودى واسرائيلى »، وبين « اليهودية » و « الصهيونية » ـ وقد كانت هذه هى الغاية التى يصبو اليها دعاة الصهيونية ـ والمغزى الذى يؤخذ من كل هذا ، هو ان الصهيونية جعلت اليهودية الحديثة عبادة لدولة اسرائيل ، لا لله !

الفصل العـــاشر

عملية « تجميع »

◆ **حرص** دافيد بن غوريون فى تصريحاته السياسية على أن يجهر بوجوب نزوح يهود العالم أجمع الى اسرائيل . وهـو كرئيس وزارة اسرائيل ، والزعيم الاول لحركة الصهيونيـة العالمية ، لا يلقى القول على عواهنه .. وقد قدر فى مايو سنة ١٩٥١ - عند زيارته لامريكا - أن اسرائيل يجب أن تستوعب فى السنوات العشر التالية أربعـة ملايين من اليهود فوق سكانها . ولم يدع مجالا للريب فى أى نوع من اليهود يجب أن يكون هذا الحشد ، فان اسرائيل لم تعد ترغب فى أولئك الضعفاء والمعلولين الذين نزحوا اليها من بلاد مثل اليمـــن وبلغاريا ، وانما هى ترنو الى الشباب الامريكى السليم الجسم والصحة .. وقد اتهم بن غوريون الزعامة الصهيونية فى أمريكا بأنها أفلست ، اذ أخفقت فى حمل الجماعات الكبيرة من يهود أمريكا على الهجرة الى اسرائيل .. وشكا من أن زعماء الصهيونية فى أمريكا لم يقبلوا على الرحيل الى اسرائيل ، حتى أن عدد من ذهب منهم لم يصل الى خمسة !



ولقـد حاول بن غوريون أن يلوح للمثقفين اليهود بأن ليس من السهل عليهم أن يجدوا أعمالا فى الشركات غير اليهـــودية فى أمريكا ، ولذا فمن الخير أن ينزحـــوا الى اسرائيل .. فاذا هذا الادعاء يثيرهم ، اذ لم يكن بين يهود أمريكا من يقبـل من

سياسى أجنبى أن يصم علاقته بأمريكا فيقصر ولاءه لها على مجرد الكسب والعمل ٠٠ والواقع ان المغريات التى أحيطت بها اسرائيل من البداية كانت مصطنعة ، زائفة ، لم تجز حتى على اليهود المشردين فى أوربا ٠٠ فقد أثبت هؤلاء انهم يؤثرون الاستيطان فى أية دولة أو بلد عدا اسرائيل ٠٠ حتى لقد اقترح الحاخام « تشابلن كلاوزنر » برنامجا لترحيل المشردين، أوجب فيه «قسرهم» على الرحيل الى فلسطين، وعاب فيه ترك الحرية لهم فى اختيار الموطن الجديد الذى يروق لهم !

يهود الشرق ٠٠ غير مرغوب فيهم فى اسرائيل !

◆ **ولقد** بدأت الدعوة لتجميع اليهود فى اسرائيل ، فى اجتماع مجلس الوزراء الاسرائيلى فى ١٥ أغسطس سنة ١٩٤٨، اذ قال بن غوريون : « ان الاجيال لم تتحمل العناء وتكافح لكى ترى فى هذه البلاد ٨٠٠ر٠٠٠ يهودى فقط ٠٠ ان واجب الجيل الحاضر أن ينقذ اليهود فى الدول العربية والاوربية ٠٠ يجب أن ننقذ من بقى من أبناء اسرائيل فى المهجر ، وأن ننقذ ممتلكاتهم ، فبدون ذلك لن نقيم صرح هذه الدولة ! » ٠٠ وقد أتاحت الحرب بين اسرائيل والعرب فرصة لهذا « الانقاذ » ، اذ زين الضغط والدعاية لكثير من يهود الدول العربية النزوح الى اسرائيل ـ سيما وان الحرب أحرجت مراكز اليهود المقيمين وسط العرب ـ ولكن هؤلاء اليهود لم يكادوا يستقرون فى اسرائيل ، حتى وجدوا من معاملة اليهود الغربيين ما أساء اليهم !٠٠ وقد أصبح اليهود الشرقيون يؤلفون ٤٥ فى المائة من مجموع سكان اسرائيل ، مما حدا بالوكالة اليهودية الى أن تعدل فى نوفمبر سنة ١٩٥١ ، عن سياسة الهجرة الحرة ، فتقيدها بحيث تفضل الشباب والاصحاء وذوى الخبرة الفنية ٠٠ بيد أن هذا التقييد اجراء موقوت ، فقد صرح « شاريت » فى المؤتمر السنوى للعمال الصهيونيين فى أمريكا ـ فى يوليو

١٩٥٢ ـ بأن اسرائيل لا تزال تنشد أربعة ملايين نسمة ٠٠ ولكنهـا أصبحت تتطلع ، لاستكمال هذا العـدد ، الى دول الامريكتين الشمالية والجنوبية ٠٠ ومع ذلك ، فان معظـم اليهود الامريكيين الموجودين فى اسرائيل رفضوا الجنسـية المزدوجة ـ أى أن يكونوا من رعايا اسرائيل ورعايا أمريكا فى وقت واحد ـ وحرصوا على استبقاء الجنسية الامريكية وحدها ٠٠ وكذلك فعل يهود تونس ومراكش الذين نزحوا الى هناك مخدوعين بمناورات سياسة تجميع اليهود فى اسرائيل !

الفصل الحادى عشر

خرافة العنصر السامى !

◆ **أثبت** علماء الاجناس والاصول البشرية ، ان « الآرية » و « السامية » ليستا سوى كلمتين لا تدلان علميا على أى معنى عنصرى ٠٠ فان العنصر ـ أو الجنس ـ يتطلب توارث صفات بدنية معينة بين جماعات كبيرة من الجنس البشرى ـ كلون الشعر والعيون ، وشكل الرأس ـ وهو ما لم يعد اليوم ينطبق على السامية والآرية ٠٠ بل ان العناصر البشرية تنقسم ـ حسب علم الاجناس ـ الى ثلاثة : العنصر الزنجى والعنصر المغولى أو الشرقى ، والعنصر القوقازى أو الابيض ٠٠ وقد وجد أن اليهود موزعين بين العناصر الثلاثة ! ـ فضلا عن أن العناصر جميعا فى اختلاط وتزاوج مستمرين ـ **أما « الآرية » و « السامية » فلا تدلان على معنى علمى ، وانما على وصف لغوى ٠٠ فالسامية نسبة الى سام بن نوح ، الذى ينسب الى ذريته العرب واليهود على السواء ٠٠ ولكن سوء اسـتغلال الكلمة جعل لها معنى عنصريا ، وقصر هذا المعنى على اليهود ـ مع ان اثبات نسب أى انسان الى فلسطين القديمة من المستحيلات العلمية**

بل ان أصل العبريين موضع شك علمى ٠٠ فان اسمهم مشتق من « عبرى » ، أى القادم عبر النهر أو البحر ٠٠ وقد اكتسب النبى ابراهيم هذا اللقب حين عبر الفرات فى طريقه من أور الى فلسطين التى كانت تعرف بأرض كنعان ٠٠ ومن ثم فالعبرية صفة تصويرية لا جنسية أو عنصرية ٠٠ ولقد أصبح مفسرو التوراة يرون أن خروج موسى على رأس قوم موحدين ، من مصر الى أرض الموعد ، ما هو الا تبسيط لتاريخ غزوات تاريخية على كنعان ٠٠ ومن المحتمل أن احدى القبائل العبرية انحدرت فى هذه الغزوات الى مصر حيث استذلت ٠٠ على أن المؤكد أن ما بين ثلاثة وستة قرون انقضت بين ابراهيم وموسى ٠٠ ثم ، ما هو أصل موسى نفسه ؟٠٠ ان بعض المؤرخين يقولون انه من دم مصرى ، وان اسمه مشتق من كلمة « موسى » أو « موز » الفرعونية ، ومعناها طفل ٠٠ وقد ترددت فى أسماء بعض حكام النيل مثل « آح ــ موسى » و « رع ــ موسى » الذى حرفت الترجمة الاغريقية اسمه الى « رعمسيس » أو « رمسيس » !

ثم ٠٠ من كان القوم الذين قادهم موسى الى أبواب كنعان ؟ ٠٠ ان قصة « يوسف » تلقى بعض الضوء : ففيما بين سنتى ١٦٠٠ و ١٥٠٠ قبل الميلاد حدثت مجاعات فى أرض الشام ، فنزحت بعض الاقوام الرحالة ــ من أصول بابلية وارامية ــ الى مصر ، حيث استعبدوا ٠٠ ثم غادروها مهاجرين مع غيرهم ممن كانوا يتكلمون اللغة السامية ، كالعمونيين ٠٠ كذلك نجد أن قبيلة « يودا » ــ أو قوم هود ــ جاءوا نتيجة اختلاط الاسرائيليين بالكنعانيين ٠٠ كما اختلط الكنعانيون بالفلسطينيين والحثيين ٠٠ وقد يكون نصف من يسمون أنفسهم اليوم يهودا منحدرا من الغزاة الحثيين ، والنصف الآخر من المغلوبين الكنعانيين !

وتبين الرسوم المصرية القديمة العبريين كقوم ذوى عيون زرقاء وشعر أشقر ٠٠ وهى صفات كانت تنطبق على العموريين، أحد الشعوب السبعة التى كانت تسكن أرض كنعان قبل الغزو العبرى وبعده ٠٠

العرب أقرب الى العنصر السامى من اليهود

◆ **هكذا** اختلطت الانساب الاولى ٠٠ كما أن اليهود الذين انطلقوا فى شعاب الارض كانوا قطرة فى خضم الشعوب الاجنبية التى لم تكن تجمعها ببنى اسرائيل أية رابطة من عنصر أو لغة أو ثقافة ٠٠ وقد اختلطوا بهم ، واجتذبوا منهم الى دينهم أفرادا وجماعات ، بل وشعوبا بأكملها !٠٠ ومن ثم فمن العسير اليوم على امرىء أن ينسب نفسه الى عنصر معين ٠٠ غير ان العنصرية كثيرا ما تهفو بعقول الناس فيجعلون منها أساسا لحبهم وكراهيتهم ٠٠ **ولقد كان سحر « العنصر العبرى ـ السامى » أعظم المغريات التى توسلت بها الصهيونية ، مع ان أقرب الناس الى هذا العنصر يوجدون بين الشعوب العربية فى الشرق الاوسط ، وأغلبهم لا يعتنقون اليهودية !٠٠ بل ان العرب أنفسهم أقرب وأنقى نسبا الى الدم العبرى والاسرائيلى من معظم أولئك الذين « جمعوا » فى اسرائيل اليوم !**

واذا كان ثمة نموذج للعنصر السامى المنحدر من سلالة ابراهيم فى العصر الحديث ، فهو الملك ابن سعود ٠٠ وان المسلمين والعرب ليدعون يهود الشرق الاوسط بأبناء العمومة والخؤولة ٠٠!

الفصل الثانى عشر

الضغط الصهيونى

◆ **ولنعد** الى الموضوع الاول : الواقع انه ليست فلسطين وحدها التى قسمت ، وانما انقسم أيضا العدد الهائل من يهود أمريكا الى شطرين ، بتأثير نفس القرار السياسى الذى يوزع

قلب كل يهودى بين ولاءين : الولاء لامريكا ، والولاء لاسرائيل !٠٠ وقد دعا بنى غوريون الصهيونيين الى مناصرة اسرائيل ولو كانت حكومات أوطانهم ضدها - وقد قال فى خطاب ألقاه فى سنة ١٩٥٠ ، على صهيونيى أمريكا : « ليس لب الصهيونية الصداقة أو العطف ، وانما هو حب اسرائيل ٠٠ دولة اسرائيل !٠٠ ويجب أن يكون حبا مطلقا من كل قيد وشرط ٠٠ يجب أن يكون هناك تضامن تام مع اسرائيل وشعب اسرائيل »

وقد ورد فى نشرة أصدرتها مدرسة الاحد بجماعتى الشبان العبريين والشابات العبريات « بواشنطن هايتس » هذا القسم العجيب : « هذا يميننا يا اسرائيل : أقسم أن أكرس ولائى لله ، وللتوراة ، وللشعب اليهودى ، وللدولة اليهودية »

وهذا التضامن المنشود بين اليهود واسرائيل من شأنه أن يقحم غير الصهيونيين فى النشاط الصهيونى ٠٠ كما أن الولاء المزدوج من شأنه أن يستدرج اليهود الى مناصرة الصهيونية فى حركات ضد سياسة أمريكا ، دون أن يشعروا ٠٠ ومن ذلك ما حدث حين جعلت أمريكا برنامج مارشال لتعمير أوربا جزءا أساسيا من سياستها الخارجية فى سنة ١٩٤٨ ، فقد قامت الاحزاب الشيوعية فى أوربا تحاول عرقلة البرنامج ، ونظمت روسيا حركة الحصار الجوى فى ألمانيا ٠٠ وفى تلك الاثناء الحرجة ، بذلت الصهيونية نشاطا قويا لمقاطعة السلع البريطانية فى أمريكا ، فى حين أن ذلك كان يضر بالسياسة الخارجية الامريكية التى كانت تهدف الى اتاحة أكبر قدر من الدولارات لحليفتها كى تصلح من شئونها ٠٠ كذلك أثارت مسألة الخطر الذى زعمت انه يهدد اليهود من وراء تسليح ألمانيا ، ودبرت خطة الضغط على ألمانيا لدفع تعويضات لليهود ٠٠ الخ

وهكذا تضغط الصهيونية على اليهودى الامريكى ، فلا تكاد تفسح له مجالا ليختار بين أن يكون أمريكيا يعتنق الدين اليهودى ، أو يهوديا من رعايا اسرائيل !

مسؤولية اسرائيل اليوم

◆ **ان** اسرائيل محوطة بملايين من العرب ، ومن واجبها أن تدرك أنه ليس يكفى أن تعيش فى البيئة المحيطة بها ، وانما يجب أن تتلاءم وتتعاون مع هذه البيئة ٠٠ ولهذا ينبغى أولا أن تكف عن أن تكون « يهودية » ـ ولتكن دولة اسرائيلية فحسب ، فتقنع بحدودها ولا تمس الولاء الذى لأية دولة على رعاياها اليهود ـ كما ينبغى أن تكف عن الدعاية السياسية وغير السياسية خارج حدودها ٠٠ ولتبدأ قبل كل شىء ـ وعلى الاقل ـ بتنفيذ القرارات العديدة التى أصدرتها الامم المتحدة وقامت عليها تلك الدولة

هذا ولم تتعرض أمة من قبل لالتزام أدبى نحو تخفيف مشكلة اللاجئين يفوق ما تتعرض له اسرائيل ، فان التحمس الذى أبدته الدول لقيام اسرائيل ذاتها كان مستوحيا من الرغبة فى انقاذ اللاجئين ، فاذا النشاط السياسى لاسرائيل يخلق المشكلة الحقيقية للاجئين العرب ٠٠ فمن أجدر من اسرائيل بمراعاة واحترام حق المشردين فى العودة الى ديارهم ؟٠٠ وفى الحصول لهم على تعويض كامل اذا لم يشاءوا العودة ؟

أما يهود أمريكا ، فجدير بهم أن يدركوا ـ فى أسرع وقت وبأجلى معنى ـ ان بقاء اسرائيل هو مسئولية ملقاة على عاتق اسرائيل وحدها ٠٠ وان اليهود الامريكيين الذين يحبون أن يساهموا فى ذلك يجب أن يعملوا فى اسرائيل نفسها ، وأن يتخلوا عن أمريكيتهم فيغدوا يهودا اسرائيليين ٠٠

وأخيرا .. فانه لا سبيل الى تغير صحيح وشامل فى مسلك أمريكا نحو الشرق الاوسط ، الا بتغيير الجو الذى يسود يهود أمريكا .. فان تلك العقدة النفسية التى تتملك الاوساط السياسية بشأن « أصوات اليهود » ستظل تخيم على سياسة أمريكا فى الشرق الاوسط ، ما لم يقم يهود أمريكا أنفسهم بكشف زيفها! .. يجب عليهم أن يعملوا دائما، وبجلاء، على اثبات أن الصهيونية لا تتكلم الا عن نفسها فقط ، وليس عن اليهود عامة ..



دائرة معارف
الثقافة العالمية
مطالعات
فى الكتب والمجلات والموسوعات
ومشاهدات
فى المسارح والمعارض
ودور السينما.



الطوفان

◆ ليست هذه الاساطير التى أخذنا فى نشرها منذ بضعة أعداد ، بمادة عادية أو حكايات خرافيـة نقصد بها الى التسلية وانفـاق وقت الفراغ ، وانما هى دراسـة ثقافية جزيلة النفع ، تستطيع أن ترجع اليها فى أى وقت كلما عرضت لك مناسبة احتجت فيهـا الى أن تعرف شيئا عن تلك الاسماء الرنانة لآلهة الاغريق وربات الحكمة والشعر والجمال وغيرهن من أبطال الاساطير القديمة ..

ولو كان قصدنا من نشر هذه السلسلة مجـرد التسلية ، لبدأنا اذن بأساطير كيوبيد وأفروديت وأبولو ، وغيرها من أساطير الحب والمتعة .. لكننا آثرنا أن ندع هذه حتى يجىء أوانها فى حينهـا ، وبدأنا بالاساطير السابقة لهـا حسب ترتيبها الزمنى ، منـذ بدء الخليقة وخلق الانسان .. قبل أن يكون هناك حب أو جمـال أو غرام !

ويسر «كتابى» أن يعهد بكتابة هذه الاساطير الى اخصائى فى هذا الباب ، هو الاستاذ « أمين سلامة » ، الحاصل على درجة «ماجستير» فى الآداب اليونانية واللاتينية :

أسلحة المرأة !

◆ .. وزودت الآلهـة المرأة بالجمال والجاذبية ، والصـوت الناعم ، والخطو الرشـيق .. وأطلقت عليها اسم « باندورا » .. ثم كلفت « هرمس » رسـولها الخاص ، بأن يرافقها من جبـل الاوليمب ـ مقر الآلهة ـ الى الارض ، ويقدمها الى « بروميتيوس » ساعد « زيوس » الايمن وخالق الانسان

.. لكن هذا كان قد بدأ يفقد ثقته فى نيات زيوس نحوه ، فأدار ظهره للمخلوق الجديد الجميل .. أما شقيقه « أبيمتيوس » فقد استقبل المرأة فرحا مرحبا !

وكانت « باندورا » قد أحضرت معها هدية من الاله زيوس ، هى صندوق صغير مغلق ، حذرت بشدة من أن تفتحه .. **لكن الخالق الذى خلق المرأة كى تكون لعنة للرجل ،**

جعل الفصول من طبيعتها ، وأرادها أن تخالف توصيته فتفتح الصندوق الغامض .. وقد فعلت !.. لكنها لم تكد تفتحه حتى خرجت منه أسراب من الحشرات الشريرة تحمل جميع الامراض البدنية والعقلية والنفسية التى قدر للجنس البشرى أن يبتلى بها منذ ذلك التاريخ .. خرج منها : الروماتيزم ، والنقرس ، والعمى ، والصمم ، و .. والخبث ، والعجرفة ، والقسوة ، والطمع .. الخ . وكانت هيئة كل حشرة منها أقبح وأنكى من الاخرى .. وسرعان ما غام الجو واظلم من فرط ازدحامه بأجنحتها السوداء .. فتراجعت باندورا مذعورة مما رأت .. ولكن بقيت فى قاع الصندوق فراشة واحدة ذهبية اللون ، زاهية المنظر ، هى « الأمل » !.. فان الآلهة التى أوجدت للانسان البلاء قد آثرت ـ بقبس من رحمتها الالهية ـ أن توجد له فى تضاعيفه الرجاء !

العصر الذهبى

◆ وعاش الانسان الاول فى ذلك العصر «الذهبى» فى السموات ، خالى البال مجردا من المشاغل ، لا يتطرق الهم الى قلبه ولا الحزن الى فؤاده ، يعيش فى راحة وهدوء وطمانينة ، لا يكد ولا يتعب ، ولا يعرف للمشاق أو الآلام معنى . أو بعبارة أخرى انه عاش كالآلهة تقريبا .. حتى الشيخوخة لم تجرؤ على الوصول الى هؤلاء القوم ، ولم تترك السنون أثرا فى أبدانهم ، ولا اقترب الشيب من رءوسهم ، بل ظلت أيديهم وأرجلهم محتفظة بنضارتها وقوتها وشبابها ، كما كانت أعضاؤهم دائمة الليونة بضة طرية ..

ولم يجرب الانسان الاول الكوارث والنائبات ، ولا المصائب والنكبات ، بل كان يتمتع بالولائم الفاخرة الزاخرة بكل ما لذ وطاب ، ويقضى جل أوقاته فى الفرح والمرح وكل مايدخل البهجة والسرور الى النفس ، ولا غرو ، فقد كان الآلهة يحبون أولئك القوم ويغدقون عليهم الخيرات ، فالحقول تعج بمختلف المحاصيل التى تضيق المخازن ، مع رحابتها ، عن أن تسع نصفها ، والبساتين تنوء أشجارها وشجيراتها بحمل ماعليها من الثمار الناضرة من شتى الانواع ، والورود والرياحين تعطر بأريجها الهواء لمسافة عدة أميال ، والاغنام قد كثر نتاجها حتى صار فى عدد النمل ، وطال صوفها وطاب لحمها ، والمواشى تدر لبنا دسما وفيرا وتلد الالوف من العجول .. لذلك كان القوم ينعمون بالثراء والرخاء ، لهم ما يطلبون ولديهم ما يشتهون . وكان الهدوء والطمأنينة يسودان الأرض ، والناس يعيشون فى سكون ووئام ، ومحبة وانسجام ... فلما أقبلت اللحظة التى كان عليهم فيها

أن يبرحوا الدنيا ويرحلوا عن الأرض ، أصبحوا آلهة محبين للخير ، يذرعون الارض المكسوة بالسحاب ، طولا وعرضا ، شرقا وغربا ، ويمنحون الهبات والعطايا . وكانوا يحكمون بالقسطاس المستقيم ويمسكون بميزان العدالة وينتقمون من المسىء والآثم ، لا يتركون صغيرة ولا كبيرة حتى يجازوا عليها ، ان خيرا بخير وان شرا بشر !

العصر الفضى

◆ ثم خلق الآلهة بعد ذلك جيلا آخر سمى عصره بعصر الانسان «الفضى» . وكان أفراد ذلك الجيل يختلفون اختلافا بينا عن سابقيهم من حيث الشكل والروح .. كان أبناؤهم يظلون فى ميعة الصبا مائة عام كاملة ، يأتون الحركات الصبيانية الساذجة ، وترعاهم أمهاتهم بعطفهن وحنانهن ، فاذا بلغ أحد أولئك الاطفال سن الرجولة اليافعة ، تبقى له من العمر أجل قصير نسبيا اذا قورن بسن الطفولة ...

وقد انغمس هذا الجيل فى الشهوات والملذات أيما انغماس ، ومشى أفراده فى الارض مرحين ، يصعرون خدودهم ولا يقوون على كبح جماح شهواتهم .. وكانوا متوحشين متغطرسين لا يتورعون عن الاعتداء على بعضهم البعض والاساءة الى بنى جنسهم وذويهم . وليت الامر وقف عند ذلك الحد ، بل انه تعداه الى حد أن أهمل الرجال الآلهة تمام الاهمال ، واستهتروا بحقوقهم عليهم كل الاستهتار ، فتركوا عبادتهم وامتنعوا عن تقديم الذبائح والتقدمات وذبحها فوق مذابحهم !

وكان هذا السلوك الشائن ، وتلك الغطرسة ، وذلك التوحش ، وعدم احترام البشر للآلهة أو اعترافهم بحقوقهم عليهم ، أهم الاسباب التى أودت بذلك الجيل وأطاحت بنعيمه .. فقد غضب زيوس من ذلك غضبا شديدا ، وبلغ به الكدر والحزن مبلغا عظيما ، ولم يعد يطيق صبرا عليهم بعد أن أهملوا واجبات احترام الخالدين ، فخسف بهم الارض وطهرها منهم !

.. بيد أن رجال ذلك العصر الفضى لم يكونوا خلوا تماما من جميع الفضائل بدرجة تحرمهم كل تكريم وتبجيل ، فبعد انقضاء حياتهم على الارض ، تشفع لهم بعض الآلهة عند زيوس وألحوا فى الشفاعة حتى لان قلبه وسمح لهم بأن يجوسوا خلال الارض كالارواح والاشباح .. وكانت تلك خاتمة الجيل الفضى !

العصر البرونزى

◆ **وخلق** زيوس بعد ذلك جيلا ثالثا هو الجيل البرونزى . وكان رجال ذلك العصر يختلفون عن سابقيهم تمام الاختلاف : فقد

كانت القسوة طبيعتهم ، والعنف ديدنهم ، لا يهتمون بغير الطعن والقتال .. وكانوا دائمى الميل الى التنكيل بعضهم ببعض ، فلا يقر لاحدهم قرار حتى يسىء الى أخيه ! ولقد عافوا ما تخرجه الارض من ثمرات وأباحوا لانفسهم لحوم الحيوانات ، يقتاتون بها ويزدردونها ازدرادا . وكانت عزيمتهم أصلب من الماس ، وأكتافهم عريضة ضخمة ، وسواعدهم قوية مفتولة ، لا يصارعون شخصا الا صرعوه ، ولا ينازلون امرءا الا أنزلوا به الهزيمة النكراء .. لجأوا الى البرونز فاتخذوا منه عدتهم ومنازلهم وآلاتهم — اذ لم يكن الحديد قد ظهر حتى ذلك العصر ..

ورغم ميلهم الى الحرب والقتال واستمرار النزال والمبارزة فيما بينهم ، واجادتهم فنون المصارعة والنزال ، فانهم لم يكن لهم حول ولا طول أمام الموت الذى اذا ناداهم داعيه ، خروا سجدا لرهبته وتضاءلت قوتهم أمام جبروته .. فلما تركوا الدنيا والارض التى تسطع عليها الشمس بأشعتها الذهبية ، رحلوا الى ديجور الظلام الدامس فى العالم السفلى ..

أنصاف الآلهة !

.. **وانقرض** هذا الجيل كسابقه ، فخلق زيوس جيلا رابعا يعمر الارض ويمشى فى مناكبها ، يأكل من خيراتها ويتغذى بثمارها .. وكان الناس فى ذلك الجيل يفضلون سابقيهم نبلا وأخلاقا وانصافا . كانوا أبطالا بالمعنى الصحيح ، فأطلق عليهم القدامى لقب « أنصاف الآلهة » !.. بيد أن النزاع دب أخيرا بينهم ، واشتركوا فى حروب عدة : بعضها أمام أبواب طيبة السبعة حيث قاتلوا من أجل عرش الملك «أوديب»، وبعضها الآخر فى ساحة طروادة حين استقلوا سفنهم وركبوا لجج البحار العاتية وحاربوا بحد السيوف من أجل هيلينا الحسناء التى لم تحمل الارض أجمل منها ! .. فلما انقضى أجلهم على الارض بسبب الحروب والكوارث ، خصص لهم زيوس بقعة فى الطرف الاقصى من الارض فى جزر المباركين اشتهرت بضيائها الساطع وجوها المعتدل وسط البحر الشديد الظلام .. فقضوا فى هذه الجزر حياة هادئة هنيئة بعد موتهم ، وكانت الارض تمدهم ثلاث مرات فى العام بكميات عظيمة من الثمار الناضرة الشهية !

العصر الحديدى

صنع زيوس الثاقب النظر بعد ذلك جيلا خامسا من البشر يقيم فوق الارض الطيبة .. وهو الجيل الذى وصفه الشاعر اليونانى « هسيود » بهذه الزفرة من الحزن والاسى اذ يقول : « ليتنى لم أكن

من الجيل الخامس ، بل ليتنى مت قبل ذلك ، أو لم أولد الا بعد هذا الجيل ، فهذا هو عصر الحديد حقا » .. **لن يكف البشر فيه عن العمل قط ، ولن تفارقهم الهموم بالنهار ولا الفناء بالليل ، ولسوف تصب عليهم الآلهة جام غضبها ، فان أعمال البشر الخيرة لا تخلو من الآثام ، وسوف يهلك زيوس هذا الجيل كذلك عندما يحين الوقت الذى يولدون فيه وقد نبت الشعر فى جباههم .. يوم يفر الاب من بنيه ، والابن من أبيه ، والضيف من مضيفه ، والزميل من زميله ، ويمقت الاخ أخاه ولا يحترم المرء والديه كسابق عهده ولا يجد الشيوخ من يعطف عليهم اذ ينهرهم بنوهم ولا يكرمون لهم القول ، فقد غلظت أكبادهم من الشرور وعدم تقدير جلال الآلهة ، ولسوف يجحد الشيوخ فضل آبائهم وما أسدوه اليهم من جميل صنع ورعاية ، متخذين من قوتهم سلاحا يوطدون به أركان حقوقهم .** ولن يتورع المرء عن سلب مدينة غيره ، ولن يحابى من يفى بالوعد ولا من يصنع المعروف ولا ذوو البر والاحسان ، وليت الامر يقف عند هذا الحد ، بل سوف يحمد الناس فاعل الشر والشرير ، ويعظمون الطغاة والمستبدين ، ولا يكون عدل الا عن طريق القوة ، وتبيد أمارات الاحترام من الدنيا ، ولا يسلم الشرف الرفيع من الاذى حتى يراق الدم على جوانبه ، وتكال له الالفاظ النابية كيلا مطففا ، وسوف يلازم الحسد التعساء بعويله المرتفع ووجهه الدميم الخلقة ، وسوف تغادر « أيدوس » ربة التواضع و « نيميسيس » ربة الحظ الرشيقتان الارض ذات المناكب الفسيحة وترحلان الى جبل الاوليمب وهما فى ملابس ناصعة البياض ، لتنضما الى مصاف الآلهة الخالدة . عندئذ يصلى البشر آلاما مبرحة ونوائب لن تحول دونهما أية قوة مهما عظمت ! »

عقوبة البشر الضالين !

◆ **وخلال** كل تلك العصور كان زيوس يرقب البشر بعين ساهرة ، وقد أثار ضلالهم ثائرته الى حد جعله يقسم أن يهلك الجنس البشرى بأكمله دفعة واحدة !.. ولم يتردد الا فى اختيار الطريقة التى ينفذ بها غرضه ، فلما أدركته الحيرة بشأن ذلك ، سأل الآلهة الاخرى أن تعينه فى مهمته بمشورتها ..

وكان الاقتراح الأول أن يفنى العالم بنار هائلة يشعلها زيوس فى أرجائه بواسطة الصواعق !.. وقد صادف هذا الاقتراح هوى من نفس كبير الآلهة ، فكاد ينفذه فورا ، لولا أن خشى فى آخر لحظة أن تمتد ألسنة اللهب الى سمائه هو فتحيل فردوسها حطاما .. ومن ثم فقد

نبذ زيوس الفكرة وطالب الآلهة باقتراحات أخرى

وبعد مناقشات ومشاورات ، اتفقت كلمة الآلهة على محو البشر من على سطح الارض بواسطة طوفان عظيم !.. فصدرت التعليمات الى الرياح بأن تجمع سحب الامطار كلها فوق الارض ، وأطلق « بوزيدون » – اله البحر – عنان الأمواج ، بعد أن أمرها بأن تثور وترتفع ، ثم تفيض فتغرق الارض !

ولم تكد الآلهة تنطق بأوامرها هذه حتى استجابت لها عناصر الطبيعة : فزأرت الريح ، وسقطت الامطار فى سيول مخيفة ، وهاجت البحيرات ، وماجت البحار والانهار والمحيطات ، فكسرت أسوارها وقفزت الى ما وراءها ..

ورأى البشر المذعورون ثورة الطبيعة ، فنسوا خلافاتهم التافهة أمام خطر الموت الماحق ، واندفعوا اندفاع رجل واحد نحو الجبال يتسلقونها ، والاشجار يتعلقون بها .. وهرع بعضهم الى الزوارق الخفيفة التى بنوها فى أيام لهوهم كى يسبحوا بها .. لكن جهود الجميع ذهبت سدى ، فقد استمرت المياه ترتفع فتكتسحهم طبقة بعد طبقة ، وتطغى على مخابئهم .. حتى أغرقت صرخاتهم الاخيرة اليائسة فى غمرة أمواجها العاتية ..

تعمير الكون .. من جديد

◆ **وظلت** الامطار تهمى .. حتى غطت المياه سطح الارض كلها عدا قمة جبل «بارناسوس» – أعلى قمم جبال اليونان – حيث احتمى ابن بروميتيوس المدعو « دوكاليون» وزوجته الوفية بيرا ، ابنة باندورا .. ومن فوق تلك القمة رأى الزوجان بأعين دامعة فناء البشر جميعا .. عداهما !

وكان الاثنان هما الوحيدان اللذان عاشا حياة فاضلة ، فى عالم ضل كله وغوى .. فلما رآهما زيوس وحيدين فوق القمة ، وتذكر صلاحهما ، اعتزم أن يفتديهما من الهلاك .. فأمر الرياح بأن تعود الى كهفها ، والامطار بأن تكفكف دمعها .. واستدعى اله البحر أمواجه الهائجة فتراجعت فورا الى حدودها !

وتبع الناجيان – « دوكاليون » و « بيرا » – المياه المنحسرة عن الجبل خطوة فخطوة الى أسفل ، وهما يتشاوران فى كيفية تعمير الارض الموحشة بالبشر من جديد . وخطر لهما أن يقصدا الى صومعة (دلفى) كى يستشيرا الآلهة فى هذا الصدد .. وكم كانت دهشتهما وذعرهما حين سمعا صوت الآلهة يقول : « ارحلا من هنا وعلى وجهيكما نقاب ، واطرحا عظام أمهاتكما خلفكما ! » .. وكان معنى اطاعة هذا الامر تدنيس حرمة

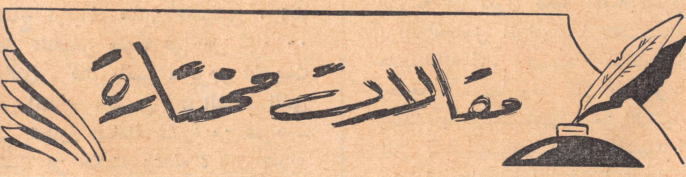
القبور ، وهى جريمة لا تغتفر فى عرف ذلك العصر ، فضلا عن عقوبتها الشديدة ..

وبعد تفكير عميق اهتدى دوكاليون الى تفسير لهذا الامر الالهى الغامض ، فقال لزوجته بيرا : « أغلب الظن أن الآلهة تقصد بلفظ « الام » الارض ، فهى أم الجميع .. وتقصد بعظامها الاحجار !

واستراح الزوجان الى هذا التفسير ، فقررا أن يعملا بواجبه فورا .. ومن ثم استأنفا الهبوط من الجبل ، وأخذا يطرحان الاحجار وراء ظهريهما .. فاذا الاحجار التى رماها الزوج تتحول لساعتها الى رجال ، وتلك التى طرحتها الزوجة تتحول الى نساء !

وهكذا امتلأت المعمورة للمرة الثانية ، بجيل من البشر الابرار ، بدلا من جيل الاشرار الذى أهلكه رب الآلهة زيوس !

« يتبع »



وتنفست روما الصعداء !

◆ كانت الامبراطورية الرومانية فى اواخر عهدها قد منيت بانحلال خلقى شنيع ، فدب الفساد فى ارجائها ، وكان الأباطرة هم أظهر رسله وعبيده ..

وهذه صورة من صور الابتذال الذى ساد الامبراطورية الرومانية المتداعية :

النار التى خلفت رمادا !

◆ الوقت : سنة ٢٥٣ قبل الميلاد .. وقد انتخبت فرق الجيش الرومانى ، القائد الشجاع الباسل « فاليريانس » امبراطورا للدولة الرومانية التى كانت تترنح ..

كان الاعداء قد رفعوا رؤوسهم ليوقعوا بالامبراطورية الضربة القاضية .. وكانت كل ولاية من ولاياتها التعسة قد انتفضت متمردة « ولم يجد الجيش نفسه — فى أية فترة من حياته السابقة — مضطرا لأن يواجه من الاحداث

والاعداء مثل ذاك العدد الذى كان مضطرا لمواجهته فى تلك الفترة !

وقوبل انتخاب « فاليريانس » بحماس شديد ، فقد كان رجلا مستقيما ، مطهرا من كل شائبة أو رذيلة ، عادلا فى حكمه ، لطيفا فى مسلكه ، تؤهله شجاعته وحكمته وقوة شخصيته لأن يتولى قيادة الأمة .. وكذلك كانت زوجته : امرأة مثالية ، وقدوة عالية للنساء !

ولكن القدر أبى الا أن يكون نتاج ارتباط هذين النبيلين ، ابنا على النقيض منهما فى كل شيء .. وكان « فاليريانس » يرجو ان يبث فى ابنه « جالنيس » ـ الشاب الذى لم يتجاوز الثامنة عشرة من عمره ـ شيئا من حكمته وعدله ، وأن يدربه على التبعات ، ويروضه على تحمل المسئوليات ، فأشركه معه فى الحكم ..

ولكن أمانى الأب لم تتعد حدود الأحلام ! .. فان محاولاته الدائبة للتغلب على النزعات الشريرة فى نفس « جالنيس » لم تزد الشاب الغاوى الا امعانا فى غيه وايغالا فى الانحراف عن الطريق السوى الذى كان يدعوه اليه !

وبقى لدى الأب سهم أخير لم ير بدا من ان يطلقه فى جهد المستيئس : ان يزوجه ، ليحمله على ان يعرض عن الغاويات اللائى كن يحمن حوله ، لا كالفراش ، وانما كالذباب !

مجون ولى العهد

◆ **وبالفعل** ، اختار « فاليريانس » لابنه اميرة اغريقية جمعت بين جمال الخلق وجمال الخلقة، حتى لقد كانت مثالا للانوثة العفة . الفاتنة ، الذكية .. وزفت « سالونينا » الى « جالبنس » . بيد ان الزواج لم يكن للشاب اكثر من مغامرة جديدة .. ولم تعد الزوجة ان تكون تحفة آدمية أخرى يرتاد مجاهل أنوثتها لاشباع ملذاته !.. وهكذا سرعان ما زهدها ، سيما وقد كان طهرها وسذاجتها واحتشامها ، من الاشياء التى لا يستسيغها ذوقه المفسود ! .. ولم يفلح جمالها فى اجتذابه ، بل كان لا يفتأ يكرر بيتا من الشعر الذى نظمه « اوفيد » : « فى روما من الحسان ما يتجاوز نجوم السماء عدا » !

وأخذ ((جالينس)) يقضى نهاره فى حمامات « كاراكلا » ـ حيث كان ذوو اليسار يرضون أحط شهواتهم ومباذلهم ـ ويصرف ليله فى اللهو والعبث ، منصرفا عن شئون الدولة، وعن زوجته الشابة الفاتنة ، التى حاولت ان تصلحه بكل ما أوحت اليها فطرتها من حيلة ، فلم تفز منه بغير التهكم والسخرية .. ولم يزدد الا اهمالا واستخفافا بشئون

الحكم ، حتى انه حين أنبىء باقتطاع مصر من جسد الامبراطـورية ، لم يجد ما يعرب به عن رد فعل النبأ اكثر من ان قال : « فى وسعنا معشر الرومان ان نواصل الحيـاة بدون الكتان المصرى » !

وعندما اذيع نبأ ضياع جزء من بلاد «الغال» - فرنسا - لم يعلق بأكثر من ان الامبراطورية لن تنهار لمجرد حرمانها من التيل الذى كانت تستورده من هناك !

الاب يقاتل ٠٠ والابن يعربد!

◆ **وأخذت** الاحداث تتوالى ، مقتطعة فى تتابعها السريع اجزاء من الامبراطورية ، واقساطا من هيبتها وكرامتها ٠٠ وبلغت الامور ذروة الخطر حين انذر ملك الفرس بأن يجتاح بجيشه الضخم آسيا بأسرها، بعد ان استولى على « ارمينيـا » و « سـوريا » و « انطاكيـة » و «كبودوتشيا» ، واعمل فيها سلبا وغنما !

ولم يجد « فاليريانس » بدا من ان يهب بنفسه لنجدة الامبراطورية، ولمشاطرة جيوشه الجهاد ٠٠ فنزح الى الشرق ليخوض المعارك ، ورافقته زوجته « مارينيـانا » لتكون على مقربة منه ٠٠ وشـاعت فى الامبراطورية حمى القلق والانفعال، وهى تترقب الانباء ٠٠

شخص واحد هو الذى لم يكترث لكل هذه الاحداث والنذر ٠٠ وهذا الشخص هو « جالينس » ، الذى غدا مسئولا عن الشئون الداخلية للامبراطورية ، فاذا به لا يحفـل بها ، اذ شغل عنها بغرام جديد ، فقد بلغته عن « بيبارا » ابنـة « اطالاس » - ملك عشـائر « الماركومان » فى المانيا الجنوبية - ما اشعل نزواته - واذكى شهوته ٠٠ ولكنها كانت اميرة ، ولا سبيل له الى ضمها الى اسراب محظياته ٠٠ ثم أنها كانت من « البربر » ، فلم يكن القانون الرومانى يبيح له أن يتزوج منها !

ولـكن « جالينس » لم يكن يعترف بيأس ازاء شهواته ، لذلك لم يتورع عن ان يستغل لتحقيقها مجلس الشورى «الشيوخ» ، سيما بعد ما تردى فيه هذا المجلس من انهيار وتملق للامبراطور ٠٠ وما صار اليه ، اذ قتل يوما فى رحابه « يوليوس قيصر » ، لمجـرد ان الشبهات حامت حوله !

يسخر من مجلس الشيوخ لارضـــاء شهواته !

◆ **وفى** المجلس الذى طالما ترددت فى جنباته اصوات الخطباء وهم يخوضون المعارك السياسية من اجل الامبراطورية الرومانية ، وقف «جالينس» يلقى اجرأ واوقح خطاب

٠٠ وقف يزعم ان «روما» فى غمرة الضيق والنكبات اصبحت فى اشد الحاجة الى حليف جديد يمدها بفيض من الجنود ٠٠ وانه قد وجد هذا الحليف فى شخص «اطالاس» ، بيد ان بلاد هذا الحليف لا تخضع للتشريع الرومانى فلا سبيل الى معونتها المنشودة الا بتحالف معقود ٠٠ ولا حافز لهذا التحالف سوى رابطة تنأى عن السياسة ، وتنطوى على اغراء للملك ٠٠ وخلص من هذا الى ان خير رابطة هى الزواج ٠٠ ثم ، وفى لهجة المقدم على التضحية، اعلن « جالينس » انه على استعداد لأن يتزوج من ابنة « اطالاس » ٠٠ من اجل روما ، ومن اجل الامبراطورية !!

وبهت شيوخ الامة، فلم يحيروا جوابا ٠٠ اذ لم يسبق لأعتى الاباطرة واجرأهم ان دعا المجلس الى خرق للقانون كهذا ! ٠٠ ولكن « جالينس » لم يكن بحاجة الى ارتقاب ردهم، اذ كان قد عقد عزمه على المضى الى غايته، غير حافل برأى او مشورة ٠٠ ومن ثم بادر بايفاد رسول الى « اطالاس » ، الذى رأى فى مشروع « جالينس » فرصة سانحة للاستغلال ، فوافق على ان يبعث بابنته الى روما ـ دون زواج ! ـ فى مقابل الاستيلاء على «بانونيا»، (وهى المنطقة التى تضم معظم النمسا والمجر وتشيكوسلوفاكيا)، ولم يتردد « جالينس » فى القبول ٠٠ وهكذا ابرمت المعاهدة المخزية !

الصراع بين الزوجة والعشيقة!

◆ ووفدت « بيبارا » على روما ، فأعشت عينيها أضواء المدينة الباهرة ، وأذهلتها الفوارق الشاسعة بين عاصمة الحضارة ، وبين البيئة المتأخرة التى نشأت فيها ٠٠ وألهاها الترف والبذخ البالغان عما كانت مسوقة اليه ، وعن حقيقة « الصفقة » التى باعها بموجبها ابوها !

وقابلت « الزوجة « سالونينا » هذا التطور بشقوة طاغية ، فوق ما كانت مغرقة فيه من شقاء ٠٠ كانت قبل ذلك تجد فى فلسفة معلمها واستاذها ما يسرى عنها ويعزيها ٠٠ اما الآن ، فقد وجدت نفسها ازاء غريمة جديدة ، ليست ككل الغريمات ٠٠ اميرة ذات نفوذ لا حد له !

وكانت تدرك ان نجم الحبيبة الجديدة لن يلبث ان يخبو كنجوم سابقاتها ، اذا ما أشبع « جالينس » نهم غرائزه وتطرق الملل الى قلبه٠٠ ولكن هذا الادراك لم يخفف من وقدة الغيرة التى اضطرمت فى قلبها ، ومن وطأة القلق على مركزها ٠٠ ولأول مرة منذ رحيل « فاليريانس» و «مارينيانا» ، الفت نفسها وحيدة دون من يحميها ويدرأ عنها نزوات

زوجها .. وتولاها القنوط حين اعلن ان «فاليريانس» قد وقع اسيرا فى يد غريمه الفارسى « سابور » .. وأصبح الملك لزوجها ، لا شريك له فيه !

وتوالت الأنباء السيئة، تزيدها يأسا على يأس .. فلقد اخذ الامبراطور الاسير يتعرض لأنكى انواع المذلة والمهانة ، حتى لقد كان يجبر على ان يحنى ظهره كى يصعد عليه « سابور » الى صهوة جواده !

وساد الحداد الامبراطورية كلها أسفا على امبراطورها الحبيب ..

ومرة اخرى .. شخص واحد هو الذى لم يكترث لهذه الأحداث، وكان من اغرب الحقائق التى لا يكاد يتصورها العقل ان «جالينس» كان هذا الشخص .. فلا هو اضطرب لمصير الامبراطورية .. ولا هو جزع لمصير ابيه .. بل انه لم يحفل باتخاذ اية محاولة لنجدة أبيه وتخليصه من الذل !.. وعندما كان يفاتح فى ذلك ، كان يجيب :

ـ ما كان ابى سوى بشر معرض لتقلبات الحظ وتصرفات القدر .. ويكفيه سعادة ان يطمئن الى انه ادى واجبه كاملا ..

يخضب يديه بالدم .. ليلهى شعبه عن مجونه !

◆ **وهكذا** لم يعد لجالينس من هم سوى ان يرضى « بيبارا » ويدخل البهجة والمتعة على نفسها .. ولكن الأحداث لم تلبث أن اضطرته ـ فى اواخر العام التاسع من تفرده بالحكم ـ الى التفكير فى عمل يرضى به الشعب المتذمر ويهدىء من انفعاله .. فانتهى الى ان حشد جيشه ، لا ليسير به الى الشرق فينتقم لأبيه من ملك فارس ، وانما لينشد فوزا هينا لا يتعبه .. فسار الى «الغال» حيث اخمد الثورة التى كانت قد شبت هناك .. ثم تحول الى « بيزنطة » فأسكت بعض القلاقل .. وكأنما كان الغيظ من هذه الاحداث التى صرفته عن لهوه الى حين ، يغرى فؤاده ، فنهج فى هذه الحملات ابشع سبل التنكيل والبطش، حتى لقد اصدر اوامره فى «بيزنطة» فاذا بجنوده يقومون بمذبحة عامة !

ثم عاد الى روما ليحتفل بالعام العاشر لحكمه، ودماء الضحايا تخضب يديه ..

تستهويه بنفس السلاح !

◆ **وكانت** « سالونينا » قد بدأت ـ فى تلك الاثناء ـ تفقد الأمل فى ان يتطرق السأم الى فؤاد زوجها نحو « بيبارا » .. فمع انه لم يتخذها زوجة ، الا انه ظل عالقا بها ، وقد رضيت لنفسها ـ وارتضى لها ابوها ـ ان تكون بين محظيات الامبراطور الخليع !

على ان عدم الزواج فى حد

ذاته جدد الامل فى نفس «سالونينا»، **ودفعتها اللهفة لتعزيز مكانتها الى ان تقبل أخيرا ان تسعى الى اجتذاب زوجها بنفس السلاح الذى كان يستهويه فى الغانيات والمحظيات .. فأقبلت تعنى بزينتها فى مغالاة، وتلبس من الثياب ما يكشف عن مفاتن جسمها ، وكان لها من الجمال والشباب ما يكسف فتنة « بيبارا » وغيرها من المحظيات ..**

وتألقت انوثتها تحت اشعاع التطور الجديد .. ووجد تجار روما امامهم فرصة جديدة بأن تستغل ، فأخذوا يتوافدون على قصر الامبراطورة يعرضون سلعهم ، وأخذت من ناحيتها تجزل لهم العطاء، منفقة فى بذخ واسراف .. وجاءها أحد تجار الجواهر يوما بعدد من الماسات والاحجار الكريمة ، لم تتردد فى ابتياعها منه بثمن باهظ .. ولكنها ما لبثت أن تبينت أن معظمها كان من الجواهر الزائفة ، مما أثار حنقها ، فأمرت بالقبض عليه ، والقائه للوحوش !

وفى اليوم الموعود ، ازدحمت المدرجات بالنظارة ، وقد جاءوا يشهدون التعس وهو يلقى مصرعه البشع .. واقتيد الرجل الى الحلبة فأوثق الى عمود قائم فى مواجهة عرين الوحوش .. واخذ القوم يسمعون صيحات الحراس وسياطهم توحى بأنهم يثيرون الوحوش ويستفزونها .. ثم دقت الطبول ايذانا باطلاق الوحوش ، فأمسك الكل بأنفاسهم ، ولم يعد يسمع سوى انين التاجرالتعس وقد استبد به الذعر واليأس ..

وفجأة ، انطلق من فوهة العرين المظلم .. ديك ! اجل ، ديك اخذ يرفرف بجناحيه ، ثم اقترب ونقر التاجر فى وجهه ..

ولم يصدق القوم ابصارهم .. وظلوا ممسكين انفاسهم فى ارتقاب .. وفى غمرة الانفعال الصامت ، ارتفع صوت منفذ الأحكام يعلن ان الامبراطورة رأت ان يكون عقاب التاجر من جنس عمله .. خدعة بخدعة !

الخلاص

◆ **ولم تلبث** الآمال فى عودة « فاليريانس » من الأسر ان وئدت ، اذ تناهت الانباء بموته فى سجنه.. وكأنما كان وجوده صمام أمن أزيح، فاذا الحنق يندفع منمراجل الصدور فى روما ضد « جالينس » المستهتر المتبذل المفسود ..

ومن احد المعسكرات الحربية ، قاد حفنة من الضباط البواسل الثورة ، وأجهزوا على الامبراطور الابن، الذى لم يكن قد تجاوز الثالثة والثلاثين ..

وغدت « سالونينا » ارملة .. وخلي عن « بيبارا » فاعيدت الى ديار ابيها ..

وتنفست روما الصعداء !

روضة الشعر

مختارات من روائع الشاعر أحمد شوقى

غاندى

بنى مصر ارفعوا الغار　　　وحيوا بطل الهند
وأدوا واجبا واقضوا　　　حقوق العلم الفرد
أخوكم فى المقاساة　　　وعرك الموقف النكد
وفى التضحية الكبرى　　　وفى المطلب والجهد
وفى الجرح وفى الدمع　　　وفى النفى من المهد
قفوا حيوه من قرب　　　على الفلك ومن بعد
وغطوا البر بالآس　　　وغطوا البحر بالورد

*

على افريز (راجبوتا　　　ن) (1) تمثال من المجد
نبى مثل (كونفوشيو　　　س) أو من ذلك العهد
قريب القول والفعل　　　من المنتظر المهدى
شبيه الرسل فى الذود　　　عن الحق وفى الزهد
لقد علم بالحق　　　وبالصبر وبالقصد
ونادى المشرق الأقصى　　　فلباه من اللحد
وجاء الأنفس المرضى　　　فداواها من الحقد
دعا الهندوس والاسلا　　　م للألفة والود
بسحر من قوى الروح　　　حوى السيفين فى غمد

*

سلام النيل يا غاندى　　　وهذا الزهر من عندى
واجلال من الاهرا　　　م والكرنك والبردى
ومن مشيخة الوادى　　　ومن أشباله المرد
سلام حالب الشاة　　　سلام غازل البرد
ومن صد عن الملحَ　　　ولم يقبل على الشهد
ومن يركب ساقيه　　　من الهند الى السند !
سلام كلما صليت عريانا وفى اللبد
وفى زاوية السجن　　　وفى سلسلة القيد

(1) راجبوتان : الباخرة التىأقلت غاندى من الهند الى لندن

من (المائدة الخضراء) (١) خذ حذرك يا غاندى
وكن ابرع من يلعب بالشطرنج والنرد
ولاقى العبقريين لقاء الند للند
وقل هاتوا أفاعيكم أتى الحاوى من الهند !

خدعوها !

خدعوها بقولهم حسناء والغوانى يغرهن الثناء
أتراها تناست اسمى لما كثرت فى غرامها الاسماء
ان رأتنى تميل عنى كأن لم تك بينى وبينها أشياء !
نظرة فابتسامة فسلام فكلام فموعد فلقاء
ففراق يكون فيه دواء أو فراق يكون منه الداء
يوم كنا ولا تسل كيف كنا نتهادى من الهوى ما نشاء
وعلينا من العفاف رقيب تعبت فى مراسه الاهواء
جاذبتنى ثوبى العصى وقالت أنتم الناس ايها الشعراء
فاتقوا الله فى قلوب العذارى فالعذارى قلوبهن هواء
لا السهد يطويه ولا الاغفاء ليل عداد نجومه رقباء
رفقا بجفن كلما أبكيته سال العقيق به وقام الماء

رمضان ولى ..

رمضان ولى هاتها ياساقى مشتاقة تسعى الى مشتاق
ما كان اكثره على ألافها وأقله فى طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها ان كان ثم من الذنوب بواق
بالأمس قد كنا سجينى طاعة واليوم من (٢) العيد بالاطلاق
ضحكت الى من السرور ولم تزل بنت الكروم كريمة الأعراق
هات اسقنيها غير ذات عواقب حتى نراع بصيحة الضفاق (٣)
صرفا مسلطة الشعاع كأنما من وجنتيك تدار والأحداق
حمراء أو صفراء ان كريمها كالغيد ، كل مليحة بمذاق
وحذار من دمها الزكى تريقه يكفيك يا قاسى دم العشاق
لا تسقنى الا دهاقا (٤) اننى أسقى بكأس فى الهموم دهاق

---

(١) كان غاندى يومئذ مسافرا الى لندن لحضور مؤتمر المائدة المستديرة الذى انعقد للبحث فى دستور الهند

(٢) بتشديد النون (من المن) — (٣) الضفاق : الديك

(٤) الدهاق (من الكؤوس) : الممتلئة

فلعل سلطان المدامة مخرجى ... من عالم لم يحو غير نفـاق
وطنى أسفت عليك فى عيد الملا ... وبكيت من وجد ومن اشـفاق
لا عيد لى حتى أراك بأمـة ... شماء راوية من الأخـلاق
ذهب الكرام الجامعون لأمرهم ... وبقيت فى خلف بغير خـلاق
أيظل بعضهم لبعض خـاذلا ... ويقال شعب فى الحضارة راق
واذا أراد الله اشـقاء القرى ... جعل الهداة بها دعاة شـقاق

على قدر الهوى ..

على قدر الهوى يأتى العتاب ... ومن عاتبت يفـديه الصحاب
ألوم معذبى فألـوم نفسى ... فأغضبها ويرضيها العذاب
ولو انى استطعت لتبت عنه ... ولكن كيف عن روحى المتاب

السياسة فى قوافى الشعر

عندما حدث الشقاق بين ثروت وسـعد فى أعقاب تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ ، هالت شوقى الفرقة بين الصفوف فهتف يقول :

ضموا الجهود وخلوها منكرة ... لا تملأوا الشدق من تعريفها عجبا
أفى الوغى ورحى الهيجاء دائرة ... تحصون من مات أو تحصون ماسلبا؟
اذا رأيت الهـوى فى أمة حكما ... فاحكم هنالك أن العقل قد ذهبا

الامة مصدر السلطات

وانتهز الضجة التى حدثت عند اكتشاف مقبرة ((توت عنخ آمون)) ليزجى بعض الحكم والنصائح والآراء السياسية ، فى قصيدة كتبها عن الكشف فقال :

وليس الخـلد مرتبـة تلقى ... وتؤخـذ من شـفاه الجاهلينا
ولـكن منتهى همـم كبـار ... اذا ذهبت مصـادرها بقينـا
وسر العبقـرية حين يسرى ... فينتظم الصـنائع والفنـونا
وآثار الرجـال اذا تناهت ... الى التـاريخ خير الحاكمينـا

وقال فى سبأ: القصيدة عن خير نظم الحكم :

زمان الفـرد يا فرعون ولى ... ودالت دولـة المتجبرينـا
وأصـبحت الرعاة بكل أرض ... على حكم الرعيـة نازلينـا

جامعة القاهرة
كلية الاداب

تعلن كلية الاداب بجامعة القاهرة عن وجود وظيفة خالية لاستاذ « ج » (٧٠ ج - ٨٠ج شهريا) لكرسى الاثار الاسلامية الخالى بها . وانها ترغب فى شغل هذا الكرسى لمن تتوفر فيه الشروط المنصوص عليها فى لوائح الجامعة بشرط أن تكون له ابحاث قيمة مبتكرة فى مادة الكرسى .

وتقدم الطلبات باسم الاستاذ عميد كلية الاداب بجامعة القاهرة على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما فى ميعاد لا يتجاوز ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٤ ٨٣٨٥

جامعة القاهرة
كلية الاداب

تعلن كلية الاداب بجامعة القاهرة عن وجود وظيفة مدرس خالية بكل من :

١ - معهد اللغات الشرقية فرع لغات الامم الاسلامية لتدريس تاريخ الهند الاسلامى .

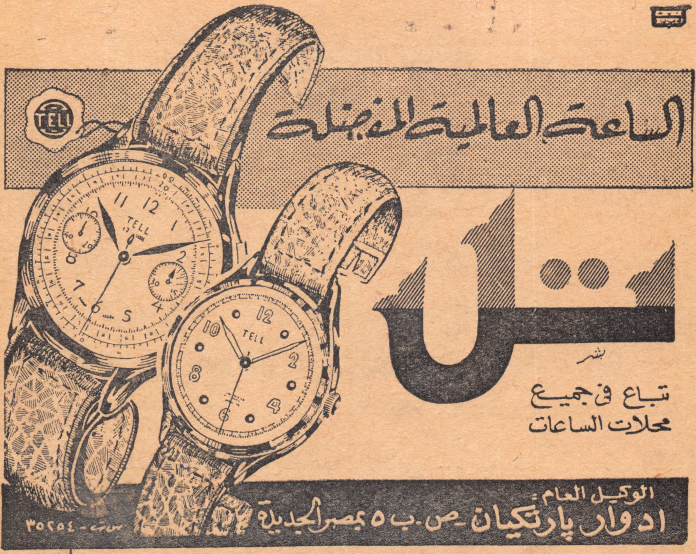
٢ - معهد الاثار - فرع الاثار المصرية

٣ - معهد التحرير والترجمة والصحافة

وانها ترغب فى شغل هذه الوظائف لمن تتوفر فيه الشروط المنصوص عليها فى لوائح الجامعة وتقدم الطلبات باسم الاستاذ عميد كلية الاداب بجامعة القاهرة على ورقة تمغة من فئة الخمسين مليما فى ميعاد لا يتجاوز ١٥ سبتمبر سنة ١٩٥٤

وزارة الحربية
مصلحة الطيران المدنى

يقبل مدير عام مصلحة الطيران المدنى تقديم العطاءات حتى تمام الساعة الثانية عشرة من ظهر يوم ١٩٥٤/٩/٢٠ عن عملية انشاء سور مبانى حول مطار بور سعيد . ويمكن الحصول على الشروط والمواصفات والرسم من قسم المشتريات (٣١ شارع فؤاد الاول بالقاهرة) مقابل جنيه مصرى يضاف اليه ثمانون مليما اجرة البريد . وتقدم الطلبات على ورقة تمغة فئة الخمسين مليما . ٨٣٨٠



سكك حديد جمهورية مصر

تعلن المصلحة مرة أخرى جمهور المصيفين بالاسكندرية وضواحيها ورأس البر بأنها مستعدة لنقل عفشهم من منازلهم الى المصايف بأجور اضافية تتراوح بين ٩٠ و١٠٠ مليم للطرد الواحد .

ويمكن الاستعلام من محطة القاهرة تليفون ٧٩١١٢ أو ٤٩٦٨٢ .

ومن محطة الاسكندرية تليفون ٢٦٢٢١ أو ٢٠٠١٠ أو ٢٣٢٠٧ .

ومن محطة دمياط تليفون رقم ٧٥ .

محتويات الكتاب

ايضـــاح

◆ **نظرا لتغيب صاحب ورئيس تحرير « كتابى » فى الخارج أثناء طبع الملازم الأخيرة من هذا العدد ، فليلتمس القارىء العذر لهيئة التحـرير اذا صادف فى الجزء المذكور بعض الهنات غير المقصودة ..**

مطابع شركة الاعلانات الشرقية



القبلة (تمثال من المرمر فى روما)
من مجموعة المهندس المعمارى « هنرى فريسكو »



جمال الريف

تصوير الاستاذ يوسف عبد الشهيد المحامى

كتابي

الفضول امرأة !

".. أما البشر ، فقد ادخر لهم كبير الآلهة عقابه الأكبر ، فخلق لهم .. المرأة !

وزودت الآلهة المرأة بالجمال والجاذبية ، والصوت الناعم ، والخطو الرشيق ، وأطلقت عليها اسم "باندورا" .. ثم كلفت رسولها الخاص بأن يرافقها من جبل الأوليمب - مقر الآلهة - إلى الأرض ..

وكانت "باندورا" قد أحضرت معها هدية من كبير الآلهة ، هى صندوق صغير مغلق ، حذرت بشدة من أن تفتحه ! .. لكن الخالق الذى خلق المرأة كى تكون لعنة للرجل ، جعل الفضول من طبيعتها ، وأرادها أن تخالف وصيته فتفتح الصندوق الغامض ..

وقد فعلت !

ولم تكد تفتحه ، حتى خرجت منه أسراب من الحشرات الشريرة تحمل جميع الأمراض البدنية والعقلية والنفسية التى قدر للجنس البشرى أن يبتلى بها منذ ذلك التاريخ .. ولكن بقيت فى قاع الصندوق فراشة واحدة ذهبية اللون ، زاهية المنظر ، هى .."

اقرأ أسطورة "حواء .. أصل البلاء" بين محتويات هذا العدد

شركة فن الطباعة ٥٨١٤٩